دروس حسنية

عنوان الكتاب : دروس حسنية

المؤلف : عباس الجراري

رقم الإيداع القانوني : 2015 MO 0819

ردمك :2-41-893-9981-978

الطبعة الأولى ربيع الثاني 1436 = فبراير 2015

مكتبة دار السلام للطباعة والتوزيع – الرباط

دروس حسنية

عباس الجراري

جمع وتقديم

حميدة الصائغ الجراري

منشورات النادي الجراري

-64-

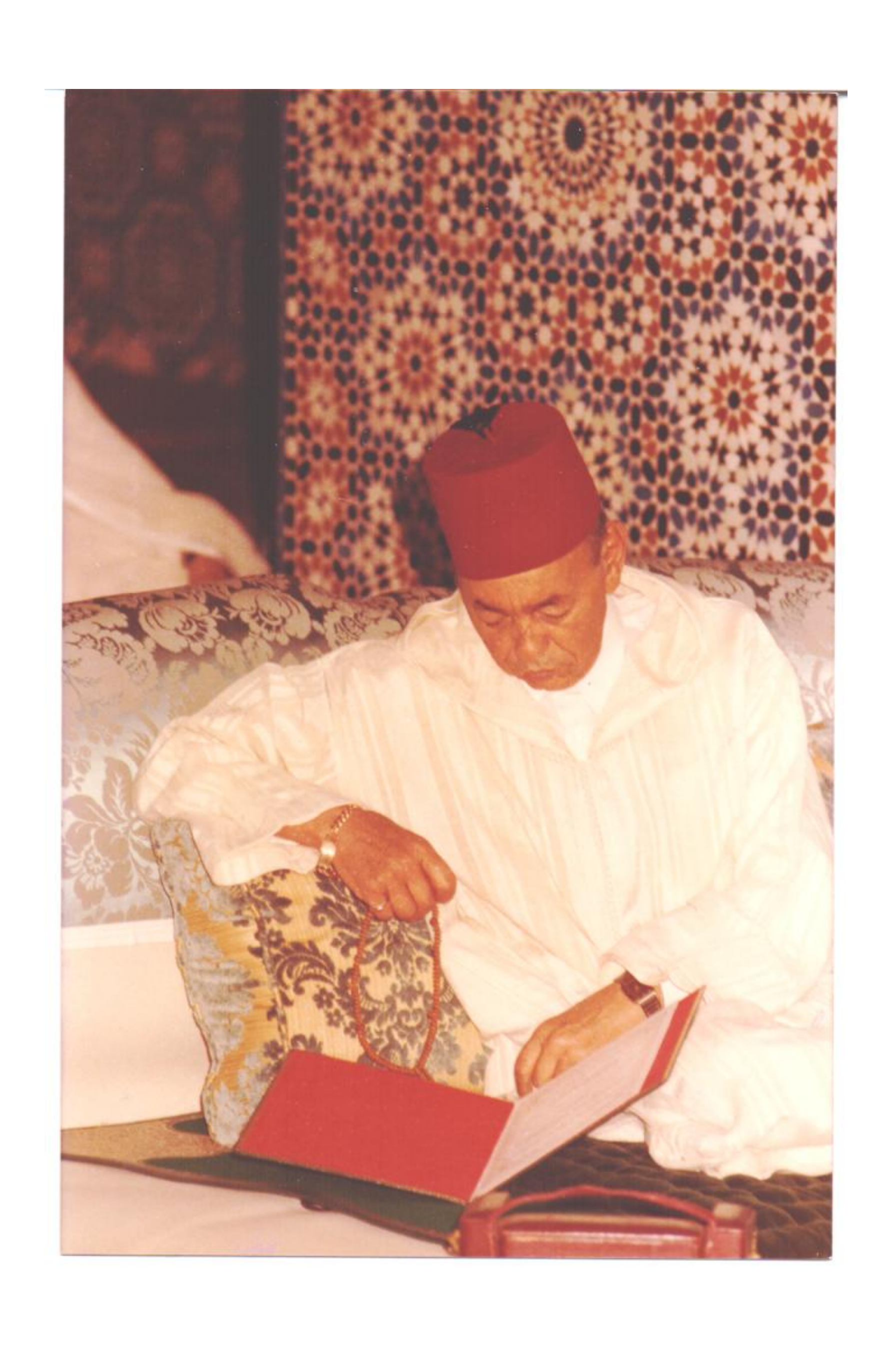


إهـــــداء

إلـى روح مـبـدع الـدروس الحـسـنـيـة جلالة الملك الحسن الثاني
بمناسبة الذكرى السادسة عشرة لوفاته طيب الله ثراه
وأكرم مثواه، داعية العلي القدير أن يبارك في مجددها
وارث سره صاحـب الجلالة الملـك محمد السادس
أيده الله ونصره.

حميدة الصائغ الجراري

الرباط 9 ربيع الثاني 1436هـ
الموافق 30 يناير 2015م



جلالة الملك المنعم مولانا الحسن الثاني
وهو يطلع على موضوع درس اليوم



صاحب الجلالة الملك المعظم

مولانا محمد السادس – وهو يومئذ ولي العهد– في اهتمام بالدرس

تــقــديـــــم

لسم الله الرحمن الرحيم

ما أشبه اليوم بالبارحة، خاطرة بدت لي وأنا طريحة الفراش بتأثير دواء مفروض علي لثلاثة أشهر ؛ فذكرتني بالفترة التي لازمت فيها شريك حياتي إثر عملية القلب المفتوح التي أجريت له، والتي تغلبت عليها بأن وفقني الله لإعداد وتقديم "كلمات تقديم" الذي أهديته لصاحبها د. عباس الجراري، تعويضا له عن التوقف عن الإنتاج طوال تلك الفترة.

واليوم وأنا أعيش ظروفا مشابهة، برقت في ذهني وأنا أتابع حفل ليلة المولد النبوي التي يترأس إحياءها صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده وأمده بالصحة والعافية، كما لم يتوان جلالته في السعي لصحة مواطنيه بالتوجيهات حينا وبالعون المادي أحيانا كثيرة. وذكرني المجلس المهيب بالدروس الحسنية التي يعقدها جلالته كل رمضان إسوة بوالده المرحوم جلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه. واستحضرت الدروس التي شارك بها زوجي عباس واستعرضت موضوعاتها، فوجدتها ما تزال مناسبة للواقع الذي نعيشه اليوم كما كانت في وقتها.

وعرضت على الأستاذ أن أعدها وأقدم لها –تمهيدا لطبعها مجتمعة– فتردد بضعة أيام خشية أن يزيد ذلك في إرهاقي، ولكنه اقتنع أخيرا بعد أن أكدت له أن استغراقي فيها سيشغلني وينسيني طول أسابيع المعاناة من الدواء. وعندها سألته أن يمدني بالدروس وأن يمكنني من

ملفاتها جميعا لأستخرج منها ما سبق أو لحق كل درس، ولأتأكد من صحة ما استحضرت بعضه فلم يبخل علي كعهده مع كل طالب.

وإني لأرجو أن أوفق في هذا الجمع والإعداد مستمدة معونة العلي القدير في ذلك.

*** *** ***

بدأت مشاركة الجراري في الدروس الحسنية بدعوة كريمة مباشرة من جلالة الملك المرحوم الحسن الثاني طيب الله ثراه. كان ذلك بعد أن دعي لحضور الاجتماع الذي عقده جلالته مع بعض الباحثين المهتمين وبمحضر بعض رجال الدولة صباح السبت 26 يوليوز 1975[1].

كان جلالته متصدرا مائدة الاجتماع وعن يساره السيدان أحمد عصمان الوزير الأول يومئذ، والدكتور أحمد العراقي وزير الدولة المكلف آنذاك بالشؤون الخارجية، وفي الجانب الأيمن لجلالته جلس الأساتذة محمد الفاسي وعبد العزيز بنعبد الله ومحمد العباس القباج –وكان محافظا للخزانة العامة– رحمهم الله، وفي الجانب الأيسر جلس المرحوم عبد الوهاب بنمنصور مؤرخ المملكة والدكتور عبد الهادي التازي والأستاذ عباس الجراري.

وقد وقع أثناء الاجتماع حديث مثير يتعلق ببعض الحاضرين ليس هذا مجال ذكره. المهم أن القصد من هذا الاجتماع كان هو التباحث في

---

[1] – كنت سجلت في تقديمي لكتابه "خطب منبرية" (ج1 ص7 منشورات النادي الجراري رقم 53، الطبعة الأولى الرباط 1433هـ=2012م) أن هذا الاجتماع تم في غشت 1975، وهو خطأ أعتذر عنه، وقد صححته بعد الاطلاع على ملفات الدروس التي ألقاها في نطاق الدروس الحسنية وما كان يسجل فيها على كل درس وما يرتبط بها.

موضوع السؤال الذي طرحه أحد قضاة محكمة لاهاي الدولية حول الروابط الدينية التي تجمع المغرب بصحرائه. وكانت قضية الوحدة الترابية يومئذ معروضة على هذه المحكمة، وكان جلالته منشغلا بها وبالتهيئ للمسيرة الخضراء المظفرة إلى حد انعكاس ذلك على الدروس الرمضانية. وعند السلام على جلالته في نهاية الاجتماع، استوقف جلالته كل الذين كانوا حاضرين، وأخذ في التنويه بعباس واستحضار مكانة والده الذي وصفه بـ"الفقيه ديالنا"، وأمره أن يقدم في شهر رمضان الذي كان سيحل بعد نحو شهر ونصف درسا في الموضوع مع التركيز على قضية المذهب.

ومع اقتراب حلول الشهر الكريم وبالضبط يوم 20 شعبان 1395هـ اتصل الأستاذ محمد يسف وكان إذ ذاك مديرا للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف، وأخبر أن لائحة الأساتذة الذين سيحاضرون في دروس هذا العام قد وصلت من الديوان الملكي بعد أن اختار جلالته أسماءهم، وجعل اسم الجراري في طليعة أسماء المغاربة الذين سيشاركون في هذه الدروس، مؤكداً أن جلالته يريد بعث دم جديد فيها بتقديم بعض العلماء الشباب. وطلب السيد يسف باستعجال أن توافى الوزارة بموضوع الدرس والآية أو الحديث الذي سيكون محوره.

وبعد يوم واحد تجدد الاتصال لإخبار الوزارة بعنوان الدرس الذي كان كالآتي: "وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ"، انطلاقا من الحديث الشريف: "إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم". وحسب اتصالات بعض الشخصيات المقربة من جلالة الملك الحسن الثاني، وخاصة الفقهاء المرحومين الحاج امحمد اباحنيني وعبد الرحمان الدكالي ومحمد الرجراجي، أُخبر عباس بإن جلالته قد

اطلع على هذا العنوان وأعجب به وأنه ينتظر بفارغ الصبر يوم تقديم موضوعه.

وبعد أيام قليلة وقبل حلول شهر رمضان عقد اجتماع مع الكاتب العام للأوقاف الأستاذ المرحوم محيي الدين المشرفي باستدعاء منه ونيابة عن الوزير يومئذ المرحوم الداي ولد سيدي بابا. وطلب من عباس أن يحدد التاريخ الذي يمكنه فيه أن يلقي تدريبا على الدرس بضريح مولاي الحسن داخل المشور السعيد، على ما كانت عليه العادة بالنسبة لبعض المرشحين للدروس وخاصة منهم الجدد. فاعتذر بأنه لم يكن هو الذي طلب إلقاء الدرس حتى يكون مضطرا للتمرين عليه أمام لجنة من العلماء، وأن جلالته هو من أمره بذلك.

وبدأت الدروس وكان بعض الفقهاء المقربين من جلالة الحسن الثاني يخبرونه بأمر جلالته أن يكون مستعدا للدرس مع مراعاة التقاليد المتبعة في ما يلقى بحضرته.

وبحكم الانشغال المشار إليه بقضية الوحدة الترابية وما كان له من تأثير على سير الدروس إضافة إلى ضغط عدد الضيوف، وحتى حين قرر جلالته عدم تقديم المحاضرين المغاربة في مجلسه، فقد أمر بتخصيص يومين لدرس الشيخ المكي الناصري رحمه الله ودرس عباس. ولكن يبدو أن الأمر لم يكن ممكنا بحكم ما سبق.

ومع ذلك فحين تقرر برسالة من الديوان الملكي أن يلقي المغاربة دروسهم في الإذاعة والتلفزة داخل استوديو خاص رُتب بأحد فنادق الرباط الكبرى، على أن يتم الاستماع إليهم في وقت الدروس المعتاد. وكان ذلك في الساعة 4,30 عشية بالنسبة للإذاعة والسابعة مساء بالنسبة للتلفزة.

وبالفعل، تم تقديم دروس الشيخ المكي الناصري رحمه الله والعلامة محمد حماد الصقلي وكذلك الدكتور عبد الكبير المدغري والدكتور فاروق حمادة وعباس الجراري الذي ألقى درسه مساء الأحد 28 رمضان 1395هـ الموافق 5 أكتوبر 1975م وكان له صدى حميد في مختلف أوساط المثقفين والجامعيين إلا ما كان من بعض الذين عز عليهم مثل هذا الصدى وما كان وراءه من توفيق ونجاح، دون أن أنسى أن الأستاذ عبد الرحيم بن سلامة رئيس الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي طلب من ذ. الجراري نشر درسه ضمن منشورات جمعيته التي أصدرته في سفر خاص (طبع دار الثقافة – الدار البيضاء 1396هـ=1976م).

وكان ما كان مما لا حاجة لذكره إلى أن حل شهر رمضان 1402هـ الموافق يوليوز 1982م، فدعي عباس لإلقاء درس كان عنوانه: "الفكر الإسلامي بين اليقظة والتحدي وآفاق قرن جديد" انطلاقا من قوله تعالى: ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾، وكان إلقاؤه في قصر الرياض بالمشور السعيد بالرباط[1] مساء الأربعاء 22 رمضان الموافق 14 يوليوز، إذ لقي استحساناً كبيرا من جلالة الملك ووزيره في الأوقاف يومئذ المرحوم الهاشمي الفيلالي وكثير من الذين أبدوا الإعجاب والتقدير.

وفي أواخر شعبان 1403هـ وبالضبط يوم 24 منه طلب من عباس أن يستعد لإلقاء درس وتقديم عنوانه.

وبالفعل اقترح الموضوع الآتي: "مصيرية الوحدة الإسلامية ودور المغرب في تحقيقها" مع الانطلاق من الآية الكريمة الواردة في سورة آل عمران: ﴿يا

[1] كانت الدروس تلقى أول الأمر بضريح مولاي الحسن (الأول) بالمشور.

أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته .... وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. ثم أخبر في أول رمضان أنه قد يفتتح الدروس، إلا أنه تقرر فيما بعد أن يبدأ الدكتور المرحوم الحبيب بلخوجة وبعده ضيوف آخرون على أن يختم عباس، لولا أن الزيارة التي قام بها الرئيس الليبي إذ ذاك المرحوم معمر القذافي للمغرب في هذه الفترة جعلت الدروس تتوقف قبل أن تصل إلى الختم.

وبعد عامين حدث أن ألقى وزير الأوقاف الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري يوم الثلاثاء 7 رمضان 1405هـ الموافق 28 ماي 1985م درسا في موضوع: "أصول المذهب المالكي"، تناول فيه الأصول الإحدى عشرة التي يرتكز عليها المذهب وهي: الكتاب والسنة والإجماع وعمل أهل المدينة وقول الصحابي والاستحسان وسد الذرائع والعرف والعادات والاستصحاب والمصالح المرسلة.

وفي ختام هذا الدرس عقب جلالته بكلمة سامية قال فيها إن هناك أسبابا تاريخية وسياسية جعلت المغاربة يختارون هذا المذهب الذي انتشر منذ المولى إدريس الأول، وطلب جلالته أن يتناول محاضر آخر هذا الموضوع على أن يلقى في درس قادم.

وبعد مشاورات في نفس الليلة أجراها السيد الوزير والكاتب العام للوزارة المرحوم محمد المرابط مع وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة التي كان مكلفا فيها بمهمة الدكتور عبد الحق المريني الذي أخبر الجراري بأن يكون مستعدا، وأن جلالته حين طلب تعيين من سيلقي الدرس كان يقصد الجراري بالتحديد.

وبالفعل أُخبر عشية الغد رسميا أنه هو المرشح لهذا الدرس وأن جلالته قرر أن يقدمه في اليوم التالي الذي هو يوم الخميس. وقد لقي كثيراً

من الإعجاب والإشادة والتقدير مما يكفي للدلالة عليه الإشارة إلى ما عبَّر عنه جلالته حين خاطب المحاضر: "أشفيت الغليل ألفقيه ما عندي ما نتسالك" وظل يكررها وهو يغادر المجلس.

وفي بطاقة كان حررها عباس ضمن ما كان يدونه عن الدروس، ذكر أن الأستاذ عبد الجليل الحجمري مدير المدرسة المولوية، وكان ذهب في تلك الليلة لمقابلة جلالة الحسن الثاني وإخباره بنجاح سمو الأميرة للا حسناء في الباكالوريا، أن جلالته خاطبه بقوله: "أنا عاد اعرفت اعلاش للا حسناء والشرفا كلهم بما فيهم اسميت سيدي كتبوا وكانوا تيكتبو فالفكر الإسلامي" يقصد جلالته أنهم كانوا يختارون في الاختبار أن يجيبوا على أسئلة الفكر الإسلامي وليس الفلسفة، إذ أن الجراري كان هو المكلف بدرس الفكر الإسلامي في المدرسة المولوية إلى جانب دروس أخرى[1].

[1]– في سيرة عباس الذاتية المسماة "رحيق العمر" أن جلالة الملك الحسن الثاني كان استقبله بقصر مراكش يوم الثلاثاء 8 يناير 1980 وعينه –إلى جانب مهامه الجامعية– أستاذا بالمدرسة المولوية وأسند إليه مادة الفكر الإسلامي لقسم ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد (جلالة محمد السادس نصره الله) وشقيقته سمو الأميرة للا مريم وكانا في قسم الباكالوريا. وفي أكتوبر من نفس العام كلفه بتدريس هذه المادة لصاحبتي السمو الملكي الأميرتين للا أسماء وللا حسناء. وفي فبراير 1981 أضيفت له حصة للمراجعة في مادة اللغة العربية وأدبها مع سمو ولي العهد وأخته للا مريم.

وفي أكتوبر 1982 كلف بتدريس مادة التربية الوطنية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، وتدريسها كذلك في أكتوبر 1985 لقسم الشريف مولاي يوسف. وفي أكتوبر 1986 أسند إليه تدريس مادة تحليل النصوص الأدبية والحضارية لسمو الأمير مولاي رشيد. وفي 1995 كلف بتدريس التربية الإسلامية لسمو الأمير مولاي إسماعيل الذي كان يومئذ في قسم الشهادة الثانوية (البروفـي). ثم بعد ذلك أسندت له عام 2000 مادة التربية الوطنية والإسلامية للحفيدين مولاي اليزيد ومولاي إدريس بعد التحاقهما بالمرحلة الإعدادية. هذا وفي نفس يوم تعيين الجراري عُين المرحوم الحاج امحمد اباحنيني وزيرا مشرفا على تربية الأمراء والأستاذ عبد الكريم حليم ناظرا←

وفي البطاقة نفسها المتعلقة بدرس أسباب انتشار المذهب ذكر عباس أن جلالة الملك في تلك الليلة أعرب لوزير التعليم يومئذ الدكتور المرحوم عز الدين العراقي عن استعداده لمواصلة الدروس طوال شهر رمضان، إن كان يوجد في الجامعة أساتذة من طبقة الجراري في مختلف التخصصات. وهو ما دعا الوزير المرحوم إلى استدعاء عباس لاجتماع طارئ في وزارة التعليم حضره عميد كلية الآداب الدكتور حسن مكوار وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد العزيز بنجلون والأستاذ محمد بن البشير رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب ، وبعد ثلاث جلسات وقع تحديد أسماء نحو خمسة عشر أستاذا من الكليتين وضمنهم أستاذان من كلية العلوم، مع ملاحظة ما لكل واحد من جوانب إيجابية وتم رفع لائحة بهم إلى جلالة الملك في حفل ذكرى الملك المغفور له محمد الخامس.

وعلى الرغم من أن جلالة الحسن الثاني لم يوجه نداءه إلى العموم، وإنما طلب محاضرا آخر يمكنه تقديم درس في الأسباب السياسية والتاريخية التي كانت خلف انتشار المذهب، فإن جريدة أسبوعية هي "الرسالة"[1] التي كان يديرها الأستاذ المرحوم أبو بكر القادري نشرت محاضرة سابقة كان ألقاها الزعيم المرحوم علال الفاسي بمناسبة المهرجان الذي نظمته جمعية شباب النهضة الإسلامية، إحياء لذكرى الإمام مالك عام 1971 وكان عنوان المحاضرة: "نضالية الإمام مالك" "استجابة – كما قالت– للنداء الذي وجهه جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله عقب

= للمدرسة المولوية إلى جانب مديرها الأستاذ محمد شفيق، كما عُين المرحومان الفقيه عبد الله الداودي أستاذا للفقه والتوحيد والمستشار أحمد بن سودة أستاذا للنحو.

[1] السنة الخامسة عدد 100 –الخميس 16 رمضان 1405هـ الموافق 6 يونيو 1985م.

انتهاء الدرس الأول من سلسلة الأحاديث الحسنية لوجوب تقديم معلومات وافية عن الأسباب السياسية والتاريخية لدخول المذهب المالكي إلى المغرب". وهو عمل جليل لا غبار عليه ومن شأنه أن يزيد في تنوير الرأي العام بهذا الموضوع الهام، لولا أن مديرها رحمه الله كتب في العدد نفسه مقالا ذهب فيه إلى أن المذهب انتشر في المغرب "لعدة عوامل عدَّد منها المرحوم علال الفاسي في بحثه الذي تنشره الرسالة ثلاثة عشر سببا، وتحدث عن بعضها بعض الباحثين الآخرين ومن ضمنهم الأستاذان الكريمان الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري والدكتور عباس الجراري في حديثهما أمام جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله في الدروس الرمضانية".

وأظنني في غير حاجة إلى إثبات انشغال زوجي بهذا الموضوع وما إليه مما يتصل بما كان للمذاهب العقدية والفقهية في المغرب، على نحو ما سبق له أن نشر في البحوث والكتب الآتية:

1- المغرب وتيار المذاهب الإسلامية (في ثلاث حلقات):

أ- الحلقة الأولى:

نشرت في مجلة الإيمان —السنة الثالثة –العدد الرابع أبريل- مايو 1966

ب- الحلقة الثانية:

نشرت في المجلة نفسها —السنة الثالثة –العدد الخامس يونيو-يوليوز 1966

ج- الحلقة الثالثة:

نشرت في نفس المجلة والسنة –العدد السادس أغسطس-شتنبر 1966

2- الموحدون: ثورة سياسية ومذهبية

مجلة المناهل –السنة الأولى –العدد الأول نونبر 1974

3- الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي

نشر دار الثقافة –الدار البيضاء –يونيو 1974

4- في الشعر السياسي

نشر دار الثقافة –الدار البيضاء –شتنبر 1974

5- عروض كثيرة نشرها بعد هذا التاريخ وبعضها مترجم إلى الفرنسية والإنجليزية.

هذا دون أن أشير إلى أن أول دروس الجراري الحسنية عام 1975 كان عن "وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ".

وتوالت المساهمة الجرارية في الدروس الحسنية، فكان الدرس الرابع الذي كان بعنوان: "الدين في وسطيته وتجديده وسياق الشخصية المغربية"، انطلاقا من الحديث الشريف: "لا يزال أهل المغرب ظاهرين حتى تقوم الساعة". وكان ألقاه بقصر الرياض بعد عصر الثلاثاء 11 رمضان 1406هـ الموافق 20 مايو 1986م.

وفي الملف المتعلق بهذا الدرس وجدت الإشارة إلى ثلاث ملاحظات:

الأولى:

أنه بعد أن كان المحاضر في الدروس الأولى يجلس على الأرض كباقي الحاضرين قبالة جلالة الملك، أصبح يعتلي كرسيا يرفع من جلسته. وكان الجراري في مقدمة درسه قد أشاد بذلك معتبرا إياه "إبرازاً لجميع القيم التي يرمز إليها وتقديرا لمكانة العلم والعلماء. واستسمح جلالة الملك في أن يطلق عليه "كرسي الحسن الثاني للعلوم الإسلامية، باعتباره مظهرا

مميزا للفكر العربي الإسلامي في المغرب، ومنطلقا لمسيرة هذا الفكر" في العهد الحسني الزاهر.

الثانية:

أنه أثناء الحديث عن بعض ما كانت تروج تجارته في المغرب خلال التاريخ تجارة اللؤلؤ والمرجان في الشمال، وخاصة سبتة ومليلية، زاد المحاضر قوله عن هاتين المدينتين السليبتين: "اللتين تستنجدان لتحريرهما وتناديان: "واحسناه"". وهو ما جعل بعض الحاضرين بعد انتهاء الدرس يهنئون المحاضر على مثل هذا التصريح في حين ضاق به آخرون، مع أن جلالته أثنى عليه مقدرا مقولته.

الثالثة:

أن هذا الدرس تعرض لانشغال بعض شعراء الملحون بقضايا العقيدة، على نحو ما راج بين أحمد الغرابلي الفاسي والمدني التركماني المراكشي حول الإيمان، والعمل إذ قال شاعر مراكش بجواز الإيمان دون عمل، في حين عارضه شاعر فاس بالقول بضرورة العمل حتى يكتمل الإيمان. وقد أكد المحاضر ذلك بمقتطفات من هذه المعارضة. وفي الوقت الذي كان معظم الحاضرين مأخوذين بهذه الإشارة الملحونية التي كان جلالة الملك يتابعها باهتمام كبير، ضاق بعضهم بها واعتبروها لا تليق بمثل هذا المجلس.

أما الدرس الخامس الذي دار حول: "شرعية الإمامة في المغرب"، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، فأثار جدلا كثيرا، وكان مما علق به الشيخ المكي الناصري رحمه الله أنه قال للمحاضر: "ألسي عباس راك كنت تتمشي على الشوك ولكن الله سلم".

وأما الدرس السادس فتناول "روح المنهج العلمي في الإسلام"، انطلاقا من الحديث الشريف: "طلب العلم فريضة على كل مسلم". وكان أثار نقاشا لوحظ فيه على روحه الانتقادية، مع العلم أن تقديمه كان بإلحاح من جلالة الملك الذي سأل الدكتور عبد الحق المريني وهو في الـگولف يوم السبت 18 رمضان "هل سيدرس الفقيه الجراري؟، ائتني باللائحة" —التي كان اختيار المحاضرين فيها متروكا للسيد وزير الأوقاف— ثم أمره أن يخبر السيد الوزير بأن الذي سيلقي الدرس القادم هو الجراري، وكذلك كان.

وكان الدرس السابع بعد ذلك عن "المذاهب الإسلامية بين حقائق الدين ومواقف التاريخ وتحديات المصير"، انطلاقا من قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، لافتا للانتباه بما أثاره حول الخلافات التي نشأت منذ مشكل الخلافة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام. وهذه خلافات سياسية وفكرية حاول الدرس النظر في إمكان تجاوزها والحاجة إلى هذا التجاوز على الرغم من كل التحديات التي يعانيها المسلمون اليوم، بدءاً من ضرورة إقامة مؤسسة فكرية إسلامية، مع الدعوة إلى العمل على التقريب بين المذاهب الإسلامية[1]. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الدرس انطلق من آية سبقت في تقديم درس "شرعية الإمامة في المغرب منذ اثني عشر قرنا" وهي قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

[1] يشار هنا إلى أن الجراري وضع بدعوة من الإيسيسكو مشروعا لاستراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية بالاشتراك مع الدكتور المختار ولد باه من موريطانيا والأستاذ أحمد محمد هاشم من اليمن. والمشروع ما زال مرقونا لم ينشر بعد.

وأولي الأمر منكم﴾، مما قد يلاحظ معه بعض التكرار في تتبع مقتضيات الآية.

ونصل بعد هذا إلى الدرس ما قبل الأخير، وهو الثامن وموضوعه: "المسؤولية في الإسلام"، انطلاقا من الحديث الشريف: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ...". والمقصود بالمسؤولية ما تحمل الإنسان ويتحمل من أمانة في معناها الشامل على جميع المستويات وفي مختلف المجالات بما تقتضي من شروط وقف عندها الدرس مثلما وقف عند المحاسبة عليها. وقد لاحظ الجميع أن الأنظار كانت موجهة للمحاضر، في تتبع لما يقول وما صدر عنه بجرأة وشجاعة، مما اعتبر خير رد على الذين يطعنون في مواقف العلماء، مع الانتباه الشديد لجلالة الملك الذي بلغ من إعجابه بالدرس أن علق عليه أثناء تسليم المحاضر عليه بقوله: "اتبارك الله اعليك اشفيت الغليل" وهي عبارة كررها وهو يضرب على كتفه عدة مرات. وللصدى الطيب الذي كان لهذا الدرس فقد توسع المحاضر فيه وأصدره في كتاب[1].

وبقي بعد هذا درس أخير هو التاسع، ودار حول "ثقافة الحوار كما أسسها القرآن الكريم"، انطلاقا من قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تومن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ... واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

بدأ الدرس بتتبع الآية الكريمة والوقوف عند إشاراتها اللغوية والنحوية وما تثير من قضايا، قبل أن يتحدث عن مسألة الحوار والأساليب المشروطة فيه وكيف هي معروضة في القرآن الكريم من خلال هذه الآية

---

[1] المسؤولية في الإسلام. طبع ضمن منشورات النادي الجراري رقم 10 (جمادى الأولى 1417هـ الموافق شتنبر 1996م).

وغيرها من الآيات، باعتبار الحوار هو الوسيلة للتعارف ومحو الخلافات والتقريب بين الشعوب والمجتمعات، مهما تكن متباينة في لغاتها وثقافاتها ومعتقداتها كذلك، طالما أن الإيمان بالله يجمعها وكذلك القيم التي هي في حقيقتها قيم إنسانية، بدءاً من الاحترام المتبادل لثوابت كل مجتمع ومقدسات كل دين.

وعلى عادة جلالته، فقد أبدى إعجابه وتقديره للمحاضر الذي كان هذا الدرس آخر ما ألقى بحضرة جلالة الحسن الثاني، وذلكم رغم العياء الذي كان باديا عليه رحمه الله. وإني لأود هنا أن أسجل أنه في السنة الموالية (1999) ترأس جلالته آخر مجلس رمضاني قبل أن ينتقل إلى عفو الله. وفي هذه السنة وعلى إثر الدرس الذي كان ألقاه الدكتور ناصر الدين الأسد طلب جلالته الجراري بواسطة الدكتور عبد الحق المريني مدير التشريفات الملكية والأوسمة للسلام عليه وعينه مكلفا بمهمة في الديوان الملكي. وتم ذلك مساء الجمعة 13 رمضان 1419هـ الموافق فاتح يناير 1999م.

وهو المنصب الذي ظل يشغله في ظل جلالة الملك المؤيد بعز الله ونصره سيدي محمد السادس الذي عينه مستشارا لجلالته يوم الأربعاء 23 ذي الحجة 1420 هـ الموافق 29 مارس 2000م.

*** *** ***

وتجدر الإشارة في هذا التقديم إلى أمور خمسة:

أولها:

أن جلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه وأكرم مثواه كان إظهارا لإعجابه وتقديره لعباس، أخذه معه مرة لداخل القبة التي يخرج منها للدرس لمزيد من التعبير عن عطفه وتشجيعه له، بل إنه مرة دعاه للحضور

إلى جناحه الخاص داخل القصر بعد صلاة العشاء لمواصلة الحديث حول موضوع درس ذلك اليوم، فوجد في غرفة مجاورة للانتظار الفقيه المرحوم محمد بنبين والسيد إبراهيم بنيعيش نائب الحاجب الملكي، وكانا يتبادلان حديثا حميميا.

ثانيها:

أن من تقدير جلالة الملك المنعم أنه كان في ختام المجلس يتلقى من المشاركين بعض مؤلفاتهم التي يتشرفون بإهدائها إليه.

وهي السُّنة التي حافظ عليها مولانا أمير المومنين جلالة الملك المفدى سيدي محمد السادس أدام الله عزه ونصره.

ثالثها:

أن الدروس الحسنية تناقش في جلسات خاصة في اليوم الموالي لإلقائها ويحضرها العلماء المشاركون فيها ؛ وكانت هذه المناقشة في بداية الأمر تنعقد في نفس المكان الذي تلقى فيه الدروس وبمحضر جلالة الحسن الثاني، قبل أن تنتقل إلى مقر وزارة الأوقاف ثم إلى المجلس العلمي للعدوتين بعد أن تم تشييده عام 1994[1]، حيث كان يحضرها كذلك الجمهور المتطلع إلى مواصلة الاستفادة منها.

رابعها:

أنها تطبع ضمن منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ومعها مناقشتها وترجمتها، منذ أن بدأ نقلها إلى لغات أجنبية كالفرنسية والإنجليزية والإسبانية، مع إضافة الروسية إليها فيما بعد.

---

[1] كان عباس يشارك فيها ويرأس بعضها، وكان قد التحق بعضوية هذا المجلس عام 1983 خلفا لوالده رحمه الله، ثم عين رئيسا له في 1994 بعد وفاة رئيسه الشيخ المكي الناصري رحمة الله عليه.

خامسها:

أن الجراري نشر بعض دروسه مفرقة في دراسات مستقلة، أو مدمجة في بعض مؤلفاته.

ومع ذلك فقد ارتأيت أن أجمعها وأعدها للطبع توثيقا لها وتسهيلا على من يريد الاطلاع عليها، علما بأني كنت أبذل جهدا كبيرا لتفريغها من أشرطة التسجيل المسموعة والمشاهدة وإن كانت في معظمها —ولا سيما التي سبق نشرها كانت قد استخرجت من أشرطتها قبل، والسبب في ذلك أن الدروس الجرارية كانت مرتجلة ولم تكن مكتوبة.

فعساني بهذه المقدمة وسابقاتها في "كلمات تقديم" و "خطب منبرية" ج1 أن أكون قد فتحت الطريق ليتعرف القارئ الكريم على شذرات من مذكرات الدكتور عباس الجراري التي ألح عليه في التفرغ لتسجيلها ما دام في العمر بقية.

وأملي كبير في العلي القدير أن ييسر ذلك ونتعاون على تذكر ما فات، مع رجاء أن يستنير بذلك الباحثون في الفكر الإسلامي وفي الأدب المغربي معربه وملحونه، وفي الحياة وما يتطلبه النجاح من مثابرة ونضال لتحقيقه.

إنه تعالى بالإجابة جدير.

الرباط، في 9 ربيع الثاني 1436هـ

حميدة الصائغ الجراري

الموافق 30 يناير 2015م

صور عن الدروس

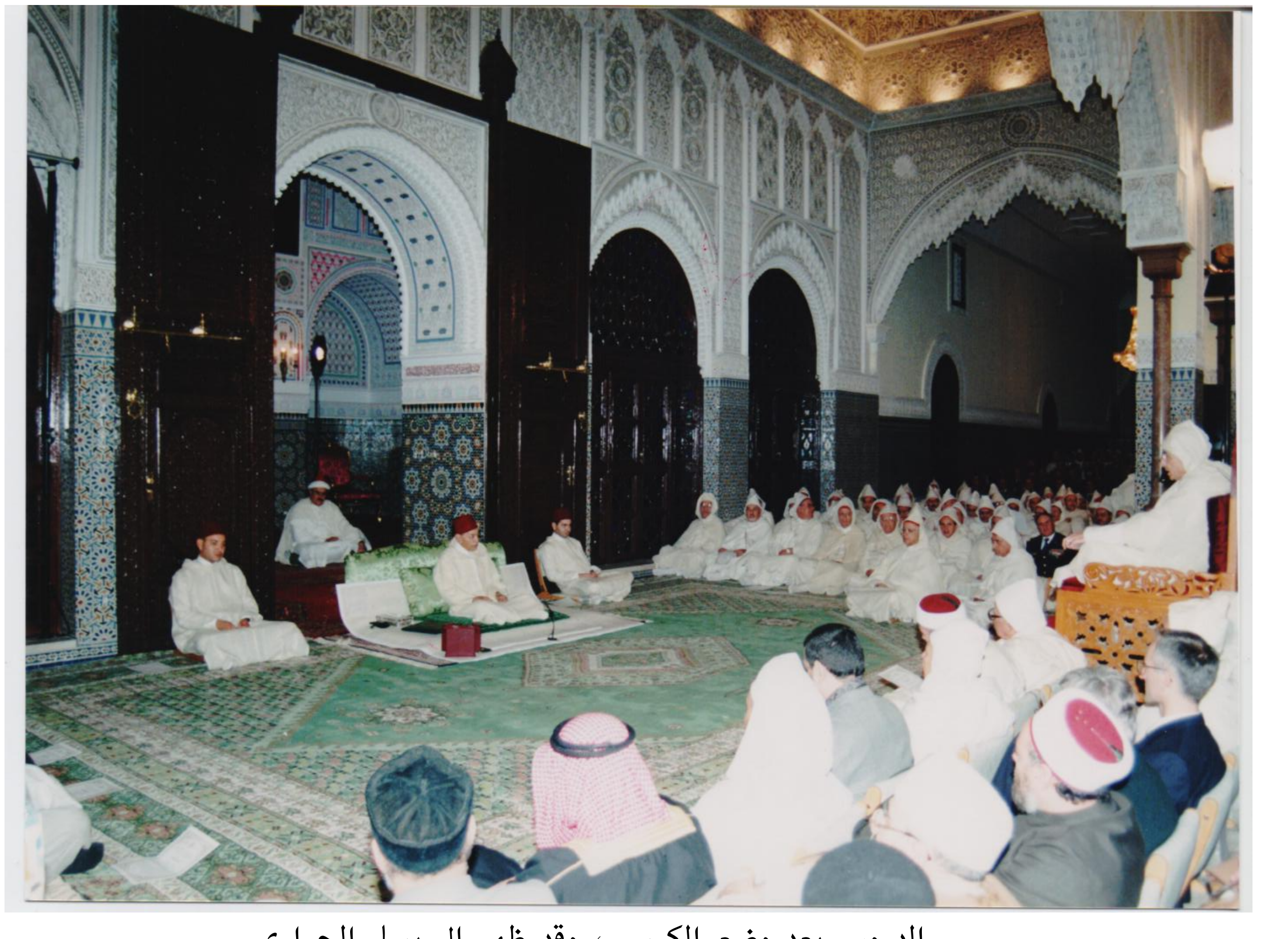


درس الجراري عن الفكر الإسلامي (1402 هـ الموافق 1982 م)

وهو جالس على الأرض



نفس درس الجراري وإلى يساره السارد يومئذ الفقيه المرحوم أحمد العمراوي



الدروس بعد وضع الكرسي، وقد ظهر إلى يسار الجراري

السارد الفقيه المرحوم محمد بنعمرو



مناقشة أحد دروس الجراري (1410 هـ الموافق 1990 م)
بمقر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية





الجراري يترأس مناقشة أحد الدروس بمقر المجلس العلمي للعدوتين



الجراري وهو يناقش



أثناء إلقاء الجراري أحد دورسه



أثناء إلقاء الجراري أحد دورسه



أثناء إلقاء الجراري أحد دورسه





جلالة الملك المغفور له مولانا الحسن الثاني يدعو الجراري أن يتبعه للقاعة المجاورة



جلالته رحمة اللّه عليه يتلقى بعض مؤلفات الجراري



الجراري يتشرف بإهداء بعض مؤلفاته
إلى صاحب الجلالة الملك محمد السادس أعز الله أمره

وحدة المغرب المذهبية
خلال التاريخ

انطلاقا من الحديث النبوي المروي عن أنس مرفوعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إن أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم**".

قدمته الإذاعة والتلفزة

مساء الأحد 28 رمضان 1395هـ

الموافق 5 أكتوبر 1975م

لسم الله وبه نستعين

أود في مستهل هذا اللقاء العلمي أن أسجل بكثير من الفخر والاعتزاز مبادرة صاحب الجلالة أيده الله بفسح المجال لواحد من أبناء شعبه الشباب أستاذ في الجامعة، ليشارك في القول ويدلي بالرأي في الدروس الحسنية الموقرة التي تلقى هذه المحاضرة في إطارها وبوحي منها ودعوة كريمة.

وإن هذه المبادرة المولوية الرائدة لتؤكد بما لا يدع مجالا للشك مدى ما يوليه جلالته من رعاية واهتمام للجامعة وللشباب، وتؤكد كذلك حرصه على التجديد وعلى تقريب الهوة بين الأجيال وعلى إتاحة حرية التعبير للجميع، ثم هي تؤكد بعد هذا مدى الثقة المتبادلة ومدى الإيمان بالمستقبل، مستقبل هذا البلد المرتبط بالاستمرار في أداء رسالته التاريخية على الصعيد الوطني والقومي والإنساني، وهي الرسالة التي جعلته دوما يذود عن الحرية والكرامة ويسعى لنصرة الحق والعدل ويشع الحضارة والثقافة في ربوعه ومن حوله ويتحكم بذلك في زمام التاريخ.

*** *** ***

موضوع هذا الدرس يتعلق بقضية تعد من أهم قضايانا الفكرية إن لم تكن أهمها على الإطلاق، ألا وهي وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ. وسوف أدير النقاش فيها مرتبطا بالحديث النبوي المروى عن أنس مرفوعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إن أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم**".

وسأتناول هذه القضية بمنهج تاريخي وتحليلي نقدي في نفس الآن، وسأحاول أن أضغط الكلام حول موضوعها الكبير في ثلاث نقاط:

الأولى: ظاهرة الوحدة في إطار المذهب المالكي.

الثانية: أسباب الأخذ بهذا المذهب والاستمرار فيه.

الثالثة: مدى استفادتنا من تحليل هذه الظاهرة وتحليل أسبابها في مواجهة الواقع الذي نعيش.

بالنسبة **للنقطة الأولى**، لا بد لنا –ودون أن نحتاج إلى تمهيدات لن يسمح بها مجال هذا الدرس المحدود– أن نثبت حقيقتين نستخلصهما من تاريخ شعبنا الذي كان دائماً يتطلع إلى الوحدة والحرية والعدل ويناضل من أجل تحقيقها:

الأولى: اعتناقه للإسلام، وكان بالنسبة للمغرب اختيارا مصيرياً انتهى إليه بعد اقتناع، وليس بمحض المصادفة أو القوة، وقد اقتضت عملية الاقتناع هذه فترة غير قصيرة كاد –بل كان– الفتح الإسلامي خلالها يتعثر.

الحقيقة الثانية: أن المغرب، في خضم التيارات المذهبية التي نتجت عن اجتهاد المسلمين في ممارسة الحياة السياسية والفكرية لدولة الإسلام الواسعة، قام باختيار آخر جزئي فأخذ بالمذهب المالكي.

وهنا كذلك حين نقول: "اختيار" نعني أن أخذ المغاربة بهذا المذهب لم يكن مجرد مصادفة أو نتيجة حتمية لعدم اتصالهم بالمذاهب الأخرى، وإنما كان نتيجة احتكاك بل صراع كان يحتد في كثير من الأحيان.

ويمكننا إذا نحن رسمنا خطاً بيانياً لهذا الاتصال، أن نلاحظ المراحل التي مر بها الصراع المذهبي بالمغرب.

فالإسلام حين حمله الفاتحون الأوائل كان بسيطا لا خلاف فيه ولا تعقيد، ثم لم تلبث الأحداث السياسية الفكرية التي عاشها المسلمون في المشرق أن بلغ مداها للمغرب الذي لم يلبث هو كذلك أن اتخذ منها موقفا دخل به حلبة الصراع.

وهكذا وفدت عليه فئات الخوارج المنهزمة في المشرق، وخاصة منها الإباضية والصفرية، وهذه بالذات، فنصرها المغاربة، ونقلوا بذلك الصراع إلى المغرب حيث ظهر القائد ميسرة المضغري صاحب ثورة طنجة الشهيرة سنة اثنتين وعشرين ومائة، وكان على رأي الصفرية. وتسنى للمذهب بذلك أن يكون له نفوذ حتى في الجنوب حيث تأسست إمارة خارجية في سجلماسة بزعامة بني مدرار الذين كان يغلب على أمرائهم المذهب الصفري، إلى أن تحولوا لمذهب أهل السنة في عهد محمد بن الفتح بن ميمون الملقب بالشاكر لله في أوائل القرن الرابع.

ومع ذلك، وعلى الرغم من تجاوب المغاربة مع مبادئ الخوارج، فإنه لم يتح لهؤلاء أن يقوموا بدور كالذي قاموا به في بقية بلاد الشمال الإفريقي، وخاصة في الجزائر حيث أسسوا دولة في تاهرت تحت لواء الأسرة الرستمية.

ونرجح أن يكون فشل الخوارج في القيام بمثل هذا الدور في المغرب ناتجاً عن إقبال المغاربة على آل البيت، في حب لهم وإشفاق عليهم مما أنزل بهم الأمويون والعباسيون من نكبات.

وقد تجلى هذا الإقبال في الترحيب الذي لقيه المولى إدريس حين وفد إلى المغرب فاراً من وقعة فخ سنة تسع وستين ومائة على عهد الهادي العباسي كما هو شائع، أو مبعوثا قبل تاريخ هذه الوقعة بنحو عشر سنوات

من طرف أخيه محمد بن عبد الله الذي كانت له مواجهات مع المنصور كما عند الأشعري في "مقالات الإسلاميين".

مهما يكن، فالمؤرخون يتحدثون عن تنازل إسحاق بن عبد الحميد الأوْربي عن إمارته في وليلي للمولى إدريس ومبايعته ودعوته القبائل أن تبايعه. كما يثير بعضهم اعتزالية هذه الإمارة، وإن كانت لا توجد دلائل على ذلك.

ونحن لا نستبعد أن يكون المولى إدريس –وهو شيعي مناضل– قد حمل بعض مبادئ الشيعة إلى المغرب، ولكن الذي لا شك فيه أن المغاربة لم يتشيعوا بالمعنى المذهبي، وكانوا –كما لا يزالون– يحبون آل البيت ويقدسونهم ويجلون علّياً وابنيه، وربما فضلوه على من سبقه من الخلفاء.

ويبدو أن المغاربة كانوا في هذه المرحلة يميزون بين جانبين: الجانب العاطفي أو العاطفي السياسي، والجانب الفكري الديني التطبيقي. فهم في الجانب الأول يتعاطفون مع الخوارج والشيعة يرحبون بهم ويوسعون لهم ويساندونهم، ولكنهم في الجانب الثاني لا يميلون لغير أراء أهل السنن.

لهذا لا عجب أن نجد المغرب في هذه المرحلة المبكرة يتبع فقهياً مذهب أبي حنيفة، على حد ما قرر كثير من العلماء، وفي طليعتهم عياض، ربما لأنه كان أول مذهب فقهي ظهر، أو لأنه من أبرز المذاهب الفقهية الأولى. ثم لم يلبث المغرب أن تحول إلى مذهب مالك الذي وفد إليه من الأندلس التي كانت قبل مالكيتها تسير على مذهب الأوزاعي إمام الشام بحكم أموية الأندلس يومئذ.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة –أي تمييز المغاربة بين الجانبين السالفين– لا نستغرب إذا وجدنا المذهب المالكي ينتشر في عهد الأدارسة. ونستطيع أن نضيف إلى هذه الحقيقة أن المولى إدريس في خضم الصراع مع

العباسيين لم يكن يقصد إلى نشر المبادئ الشيعية بقدر ما كان يقصد إلى تقوية نفسه وإيجاد كيان له ينطلق منه. ولعله أحس عدم استعداد المغاربة الذهني لتقبل المبادئ الشيعية. ثم لا ينبغي أن ننسى زيدية الأدارسة في الأصل، ونحن نعرف أن الزيدية أكثر فرق الشيعة اعتدالاً وأقربها إلى أهل السنة، كما لا ينبغي أن ننسى التعاطف الذي كان بين المولى إدريس والإمام مالك، وهو تعاطف يرجع إلى أمرين:

الأول: أن مالكاً يروي في موطاه عن عبد الله الكامل والد إدريس.

الثاني: أن مالكاً كان له موقف من العباسيين لصالح أخ إدريس المسمى محمد والمعروف بالنفس الزكية، حيث أفتى عند قيام هذا الأخير بأن بيعة أبي جعفر لا تلزم لأنها كانت على الإكراه، وضُرب في ذلك كما هو معروف، وكان قد أفتى ببطلان الطلاق المكره وبسقوط يمين الإكراه على العموم.

وإذن فإن المذهب المالكي قد انتشر في عهد الأدارسة، ولكن أثناء الاضطراب الذي تعرض له المغرب على إثر انهيار دولة الأدارسة وبداية الغزو الفاطمي للشمال الإفريقي في مستهل القرن الرابع، ظهرت محاولات لإقامة مراكز شيعية هنا وهناك، كما حدث في فاس نفسها، حيث كان الفاطميون وأعوانهم يقيمون حكم الأيمة ولو في فترات متقطعة.

ويبدو أن المغرب في هذه الفترة كان موزعاً بين قوتين أو اتجاهين: الاتجاه الأموي الأندلسي وكان يواليه الزناتيون، والاتجاه الفاطمي وكان يسانده الصنهاجيون. وكانت لهاتين القبيلتين أو لهاتين المجموعتين من القبائل إمارات يمكن أن نسميها إمارات حاجزة أو عازلة Des Etats Tampons من شأنها أن تحول دون تسرب الخطر للطرف الآخر.

وهذه ظاهرة نلاحظها حتى بعد عودة الأدارسة فيما يسمى بدولتهم الثانية على يد القاسم كنون، فقد كانوا يوالون الجهة المتغلبة، فهم مرة مع شيعة إفريقية، وهم مرة أخرى مع أمويي الأندلس.

وإذا كان المذهب المالكي قد انتشر في عهد الأدارسة كما بينّا، فإنه في عهد المرابطين غدا محور حركتهم الإصلاحية وخطاً إيديولوجيا أداروا نضالهم ودعوتهم عليه، واستطاعوا به أن يحققوا الإسلام المبسط في صيغة ثورية، واستطاعوا كذلك أن ينشئوا في الشمال الإفريقي دولة موحدة قوية واسعة الرقعة، تمتد من عمق الصحراء في الجنوب إلى أعالي شبه الجزيرة الإيبيرية في الشمال.

وفي نطاق هذه الوحدة السياسية المذهبية قضى المرابطون على آخر مراكز الشيعة في المغرب، وبالذات في مدينة تارودانت حيث كان يوجد قوم من الروافض البجليين. والروافض من شيعة الكوفة الغالين، ونستطيع أن نضعهم مع الإمامية، وهم الذين رفضوا بيعة زيد بن علي بن الحسين ولم يرضوا أن يخرجوا معه سنة إحدى وعشرين ومائة بعد أن تبين لهم أنه ينهي عن الطعن في الصحابة، وأنه لا يبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر. والبجليون نسبة إلى عبد الله البجلي الرافضي الذي كان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله الشيعي لإفريقية. في بعض المصادر نقرأ اليحيليين (بالحاء) نسبة إلى عبد الله اليحيلي ولكن لا شك أنه تصحيف.

ويجدر بنا أن نسجل أنه كان للمرابطين بهذا التمذهب موقف من الصراع الذي كان دائراً على مستوى العالم الإسلامي يومئذ، فنجد أن يوسف بن تاشفين لا يعترف بدولة الفاطميين في مصر والشام، في الوقت الذي يمد يده لخصومهم العباسيين. وعلى الرغم من أنه كان أقوى منهم —

أي من العباسيين– فإنه كان يخطب لهم، ويُسود مثلهم أي يتخذ السواد شعاراً، ويضرب العملة باسمهم. أكثر من هذا أنه كان يحتفظ لهم بلقب أمير المومنين ويكتفي هو بأمير المسلمين.

وقد تعرض المذهب المالكي لامتحان شديد في عهد الموحدين حين ظهر المهدي (محمد بن تومرت) بمذهب جديد هو مزيج من الأشعرية ومن الإمامية ومن الظاهرية ومن آراء الإمام الغزالي، وحتى من الاعتزال الذي يبدو أنه كان موجوداً في المغرب أثناء هذه الفترة حيث يتحدث مؤرخ معاصر للموحدين هو الشهرستاني أنه كانت توجد في المغرب على هذا العهد طائفة تتمذهب به تسمى الواصلية منسوبة لواصل بن عطاء.

وتحليل مذهب المهدي يتطلب وقتا لا يتسع له مجال هذا الدرس، وقد سبق لي أن ناقشته في بعض أبحاثي المنشورة حيث انتهيت إلى رأي بالنسبة لهذا المذهب وصاحبه، ينطلق من اعتبار المهدي ليس كما يظن مجرد داعية ديني ومصلح جاءه الحكم تلقائيا فيما بعد وبدون قصد، ولكن زعيما سياسيا ومنظما ثوريا سعى إلى نسف حكم المرابطين. وهو حكم يقوم على دعوة دينية وعلى مذهب فقهي في إطار الدين، فكان المهدي مضطراً إلى التوسل بالدين كذلك وإلى التوسل بمذهب ولكن في اتجاه آخر. وقد ساعده على ذلك علمه الواسع واتصاله بمختلف التيارات الفكرية المعاصرة له وقدرته على الاجتهاد ودهاؤه السياسي وخبرته بالحياة والناس سواء في المغرب أو الأندلس أو المشرق.

من هنا فإننا نستطيع أن نميز في مذهب المهدي بين جانبين:

الجانب السياسي وهو الذي كان يهدف من ورائه إلى الإقناع بشرعيته والتثبيت لحكمه، وفي هذا الجانب اعتمد المبادئ الشيعية ولا

سيما العصمة والمهدوية. وقد استغل في ذلك حب المغاربة القوي لآل البيت كما استغل عدم جدة الأفكار الشيعية عليهم. وكان يستعين بالمنطق منطق دعوته. ولكن عند عجز هذا المنطق كان يلجأ إلى التدجيل وإلى القمع، وهما من العوامل التي عجلت بانهيار فكر الموحدين ثم بانهيار دولتهم فيما بعد.

هذا إذن الجانب السياسي، ثم هناك **الجانب الفكري** أو الجانب الديني الفقهي التطبيقي وكان المهدي فيه سنياً، وأكاد أقول مالكياً يسير على خط النخبة والجماهير.

والواقع أن اضطهاد الموحدين للفقهاء المالكيين لم يكن بسبب الخلاف المذهبي الفقهي بقدر ما كان بسبب الموقف السياسي الذي كان لهم من الدولة الموحدية ومن البدع التي توسلت بها. ولعلنا نذكر ثورة الفقهاء في سبتة بزعامة القاضي عياض سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. بل إن الفقهاء المالكيين لم يفتأوا يقومون بتحركات مستغلين الانهيار التدريجي للفكر الموحدي. ونرجح أن دعوة المنصور إلى وضع كتاب مختار من كتب الصحاح يلغي به كتاب المهدي، ونرجح كذلك أن دعوة المأمون الرامية إلى نبذ العصمة والمهدوية وفكر المهدي جملة، نرجح أن هذه المحاولات كانت تهدف إلى رد النفَس للدولة ولكن كان ينقصها عنصر أساسي وعنصر هام وهو الإطار المفكر. وهذا العنصر هو الذي عرف المهدي أول الأمر كيف ينظمه وكيف يستفيد منه.

ثم إن المذهب المالكي كان سائداً سواء على مستوى العلماء أو على مستوى الشعب، وكان المنصور يدرك ذلك، ولكن كان صعباً عليه أن يستند إلى الفقهاء المالكيين لأنهم خصوم. ولهذا نراه يميل إلى المذهب الظاهري حيث يقال إنه كان معجباً به وبفقيهه ابن حزم، ولكن الحقيقة أنه كان

يحس الحاجة الملحة إلى مذهب منظم ومتكامل يستعين به ويعتمد عليه. ولست أدري ما الذي جعل هنري لاوست Henri Laoust في كتابه عن الفرق في الإسلام "Les Schismes dans l'Islam"، يذهب إلى أن المنصور تحول إلى المذهب الشافعي وأنه كان يختار قضاته من فقهاء هذا المذهب، في حين أننا لا نعرف أنه كان للمذهب الشافعي وجود ما في المغرب. حقيقة أنه في الأندلس ولا سيما في عهد الحكم المستنصر كان يستدعي بعض الفقهاء الشافعيين من أمثال أبي الطيب محمد بن أبي بردة وعبيد الله ابن عمر بن أحمد بن جعفر، ولكن لا نعرف أن المذهب الشافعي كان له وجود أو نفوذ إلى الحد الذي يصوره هذا الباحث.

وبذلك انتهى مذهب المهدي وانتهت دعوة الموحدين، ولم يبق منها غير صدى خافت يتمثل في مراودة فكرة المهدوية لبعض المشعوذين وخاصة في عهد المرينيين، حيث ظهر التويزري والعباس وكلاهما ادعى أنه الفاطمي المنتظر. وقد بالغ جورج مارسيه Georges Marçais حين ألح على مدى انتشار هذه الفكرة وطغيانها على عقلية المغاربة في كتابه عن بلاد البربر المسلمة والشرق في العصر الوسيط "La Berberie Musulmane et l'Orient au Moyen Age" في حين يحكي لنا ابن خلدون في مقدمته قصة وافد من كربلاء جاء في عهد يوسف بن يعقوب يحاول الترويج لدعوته وأنه الفاطمي المنتظر، ولكن تبين له عدم إمكان ذلك وعاد من حيث جاء. وهذا يدل على موت الفكرة ويدل كذلك على أن المغرب ابتداء من هذا العهد وبحكم وعيه لم يعد مجالاً لترويج البضاعات المزيفة حتى ولو تسترت خلف شعارات من شأنها أن تغري العامة وتؤثر على إيمانهم البسيط.

نعود بعد هذا إلى المذهب المالكي فنجد أنه خرج من محنته في عهد الموحدين أصلب مما كان وأقوى مما كان، فقد أتيح له بالاحتكاك مع الأفكار الموحدية أن يكتسب كثيراً من المرونة والخبرة، وأن يطرح نفسه وقضاياه في خط اجتهادي ومن خلال مقاييس جديدة في محاولة للتوفيق بين الحكم الشرعي وواقع الحياة المتحرك والمتطور. وقد زادت في قوة المذهب على هذا العهد مناصرة المرينيين له وإنشاء المدارس العلمية العديدة في مختلف المراكز، إلى جانب الزوايا التي سنراها في العهود التالية تتطور لتحتضن النزعات الصوفية المختلفة.

وسنرى ابتداء من هذا العصر —وحتى يومنا هذا— أن المغاربة يستقرون على المذهب المالكي من الناحية الفقهية ويستقرون من الناحية المذهبية أي من ناحية العقيدة والتوحيد على المذهب الأشعري لا يرون غيره ولا يحيدون به عن رأي أهل السنة والجماعة، دون أن ننسى أن الأشعري من فقهاء المالكية.

*** *** ***

أنتقل بعد هذا إلى النقطة الثانية المتعلقة بسبب أو أسباب انتشار المذهب المالكي وإجماع المغاربة عليه، فأراها على نوعين:

في **النوع الأول** أذكر أسباب دخول المذهب، وقد ذكر لنا منها ابن خلدون في مقدمته سببين اثنين:

أولهما: أن رحلة المغاربة والأندلسيين كانت غالباً إلى الحجاز، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في

طريقهم، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره.

الثاني: وقد انطلق فيه ابن خلدون من حسه الاجتماعي، فهو أن البداوة كانت في هذه المرحلة المبكرة غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة.

ونضيف نحن ***سببا ثالثاً***: ويتمثل في كثرة الفقهاء الوافدين على المغرب من القيروان ومن الأندلس، وأخص بالذكر هجرة عدد كبير منهم إلى فاس في عهد إدريس الثاني على إثر ثورة الربض، وكانت لهم مواقف ضد الحكم بن هشام الأموي بسبب سلوكه. ووجود هؤلاء العلماء —وكانوا كما وصفهم المؤرخون جماً غفيرا— أثر بقوة على التعريف العلمي بالمذهب، ولا سيما في هذه الفترة التي كان المغرب فيها ما زال يرسي قواعد الثقافة العربية الإسلامية.

وفي **النوع الثاني** أذكر أسباب استمرار المذهب، وأراها كالآتي:

أولا: مساندة السلطة للمذهب واعتمادها عليه. فباستثناء الموحدين كانت جميع الدول الحاكمة في المغرب تعززه وتتقوى به. وإلى هذا السبب أشار ابن حزم وهو يتحدث عن انتشار المذهب في الأندلس حيث ذكر أنه انتشر فيها أول الأمر بالرياسة والسلطان، إذ كان يحيى بن يحيى مكيناً عنده مقبول القول في القضاء، وكان يعين القضاة باختياره ويشير بأصحابه ومن على مذهبه. والمقصود بيحيى هو يحيى الليثي أحد تلاميذ مالك المباشرين، وبالسلطان هشام بن عبد الرحمن الملقب بالرضى.

ثانيا: محاربة الدولة للاتجاهات المنحرفة التي من شأنها أن تشوش على المذهب وعلى عقيدة المغاربة. ويكفي أن نذكر أن يوسف بن تاشفين قضى على البرغواطيين أو البلغواطيين، وأن المولى إسماعيل حارب العكاكزة، وأن جلالة الملك الحسن الثاني وضع حداً لنشاط البهائيين وهم منحرفون بإجماع مذاهب السنة والشيعة.

ثالثا: تجدد المذهب باستمرار، ويكفي أن أشير إلى الخطوة التجديدية الكبيرة التي خطاها على عهد المرينيين، وإلى الحركات الإصلاحية التي عرفها في ظل الدولة العلوية الشريفة، والتي كانت تهدف إلى إنقاذ الفكر المغربي من الجمود الذي وقع فيه أيام السعديين بسبب كثرة الملخصات التي وضعت لإجمال المسائل الفقهية وتقريبها. وقد كانت هذه الحركات تسعى إلى إرجاع الدين لبساطته ويسره خالياً من أي تعقيد. فسيدي محمد بن عبد الله دعا إلى نبذ المختصرات الفقهية وإلى الرجوع للكتاب والسنة وآراء السلف الصالح، ووزع منشوراً بذلك على القضاة، ووضع لتوضيح اتجاهه كتابه "الفتوحات". كذلك دعا المولى سليمان إلى الإصلاح في تأثر بالحركة الوهابية وتجاوب مع صديقه الأمير ابن سعود الذي كانت له معه علاقات متينة. واتجه في دعوته إلى الانتصار للسنة ومحاربة البدع الضالة وكتب في ذلك خطباً توجيهية.

رابعا: نضالية المذهب وجماهيريته والتحام فقهائه بالقضايا الوطنية وتقدمهم في ميدان الجهاد. ولا أدل على ذلك من قيام دولة المرابطين القوية على أكتاف فقهاء المذهب. ويمكننا أن نضيف للتمثيل على طليعية الفقهاء في الذود عن حرية الوطن ومحاربة العدوان الأجنبي ما كان لهم في معركة وادي المخازن من مواقف. ولعلنا أن نشير كذلك إلى الحركة السلفية التي

تزعمها المصلح الكبير الشيخ أبو شعيب الدكالي ومن سار على نهجه من أمثال المرحوم محمد بن العربي العلوي وغيره من تلاميذ الشيخ، وهي الحركة التي كان لها الفضل الكبير في توعية الجماهير، ومنها انبثقت الحركة الوطنية.

خامسا: طبيعة المذهب نفسه فهو لا يعتمد على الرأي والقياس بقدر ما يعتمد على النص والنقل وعلى الأثر والرواية. وهو في هذا يوافق مزاج المغاربة الذي ينفر من الغموض والإبهام ومن التعقيد والتأويل ويميل إلى البساطة واليسر وإلى السهولة والوضوح. ومثل هذا المزاج هو الذي جعلهم في أصول الدين أي في العقيدة والتوحيد يختارون الأشعرية، وهو الذي جعل تصوفهم تعبدياً سنياً يقوم على الكتاب والسنة. وإذا تذكرنا أن المغاربة قبل الأخذ بالمالكية كانوا على مذهب أبي حنيفة وأن الأندلسيين كانوا قبل الأخذ بها على مذهب الأوزاعي، فإننا لا نعجب إذا رأيناهم —بعد أن توطدت علاقاتهم— يتجهون جميعاً نحو المذهب المالكي الذي يعتبر وسطا بين مذهب أبي حنيفة الميال إلى الحرية في الأخذ بالقياس، ومذهب الأوزاعي الذي هو من أنصار الأخذ بالحديث، علماً بأن الإمام مالكاً يستند إلى القرآن والسنة ويرجح عمل أهل المدينة باعتباره إجماعاً ولكن بمفهوم موسع.

ولعله واضح من نوعية هذه الأسباب أني اعتمدت في البحث عنها على واقع التاريخ وطبيعة المذهب وحقيقة الذهنية المغربية. وبذلك استبعدت التحليل المادي الذي من شأنه أن ينتهي بنا إلى نبذ الظاهرة المذهبية كلها ورفض التراث الفكري المغربي جملة، كما استبعدت التفسير الطبقي الذي إن كان صحيحاً في فترة محدودة فهو غير صحيح بالنسبة لتاريخ بكامله. وكل من هذين التحليلين يفضي إلى نفس النتيجة اللائية التي ينتهي إليها الذين

يرفضون بإطلاق بدءاً من أحكام مسبقة أو بدافع الجهل أو العجز عن المواجهة في البحث أو على الصعيد الإنساني. وهي كلها -بالنسبة إلينا وإلى البحث- مواقف سلبية لا علمية ومن ثم لا أساس لها ولا قيمة.

*** *** ***

بعد هذا أنتقل للنقطة الثالثة والأخيرة وهي مدى استفادتنا من تحليل ظاهرة الوحدة المذهبية وأسبابها في مواجهة الواقع. ولست أعني واقع المذهب المالكي فهو مستمر، وعلينا أن نبحث في إمكان تجديده بدون انقطاع حتى يساير تطور الحياة، لأن به سيتسنى للمغرب -كما تسنى له من قبل- أن يعيش في كنف وحدة تحافظ على كيانه وتحول دون وقوعه في براثن النزعات الطائفية التي من شأنها أن تشتت أوصال البلد الواحد. ولكني أعني الواقع السياسي وواقع الفكر الذي نعيش بعد أن اتسعت مجالاته وتعددت مناحيه وتشعبت تياراته. ولكن لماذا هذا السؤال؟

الجواب أننا لا ندرس التراث دراسة تجريدية أو دراسة تاريخية متحفية، ولكننا ندرسه، سواء في قالبه المدرسي أو الشعبي، وندعو إلى دراسته على ضوء تجاربنا وتفكيرنا وما يعتمل في واقعنا ونفوسنا من صراع، للكشف عن روح الأصالة في أمتنا -وعندنا أن الأصالة هي مجموع مقومات الذات ذات الفرد وذات الجماعة- حتى نستطيع متابعة مسار التقدم الذي تحتمه حركة التاريخ الدائبة، وحتى يتسنى لنا تهييء انطلاقة متفتحة يلتحم فيها التراث بتأثيره على الواقع ومعركة التغيير من جهة مع المكتسبات الجديدة بفعاليتها المبدعة الخلاقة من جهة ثانية.

بهذا المنظور ومن خلال دراسة الموضوع أستطيع أن أنتهي إلى جملة استنتاجات لا أشك في إيجابيتها بالنسبة للواقع الذي نعيش. وسوف أقتصر منها على ما يكتسي أهمية خاصة:

أولها: أننا في المعركة التي أجمع شعبنا الباسل على خوضها بقيادة جلالة الحسن العظيم من أجل استرداد صحرائنا وبقية أراضينا المغتصبة، وفي نطاق إقناع العدالة الدولية والرأي العام العالمي بمغربية الصحراء، توسلنا بمختلف الوثائق السياسية وجميع الحجج التاريخية وهي كلها مقنعة مفحمة، ولكننا توسلنا كذلك بظاهرة الوحدة المذهبية التي تجمع المغرب المستقل وصحراءه المحتلة.

وأن هذه الظاهرة الضاربة في عمق تاريخ المغاربة هنا وهناك، وفي جذور فكرهم وذهنهم لتنهض دليلاً قاطعاً على حقنا في الصحراء وعلى واجب الصحراء علينا أن نستشهد لاسترجاعها. وقد بدأت هذه الوحدة منذ حدث الانصهار على يد المرابطين الوافدين من الصحراء ثم تقوت وتجددت بعد ذلك. وقد تأكدت هذه الوحدة على يد العلماء والمتصوفة الذين كان لهم دور في المنطقة. ولعله من العبث أن يحاول الباحث استعراض مظاهر مالكية الصحراء، فهي تتجلى في الممارسات الدينية للمواطنين سواء على نطاق العبادات أو المعاملات. وتتجلى كذلك في الكتب الفقهية التي تدرس بها، وفي طليعتها الرسالة والتحفة والزقاقية ومختصر خليل. كما تتجلى في كثرة الفقهاء الذين نبغوا في المذهب، وأعني الفقهاء الصحراويين. ويكفي أن نذكر منهم الشيخ محمد بَغْيُع المتوفى سنة اثنتين وألف كما في الصفوة، ويعتبر مجدد المائة العاشرة كما عند المقري في أزهار الرياض والشيخ الرهوني في حاشيته على المختصر ومحمد دينية في واسطة العقد النضيد،

وقبل هؤلاء أحمد بابا صاحب نيل الابتهاج. وإن هذا الكتاب عن فقهاء المالكية والمغاربة منهم خاصة، ليعد في حد ذاته —لا سيما وأن مؤلفه صحراوي— دليلاً على مالكية سكان الصحراء المغربية وتبريزهم في المذهب، ودليلاً بالتالي على مغربيتهم، خاصة وأنه لا يوجد في صحرائنا أي مذهب غير المذهب المالكي، في حين أننا نجد أنه في صحراء جيراننا ينتشر المذهب الخارجي الذي يتعايش داخل القطر الجزائري الشقيق مع المذهبين الحنفي والمالكي على شكل تتعدد فيه المساجد والمدافن كما يتعدد المفتون.

ونود ونحن نثير قضية الصحراء أن نشير إلى أنه ليس عبثاً ما تقوم به الآن إسبانيا هناك، فإن في نفسها حقداً على هذه المنطقة وأهلها يدفعها إلى الانتقام، إذ هي لا تنسى أن من الصحراء خرج المرابطون، وأن هؤلاء المرابطين هم الذين انتقلوا بجيوشهم إلى الأندلس لإنقاذ دولة العروبة والإسلام هناك وكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، واستطاعوا بذلك أن يطيلوا عمر هذه الدولة بنحو أربعة قرون.

الاستنتاج الثاني: أن الوحدة المذهبية التي يعيش المغرب في ظلها منذ قرون طويلة وتحت أنظمة حكم مختلفة، لم تفرض نفسها بالقوة أو المصادفة، ولكنها —وكما قلت في بداية الدرس— كانت اختياراً، وهو اختيار إرادي أجمعت عليه القيادة السياسية والنخبة المفكرة وجماهير الشعب. وحدث الخلل يوم حاولت القيادة تحدي خط الطرفين الآخرين، كما وقع في عهد الموحدين، وهو الآن حادث بسبب تفرق النخبة وابتعادها عن خط السير القويم وعدم ارتباطها بالجماهير وكذلك بسبب تخبط الجماهير في متاهات الشعوذة والانحراف.

والإجماع الذي نتحدث عنه تم في التحام نظري وعملي ما أحوجنا إلى تمثل حقيقته في هذه المرحلة التي نجتاز، وما أحوجنا كذلك إلى اعتبار صدقه وفعاليته لأن الأمة لا تجتمع على ضلالة كما هو مصداق الحديث النبوي الشريف الذي أدرنا عليه هذا الدرس.

ولعلنا واجدون —إن نحن تعمقنا ملامح هذه الظاهرة— حلولا لغير قليل من القضايا التي قتلناها بحثاً وكلاماً على صعيد الأدب والثقافة دون أن نصل فيها إلى حل عملي، وفي طليعتها قضية الالتحام مع الجماهير وقضية التوفيق بين النظرية والتطبيق.

أنتقل بعد هذا إلى **استنتاج ثالث وأخير** يجعلني ألقي بعض الضوء على طبيعة عقلية المغاربة وشخصيتهم، فتبدو لي في مظهرين:

أولهما: الميل الفطري إلى الوحدة، وهو مظهر نلاحظه عند المغاربة حتى قبل الإسلام. هنا أستسمح في إبداء ملاحظة دفعني إليها إلحاح كثير من العلماء —وفي الدروس الحسنية لهذا العام بالذات— على انغماس العرب والشعوب الإسلامية في الجهل والتخلف والأمية والعدمية خلال المرحلة السابقة على الإسلام. وهذا رأي يجانب حقائق التاريخ ولا يخدم الدين في شيء، ولا سيما في المرحلة الراهنة التي نواجه فيها بأن الإسلام إن كان مناسباً وصالحاً في مرحلة متخلفة، فهو اليوم متجاوز بعد أن انتشرت الحضارة والثقافة ودخل الفكر مرحلة راقية. والموضوع في غاية الدقة والخطورة، ويحتاج إلى محاضرة مستقلة أو ندوة يناقش فيها بتوسع.

أعود فأقول بأن الميل إلى الوحدة نلاحظه عند المغاربة حتى قبل الإسلام، إذ نجدهم توحدوا —ولو إلى حد— في ظل الدوناتية، وهو مذهب إفريقي صرف تزعمه دونات أو دوناتوس في القرن الرابع، وكان ظهر به في

خضم الصراع الديني الكنسي الذي كان دائراً يومئذ. ومن يدري فلعل اختيارهم للإسلام كان في بعض أسبابه أنه دين الوحدة، فاللّه واحد، والرسول واحد، والكتاب واحد، والقبلة واحدة، والأمة واحدة، واللسان واحد، ثم أمعنوا في الإلحاح على الوحدة فكان عندهم المذهب واحداً.

المظهر الثاني: الميل إلى البساطة والسهولة والوضوح، والنفور من الغموض والإبهام ومن التعقيد والتغييب كما سبق أن بينت.

ونحن في أمس الحاجة إلى استحضار هذين المظهرين لعقليتنا وشخصيتنا في هذه المرحلة التي نعاني فيها من نزاع حضاري وثقافي، نحن في خضم صراعه واقفون في مفترق طرق تتقاذفنا التيارات عاجزين عن الاختيار وعاجزين بالتالي عن تحقيق وجودنا، لأننا لم نهتد بعد إلى إيجاد نقطة التقاء تكون في نفس الوقت نقطة توازن بين فكرنا والفكر العالمي، أي لم نهتد إلى حل معادلة التراث والمعاصرة، انطلاقاً من الوعي بالذات، وتحليل الواقع، والبحث في التراث، والارتباط بالجماهير –الارتباط الحق بالجماهير– والأخذ من الثقافات الإنسانية بوعي وعمق وبحرية ونقد وبرؤيا علمية ومن خلال ذاتيتنا وتصورنا الخاص حتى لا نكون مستلبين ومجرد مقلدين وأصداء، وبدون تعقيد أو الإحساس بأي مركب لأن طبيعة الحضارات والثقافات أنها تقوم على الأخذ والعطاء. ونحن قد أعطينا الكثير، وما زلنا قادرين على أن نعطي إذا عرفنا كيف نستفيد مما لدينا من إمكانيات.

وألح على قضية الارتباط بالجماهير التي ننساها دائماً، ونحن ندعو ونحاول الترويج لأفكار ومذاهب دخيلة وأجنبية عليها وعلى عقليتها ومزاجها وشخصيتها، ونحن نعرف أنها رافضة لها فكريا وذوقيا وروحيا.

ونحن نفعل ذلك على كثرة تلويحنا بشعارات الشعبية والجماهيرية، وهي شعارات يتضح في النهاية أنها جوفاء وأنها مفرغة من أي مضمون حقيقي وملموس للكلمة.

وهنا يحق لنا أن نذكر بقية الحديث النبوي الشريف: "**فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم**" والمقصود بالسواد الأعظم غالبية الأمة أي جماهير الشعب.

*** *** ***

إننا نعاني من تشتت فكري واضطراب ثقافي وقلق حضاري، وهي ظواهر مرضية تهدد بتمزق الإنسان والأرض إن لم تعالج بحسم، ونسمع دعوات ونداءات هنا وهناك، من هذا الطرف أو ذاك، ولكنها صيحات في واد. ولن يخرجنا مما نحن فيه إلا البحث عن خط موحد للسير يتكامل فيه عمل القيادة والنخبة والجماهير.

أما الجماهير ففي اختياراتها خلال التاريخ ما يكشف عن حقيقة اتجاهها وإرادتها وطبيعة مزاجها وعقليتها، وعلينا أن نزيد في الإصغاء إليها وأن نشركها في الأمر. وأما النخبة فعلينا أن نتيح لها فرص الدعوة، وعليها فيما تدعو إليه أن تراعي هذه المقومات وغيرها من القيم الوطنية والدينية، وأن توحد خطتها وتكتل جهودها وتعد نفسها للعمل الجماعي ولخدمة الشعب.

ثم يأتي دور القيادة –وهو الأساس– فيفسح المجال وينير الطريق ويؤطر الطاقات المفكرة ويوظف الإمكانات اللازمة ويحمي القيم والمؤسسات.

إننا نعاني على الصعيد الوطني، وكذلك على الصعيد العربي الإسلامي، من ضغط القيم والمفاهيم المختلطة علينا، لأننا صدمنا بالاتصال

المباشر مع الغرب، ووجدنا نفسنا نواجه فكراً مسايراً في تطوره لتطور المجتمعات التي نشأ فيها، ولكنه غير منسجم مع واقع مجتمعنا والمرحلة الحضارية والثقافية التي نجتاز. وصعب علينا أن نختار لأننا نعاني من ضغط آخر هو إلحاح الحاجة إلى قيم ومفاهيم نابعة منا ومنسجمة مع وجودنا في الماضي والحاضر. ولن يتسنى لنا أن نخرج من هذا الصراع بغير ثورة فكرية تعيد الثقة لنا بالنفس وبمقوماتنا وبقدراتنا وممكناتنا الهائلة، وتفتح لنا الآفاق واسعة في مجال المعرفة الإنسانية، وتحرك عبقريتنا وتنهض طاقاتنا الخلاقة في مجالات السياسة والاقتصاد والفكر على السواء لنبدع فيها بروح تقدمية مستقبلية.

حقاً إن الأحداث السياسية والتطورات الاقتصادية تسير —وبسرعة— في غير انتظار للفكر، وحقاً أن الفكر بسبب تخلفه واستلابه يبدو في أثر هذه الأحداث عاجزا حتى عن متابعة المسيرة ليكشفها ويوضح غوامضها ويفسر أبعادها، ولكن ما على هذا يقتصر دور الفكر، فإن دوره الحقيقي والفعال أن يكون في الطليعة يشير ويخطط في سبق للأحداث وإرهاص بها وتوجيه لها. وإن دوره كذلك كامن في توعية الجماهير وتعبئتها للنضال من أجل الذود المستمر عن الحرية والكرامة ومن أجل التجديد الدائم للحياة والتطلع للمستقبل.

وحين نقول ثورة نعني تغييراً جذرياً في الفكر والسلوك يعيشه المواطن، ويمارسه في البيت والشارع وفي المدرسة والجامعة وفي المتجر والمصنع، ويتلقاه في الصحيفة والمجلة والكتاب ومن مختلف الأجهزة المرئية والمسموعة.

ومتى تحققت هذه الثورة أمكننا أن نخرج من الصراع الذي نحن فيه، وأمكننا كذلك أن نحصن مكتسباتنا السياسية والاقتصادية، وأن

نضيف إليها، وأن نضمن الاستمرار في مسيرة تقدمية سليمة الدعائم واضحة الأهداف أكيدة النتائج.

وإن قائد مسيرتنا جلالة الحسن الملهم مهيأ ليقود هذه الثورة الفكرية كما قاد ويقود ثورة مستمرة للتحرر السياسي والانطلاق الاقتصادي. هو مهيأ لذلك بالتفاف الأمة حوله وإجماعها عليه وإلقائها الأمر إليه، ومهيأ بحبه لشعبه وغيرته على بلده ودينه، ومهيأ بعلمه الواسع وثقافته المتفتحة، ومهيأ بوطنيته الخالصة ونضاليته الصادقة ومهيأ بحنكته السياسية ومكانته العالمية.

بهذا وغيره، هو مهيأ لقيادة هذه الثورة ومهيأ كذلك لإنجاحها وللإشعاع بها على نطاق دولة العروبة والإسلام، تحقيقاً للرسالة التاريخية التي تحملها هذا البلد على الدوام.

وسيجد من أبناء هذا الشعب الحر الطموح —كما وجد دائماً— كفايات وقدرات مجندة لتلبية النداء في حب وتفان ووفاء وثقة به وبالشعب وبهذه الأرض الطيبة الكريمة. وسيجد في الطليعة رجال الجامعة الذين آمنوا برسالتهم فانطلقوا يعملون في صدق وصبر وصمت، ملتزمين بحرمة العلم والفكر وبحرية الرأي والكلمة، وملتزمين كذلك وفي المقام الأول بالعمل الوطني وخدمة الجماهير.

سدد الله خطاه ووفقه ووفق جميع المخلصين العاملين لخير هذه الأمة.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الفكر الإسلامي
بين اليقظة والتحدي وآفاق قرن جديد

انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك، إنك على صراطٍ مستقيم، وإنه لذكرٌ لك ولقومك، وسوف تسألون﴾.

سورة الزخرف (الآية 42-43)

ألقيت بقصر الرياض في الرباط

مساء الأربعاء 22 رمضان المعظم 1402هـ

الموافق 14 يوليوز 1982م

لسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

اللهم إني أسألك أن تثبت جناني، وتدير الحق على لساني، وتبارك فيما قدرت لي، وتوفقني فيما أرشدتني إليه وهديتني.

مولاي أمير المومنين،

تحفزاً من عواطف متأججة جياشة، نابعة من حب صوفي لا حدود له ولا حواجز، ومن إلهام عبقريتكم الفذة وإبداعاتكم الأصيلة، ومن وحي هذا المجلس العلمي الموقر الذي أقمتموه في كنفكم مناراً للفكر القويم الرصين، ومنبراً للرأي الحر الجديد، سعياً حثيثاً وصادقاً من جلالتكم إلى المشورة والنصيحة وكلمة الحق.

تحفزاً من هذا وغيره أستسمح حضرتكم الشريفة في الإذن لي بالتحدث في موضوع: **"الفكر الإسلامي بين اليقظة والتحدي وآفاق قرن جديد"**، وقد قسمته إلى ثلاثة محاور مع مقدمة وخاتمة.

في **المحور الأول** سنرى كيف واجه المسلمون في السابق ما اعترضهم من تحديات.

أما **المحور الثاني** فسنتناول فيه إشكالية الواقع الذي يحيط بالعالم الإسلامي وهو يستقبل قرنا جديدا.

وأما في **المحور الثالث** فسنحاول أن نطرح الفكر الذي يستطيع أن يعطي اليقظة أبعادا فعالة ومؤثرة.

*** *** ***

في البدء أود أن أطرح توضيحا يمس عناصر هذا الموضوع، وهي: الفكر الإسلامي أولا ثم اليقظة والتحدي ثانيا.

بالنسبة للعنصر الأول، نقول الفكر الإسلامي ولا نقول الإسلام، لأن الإسلام من الله تعالى، وهو يمثل الحق والكمال المطلقين ؛ ومن ثم فإنه لا يصح أن يوصف باليقظة أو الوعي أو ما إليهما من الأوصاف التي نسمع هذه الأيام، كصحوة الإسلام أو الإسلام السياسي وغير ذلك. كما لا يصح أن يوضع في موقع المقارنة مع المذاهب والنظريات الوقتية التي يبدعها الإنسان في ظروف زمانية ومكانية معينة، على حد ما يقال ويكتب عن الإسلام والديموقراطية، الإسلام والاشتراكية، الإسلام والشيوعية، وما إليها من المقارنات.

لهذا نتحدث عن الفكر الذي أنشأه المسلمون، انطلاقا من الإسلام، نعني به خلاصة ما أنتجوا وينتجون في مضمار الحضارة والثقافة من مبدعات عقلية وشعورية، وما يرتبط بها من تصورات وأحاسيس وتقاليد وآمال وأهداف ومواقف.

أما بالنسبة لليقظة والتحدي، فنقصد يقظة المسلمين من خلال يقظة فكرهم، ونقصد تحدي خصومهم من خلال مخاصمتهم لهذا الفكر.

ونعتقد أن اليقظة والتحدي مرتبطان، إن لم يكن التحدي هو الذي ولّد ويولد اليقظة. يشهد بذلك مسلسل التحديات التي عرفها التاريخ الإسلامي،

منذ الإفرازات السياسية والعقدية والثقافية المنحرفة التي بدأ ظهورها في العهود الإسلامية الأولى، إلى الإغارات المغولية والتتارية، فالحروب الصليبية المختلفة الأنماط والأشكال، إلى الاستعمار في المرحلة الحديثة، ثم إلى الحرب الاقتصادية والفكرية والعسكرية التي تدهم المسلمين اليوم في عقر ديارهم بتحديات ضخمة في حجمها ومتنوعة في أساليبها وأسبابها.

ومن الحق أن نقول إنه بقدر ما تكبر التحديات تكبر اليقظة، ومن الحق كذلك أن نقول إن اليقظة وحدها لا تكفي، إذ هي مرحلة أولية فقط تمثل درجة من الوعي ينبغي أن تكون متبوعة بالمواجهة للتغلب على الموقف والقضاء عليه، دون أن تقتصر في كل مرة يحدث التحدي –كما هو واقع– على طرح إمكان المسايرة الشكلية القائمة على المصالحة، ولو بالجمع بين المتناقضات، أو التوفيق بين عناصر الذات والعوامل الخارجية، وإن في غير فهم حقيقي وإدراك صحيح لهذه العوامل وتلك العناصر، وعلى الرغم مما في الكفتين من اختلال وعدم تكافؤ.

ويجدر بنا أن نسجل هنا أن اليقظة في بعض المراحل تفضي إلى نوع من التشكيك في تفوق الغرب، إن لم نقل الكفر واليأس من نموذجه، وتجريده من كل قيمة أو صلاحية بسبب ما يقوم عليه من أسس تتنافى مع أبسط مقومات الحرية والكرامة والحياة الإنسانية. ويكفي أن نذكر من ذلك:

1- توظيف التقدم العلمي والتقني للتخريب والتدمير.

2- كثرة التناقضات التي تصاحب هذا التفوق الحضاري والثقافي، وأبرزها انغماسه في المادية، وتحلله من كل العناصر الخلقية السلوكية والمقومات الإنسانية الروحية.

3- السعي إلى استغلال الآخرين واستعبادهم بجميع الوسائل.

4- زرع الكيان الصهيوني في قلب الجسم الإسلامي لاستنزافه، ولضمان النفوذ الغربي المستمر في هذا الجسم.

المواجهة إذن ضرورية، وهي مفروضة لأنها سبيل التخلص من التبعية المجسدة للتخلف، ولأن المسلمين في المسيرة البشرية القائمة على الصراع، متجهون طوعا أو كرها لمواجهة التاريخ.

وليس في هذه المواجهة ما يستغرب، وقد نبهنا الله تعالى لفتنتها في استفهام إنكاري متكرر، كقوله: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون﴾[1]، وقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ وهو استفهام لا يتركه عز وجل دون أن يعقب عليه بقوله الكريم: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾[2].

وقد يتساءل: لماذا يربط كل ذلك بالفكر؟

نجيب بأن الفكر –فضلاً عن كونه قيمة في حد ذاته معروفة– فهو قيمة فعالة في جميع المقومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ثم إنه لا إمكان لأية ممارسة في أي مجال بدون تخطيط فكري ؛ دون أن يغيب عن الذهن أن الفكر هو محور الحرب الإيديولوجية الدائرة رحاها الآن في العالم المعاصر.

*** *** ***

وعلى الرغم من أننا لا نريد أن نبقى مع التاريخ، لأننا نريد أن ننظر برؤية مستقبلية للفكر الإسلامي، لنعرف كيف يمكن أن يكون قادراً

---

[1] سورة العنكبوت –الآية 1

[2] سورة البقرة –الآية 212

على مواجهة ما يعترضه من تحديات، فإننا نرى ضروريا قبل ذلك أن نتعرف إلى أبرز أساليب المواجهة التي توسل بها المسلمون في صد التحديات، دون أن ندخل في تفاصيلها. ونستطيع أن نجملها في أساليب أربعة تدرجت متعاقبة في التاريخ:

الأسلوب الأول:

يتميز بالإحباط العلمي والعملي لكل محاولة للتحدي، مع القدرة على هذا الإحباط، ومن موقع القوة والتفوق، انطلاقا من إقامة بناء قوي ومتماسك ومتكامل للدولة الإسلامية، يعتمد على الإبداع وعلى تطوير التراث، وعلى امتصاص ما عند الآخرين، وإدماجه في الفكر الإسلامي بوعي وعمق ودون أية عقدة. وهذا هو الأسلوب الذي سلكه المسلمون في القرون الثلاثة الأولى، بشيء من التفاوت، سواء على صعيد السياسة أو العقيدة أو الثقافة.

الأسلوب الثاني:

يكتفي بالرد والدفاع، وهو الذي لجأ إليه مفكرو الإسلام طوال قرون مماثلة تالية. وقد برز فيه الغزالي وابن تيمية وأضرابهما من العلماء الذين بذلوا إمكاناتهم العقلية —وكانت لبعضهم طاقة فكرية جبارة وقدرة فائقة على الجدل والمناظرة— في محاولة إبطال أقوال المبتدعة والخصوم، وتكذيب دعاوي المنحرفين والمضللين. وإذا كان لنا أن نصف هذا الأسلوب، فإننا نستطيع وصفه بالأسلوب الاستنزافي الذي يصرف —وصرف بالفعل— عن التجديد في ميدان التشريع والتنظيم، بما يناسب تطور الحياة والزمن ؛ بل صرف عن تجديد الفكر الإسلامي عامة، وبالتالي تجديد بناء الدولة

الإسلامية بما يضمن لها استمرار القدرة على الصمود والبقاء في الطليعة والقيادة.

الأسلوب الثالث:

يتسم بالانطواء على الذات وخويصة النفس، مع اللجوء في أحسن الأحوال إلى العبادة والتبتل والزهد، في ابتعاد عن حياة الناس عامة. وهذا أسلوب هروبي ناتج عن الضعف والعجز عن المواجهة، رغم جانبه التعبدي الإيجابي ؛ وهو الأسلوب الذي تبلور في اتجاه التصوف، وخاصة في الزوايا عند أصحاب الطرق، وإن كنا نعترف بأن بعض الزوايا في المغرب نهضت بدور نضالي تمثل في نشر العلم وتعبئة الجماهير وإقامة الجهاد ونشر الإسلام في الأقاليم المجاورة. وقد ارتبطت فترة اللجوء إلى هذا الأسلوب بتعطيل البحث العلمي ومناهجه، وشيوع النقل والتقليد والترديد في مجالات التعليم والثقافة، كما ارتبطت بانتشار الشعوذة والبدع والخرافات والضلالات.

الأسلوب الرابع:

يتجلى في حركات الإصلاح الحديثة التي ظهرت في المشرق والمغرب على يد جماعة من المصلحين، في مقدمتهم من المشرق محمد بن عبد الوهاب الذي أدار دعوته على ضرورة العودة إلى التوحيد الحق ومحاربة كل البدع والتيارات الدخيلة. ومنهم كذلك جمال الدين الأفغاني الذي ركز على الجانب السياسي بدعوته إلى الوحدة عن طريق الجامعة الإسلامية ؛ في حين ركز تلميذه محمد عبده على الجانب التعليمي التربوي وعلى محاولة التوفيق بين الدين والمدنية.

أما في المغرب، فظهرت حركات إصلاحية سلفية على يد السلطان العالم المحدث سيدي محمد بن عبد الله الذي كان يرى ضرورة الرجوع إلى

الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح ونبذ التقليد والمختصرات الفقهية. ومثله المولى سليمان الذي لم يدع إلى نبذ المختصرات، ولكنه انتصر للسنة وحارب البدع الضالة. وفي نفس الخط سارت الحركة السلفية التي تزعمها المصلح الكبير أبو شعيب الدكالي، والتي نشأت عنها الحركة الوطنية حين التحم العمل الثقافي بالعمل السياسي، بدءاً من حادث الظهير البربري.

ومهما تكن إيجابيات هذه الحركات الإصلاحية متنوعة ومتعددة، وإن في نطاق تحريك الشعور الإسلامي لدى الجماهير ومواجهة العدوان الصليبي الغربي، فإنها لم تستطع أن تحقق الإصلاح، أو أن تصحح أوضاع المسلمين، بل لم تستطع حتى أن تقيهم خطر الوقوع في براثن الاحتلال والاستعمار.

والأسباب في ذلك كثيرة، نستطيع أن نذكر منها:

أ- التخلف العام الذي كانت تتخبط فيه الدولة الإسلامية.

ب- قوة المد الاستعماري وارتباطه بالتفوق الأوروبي القائم على تقدم حضاري وثقافي جديد، ظل يتكون طوال نحو من أربعة قرون، بدءا من عصر النهضة.

ج- اتسام هذه الدعوات الإصلاحية بالتجريد والمثالية في بعضها، وبالنظرة الجزئية في بعضها الآخر، مما جعلها لم تقدم نظريات أو مناهج متكاملة، قادرة على الاستقطاب والتأطير وعلى تقديم الحلول. بل إنها لم تكن قادرة على إحداث أي تجديد سواء بمراجعة الفكر الإسلامي نفسه، أو بإدراك أسباب التفوق الأوروبي وامتصاص عناصره الحضارية والثقافية، لإدماجها ولو بشكل توفيقي متوازن. ولعلها ما كانت تستطيع ذلك، وهي لا تتوافر على الأدوات الذهنية اللازمة لذلك، فضلا عن كون الغرب في تحديه لم يكن يشجع على هذا التفتح. فهو على تفوقه العلمي التقني

المادي لم يفتأ يواجه المسلمين بحملات صليبية تبشيرية، كما لم يفتأ يحول دون أخذ غيره بأسباب التقدم، وخاصة في مجال العلم ؛ إذ غاية ما كان يسعى إليه في البلاد التي استعمرها هو تكوين موظفين صغار وأعوان متوسطين يمكنهم أن يساعدوه على تنفيذ مخططاته ؛ دون أن ننسى أنه لم يفكر في إدخال نظم التسيير العصرية إلى الحياة الأهلية في تلك البلاد.

د- مواجهة هذه الحركات من طرف دعوات داخلية متناقضة:

بعضها جامد متحجر يمثله التيار الطرقي الذي تصدى لكل تحرك سلفي، في تشبث بفكر يغلب عليه الانحراف عن الإسلام الصحيح وتطغى عليه الشعوذة والتحريف، مع استغلال بساطة عقول العوام وتسخيرهم وتعبئتهم في هذا الاتجاه.

وبعضها الآخر يناهض الاتجاه السلفي، بل يناهض الدين داعياً إلى ضرورة التفكير العقلاني العلماني المجرد عن الدين، باعتبار أن مجال هذا الأخير في نظرهم محصور في نطاق الروحيات التي تهم الإنسان كفرد، وباعتبار أن تقليد أوروبا هو السبيل الوحيد لإمكان الخروج من التخلف.

*** *** ***

لو حاولنا بعد هذا أن ننظر في الفكر الإسلامي من زاوية جديدة، ونحن نستقبل القرن الخامس عشر، لألفينا أنفسنا أمام واقع مشكل تتجلى إشكاليته في المعطيات الخمسة الآتية:

أولها:

أننا نستقبل هذا القرن وكاهلنا مثقل بمخلفات عهود التخلف والاستعمار، ورواسب هذه العهود التي تراكمت فخلفت بدورها مشاكل سياسية واقتصادية وفكرية واجتماعية، بل مزاجية ونفسية كذلك. ولعلنا نستطيع أن نجملها في جانبين:

1- التبعية الفكرية والاقتصادية، وهي تحول دون تشكيل الكيان الفكري والاقتصادي للدول التي يراد لها أن تبقى مجرد مصدر للثروات الخام، من غير أن تستطيع التصرف فيها، وخاصة تصنيعها ؛ كما يراد لها أن تبقى بدون هوية ثقافية، بكل ما يترتب على ذلك من عجز عن دخول ميدان العلم، فضلا عن الإبداع فيه وتوظيفه بالبحث والتطبيق.

2- الممارسات اللامشروعة، وتتمثل في كل مظاهر التسلط والجور والظلم والطغيان والبغي والاستبداد ؛ كما تتمثل في كل عوامل تجريد المواطن العادي من حقوقه المشروعة في التعليم والعلاج والتشغيل وحد الكفاف، دون الطمع في حد الكفاية ؛ وتتمثل بعد هذا في كل الظواهر البهيمية المتجلية في الإقبال على الشهوات والنزوات والابتعاد عن الحد الأدنى من ضرورات الغذاء الذهني والفكري والعلمي والروحي.

ثاني هذه المعطيات:

أن الهياكل الحضارية والثقافية المعاصرة والبنيات التي تقوم عليها أخذت أحجاما وأبعادا تختلف عما كان متعارفا عليه في السابق، مما ضخم المشاكل وجعل قضايا التخلف تأخذ مقاييس عملاقة ؛ الشيء الذي أصبحت معه التصورات التاريخية عاجزة عن أن تساعدنا على إيجاد الحلول اللازمة.

المعطى الثالث:

أن العالم الإسلامي —لعوامل سياسية واقتصادية واستراتيجية— أصبح ملتقى الأنظار، إن لم نقل مركز الحشد وميدان الانطلاق وساحة الصراع.

أما رابع تلك المعطيات:

فهو أن خصوم الإسلام، مهما كان اختلافهم فيما بينهم، متفقون على جملة أشياء تتعلق بالعالم الإسلامي، أهمها:

1- الإبقاء على تخلفه لاستغلاله والسيطرة عليه.

2- التشكيك في قيمه ومقوماته.

3- الإيهام بأن الدين يتنافى مع العلم والعقل.

4- إضعاف الاعتقاد بأن الإسلام رابطة قوية.

5- الحيلولة دون قيام أي كيان وحدوي يمكن أن يجمع شتات المسلمين —أو حتى العرب— في أية صيغة ممكنة للجمع.

6- إبعاد المسلمين عن ميدان العلم الحق، وعزلهم عن حركية العالم المتقدم.

7- محاربة كل اتجاه يسعى إلى التحديث والتصنيع، وتحرير الاقتصاد في البلاد التي كان يحتلها، تكريساً لهيمنته عليها وفرضاً لتبعيتها له.

8- التبشير بولاآت عقدية وانتماآت مذهبية ملغومة، أقل سلبياتها أنها تبث التفرقة، وتنشر الخصومة، وتحمل الآخذين بها على تبعية فكرية رخيصة مثقلة بالتشويه والمغالطة، تهدف إلى التشكيك وبث روح الاستلاب والاغتراب.

9- إحياء النزعات القبلية والنعرات العنصرية لتكريس فكرة التشتت والتمزق داخل الكيانات الوطنية.

10-إزعاج المسلمين بمشاكل متعددة ومختلفة، في طليعتها الصهيونية التي تقف في رأس التحديات، تعوق انطلاقهم في طريق التطور والتقدم.

ونعتقد أنها المقياس الحراري المتحرك الذي يرقب خصوم الإسلام من مؤشره مدى ردود فعل المسلمين أمام بقية التحديات.

وأما المعطى الخامس والأخير:

فهو أن هذه التحديات وغيرها ولدت في العالم الإسلامي يقظة مصحوبة بعزيمة، ربما بتخطيطات لمواجهتها، ولكن البنيات الفكرية وما يتبلور عنها من ممارسات فوضوية ومريضة في غالبها، لا تفرز إلا مزيدا من التشتت والتمزق. ومن ثم فإن هذه البنيات تختلف في التعامل مع التحديات ما بين فئتين اثنتين:

الفئة الأولى:

تقر بوجود التحديات وبواقعها المفروض، وهذه الفئة منقسمة إلى قسمين:

1- قسم ينطلق من شعور ديني، ويعترف بخطورة هذه التحديات، ويقدر جسامة ما تعلنه أو تضمره للمسلمين ؛ ولكنه يفر أمامها ويتدهور منهزماً إلى الوراء، في عجز عن المواجهة، مكتفيا بالانزواء للتضرع والدعاء.

2- قسم يحاول التحرر من الشعور الديني ويعتبر أن تلك التحديات مظهر لواقع العصر وتطوراته وصراعاته الحضارية والثقافية، وأنه لا مناص من قبولها والاستسلام لها والتكيف مع مقتضياتها، وضرورة تخلي المسلمين عن ذاتية متجاوزة لم يعد لها ما يبلور كيانها في الحياة المعاصرة.

الفئة الثانية:

تتعدى موقف الإقرار والقبول إلى موقف المواجهة، وهي بدورها منقسمة إلى قسمين:

1- قسم يلتزم الرؤية الإسلامية ولا ينظر من سواها، ولكنه يتوسل بأساليب بالية واهية تعتمد وعظاً وإرشادا متخلفين يجعلانها أضعف من أن يكون لها أدنى تأثير، حتى حين يُلجأ فيها إلى تأطير جماعي من شأنه أن يقويها، ويجعلانها بالتالي دون مستوى التحديات التي تواجهها.

2- قسم يرصد من زاوية مخالفة، يطرح فيها التحديات باعتبارها تدخل في مضمار تناقضات إقليمية ودولية، ينبغي التفكير في حلها بمعزل عن الدين الذي يختلف النظر إليه عند أصحاب هذا القسم، ما بين إلحادي لا يعترف به أو هو يزعم ذلك، وبين علماني يرى الابتعاد عن الدين في الصراع وإن كان لا ينكره.

على أن ظهور مثل هذه الفئات يثبت أن معادلة التحدي واليقظة قائمة ومتجددة باستمرار ؛ وفي مواجهتها تبدو قائمة ومتجددة كذلك ألوان من التفكير وأنماط من الرؤى المختلفة التي تطرح في كل مرة حلولاً تتباين ما بين هذا الاتجاه أو ذاك، إلى حد تبدو أنها تتعارض أو يهدم بعضها بعضا، حائلة دون قيام بنيان تام ؛ ولكنها في كل مرة —وهذا هو المهم— تكشف عن وعي متنامٍ ومتطور، لعله لم يفرز مواقف حاسمة، فضلاً عن أن تكون هذه المواقف فعالة وإيجابية وإجماعية. ولكنه مع ذلك دليل قاطع على أن الفكر الإسلامي، رغم ما فيه من سلبيات، يحتفظ بحد أدنى من الحيوية والفعالية، ومن القدرة على التفاعل والصراع والصمود والمواجهة، وقبل ذلك القدرة على الرفض وعدم الاستسلام والانهزام.

ومع ذلك فلعلنا لا نحتاج إلى تحليل مهما كان، لنثبت أن الفكر الإسلامي بواقعه المتخلف والمتمزق أضعف من أن يتيح إمكان التغلب على التحديات التي تواجهه وستواجهه. ويتضح هذا الضعف حين يقارن فكرنا

بالفكر المادي الذي تولد بقيمه ومقوماته وعلاقاته الجديدة عن حضارة مادية صناعية، هدفها تحقيق التقدم المتمثل في زيادة الإنتاج وتنمية القدرة عليه، انطلاقا من العلم والتقنية. ومن ثم فإن هذا الضعف لا يرجع إلى طبيعة الفكر الإسلامي وطبيعة قيمه ومقوماته، ولكنه يرجع إلى ظروف وعوامل تاريخية خارجة عن ذاته.

*** *** ***

من هنا، فإننا لا نتردد في القول بأن الفكر القادر على ذلك ينبغي أن يتجاوز الحاضر بكل تناقضاته، فضلاً عن الماضي بمختلف سلبياته، ليكون فكرا مستقبليا تقتضي انطلاقته أن يُعرض على بساط علم المستقبل الذي يهدف إلى تصور الآفاق والتخطيط لها والتحكم في بعض جوانبها وتوجيهها، أو التهيؤ لاستقبالها حتى لا تبقى رهناً بالتغيرات المفاجئة.

ولهذا التناول المستقبلي منهجية خاصة، تعتمد إدراك الظواهر الجوهرية وتحليل مسار التطور التاريخي وتحديد العوامل المؤثرة فيه، باعتبار المستقبل امتداداً للتاريخ وتغييراً له في نفس الوقت، وباعتبار المستقبل كذلك خاضعاً في صنعه لطموح المجتمع الذي يسعى له ويتطلع إليه.

وفي اعتقادي أنه لا بد في ذلك من مرحلتين:

الأولى:

ضرورة قيام مفكري الإسلام وعلمائه المتخصصين —أقصد مفكريه وعلماءه الحقيقيين غير المزيفين ولا المندسين— بتحليل علمي للأوضاع الإسلامية العامة، بهدف إبراز الجوانب الإيجابية والسلبية في فكر المسلمين، مع مراجعة كل المحاولات الإصلاحية التي عرفها المسلمون، وخاصة في صراعهم مع الغرب، لإمكان استخلاص نتائج تلك المحاولات

وإدراك الأسباب الحقيقية التي حالت دون إقرار إصلاح حق، وكذلك إدراك عناصر حركية الفكر الإسلامي.

الثانية:

تقديم البديل، أي طرح المنهج الإسلامي الصالح للعصر ؛ وهو منهج يقوم على المبادئ التي جاء بها الإسلام، والتي لا يجادل أحد في سلامتها، سواء منها ما يمس الجانب التعليمي التربوي والخلقي السلوكي، أو ما يمس الجانب المالي والسياسي والفكري وكل ما له صلة بتنظيم الحكم والعلاقات المجتمعية والإنسانية الخاصة والعامة. وهي مبادئ تحتاج إلى أن يكيف تطبيقها بما يساير مقتضيات التطور وفق ما ينتهي إليه علماء الإسلام ومفكروه، انطلاقاً من كون الإسلام عقيدة ودنيا أي دينا ودولة، وانطلاقا كذلك من كون الإسلام خاتم الأديان والشرائع، وانطلاقا بعد هذا من كونه مؤسساً على مقومات إنسانية وقيم فطرية هي الحق والعدل والخير والقوة والرحمة والمحبة والكرامة والعلم والعقل والتقوى ؛ وعليها تقوم مختلف ألوان التعامل التي يقتضيها المجتمع الإسلامي، سواء بين أفراده أو مع غيرهم، ولا سيما مع الغرب ؛ مما يجعل المسلمين قادرين في خطوة أولى على الاندماج في العالم المتحضر والمتقدم، ومؤهلين في خطوة ثانية لإدماج هذا العالم في بوتقة المنهج الإسلامي القائم أساساً على الوسطية، رغم تعدد جوانبه وتعقد ملامحه.

ونؤكد هنا ما سبق أن شرحنا في بعض أبحاثنا المنشورة[1] من أن هذا المنهج منهج إلاهي، متروك أمر تطبيقه للإنسان المسلم بما له من جهد وطاقة، وبما يناسب واقع حياته ومتطلبات هذا الواقع.

[1] كتاب: الفكر الإسلامي والاختيار الصعب.

وليس في ذلك أي تعارض إذا نحن تصورنا هذا المنهج ذا شقين:

أحدهما:

ثابت، وهو الجوهر الديني المتمثل في الجانب العقدي التعبدي، وفي الإطار العام المحدد للعلاقات والمعاملات.

والثاني:

متحرك، يتمثل في العوامل والمقومات الإنمائية التي ينبغي أن تتطور وتتجدد كلما تجددت حياة المسلمين وتطورت ظروفهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، في ربط بين الدين ومعركة التنمية، بحيث يكون الدين خير إمداد لها وليس عائقا أو بديلا. وهذا ما يجعل المنهج الذي يتوسل به الفكر الإسلامي شاملا ومتكاملا يهتم بشؤون الحياة في مختلف الميادين، وفي تنسيق يحفظ للإنسان توازنه المادي والروحي، ويحفظ له كيانه داخل المجتمع، وفي إطار علاقات لا التواء فيها ولا تعقيد، تنظم بين الأفراد فيما بينهم، وتنظم في نفس الوقت رباطهم مع الله.

وفي ظني أنه إذا كان تحقيق هاتين المرحلتين أساسا في تشكيل فكر إسلامي يتسم بالمستقبلية والقدرة على مواجهة التحديات، فإنه لا سبيل إلى تحقيقهما إن لم تتوافر جملة شروط، أهمها ثلاثة:

أولها:

الأخذ بأسباب البحث العلمي الجديد وما يقوم عليه من أدلة ومقاييس عقلية مقنعة، وما يعتمد من طرائق ومناهج لتوظيفها واستغلال طاقاتها وقدراتها، دون الوقوع في حبائلها الاستلابية ؛ يحمينا من ذلك رصيدنا وما لنا من تقاليد راسخة في هذا المجال. فلسنا في حاجة إلى أن

نذكر بأن المجتمع الإسلامي مجتمع عالم، أو هكذا ينبغي أن يكون، لأن طلب العلم فيه واجب، ففي الحديث النبوي الشريف: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**"[1].

وهو مجتمع يعلي شأن العلماء: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[2].

ولقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**"[3]، وقال عليه السلام جاعلاً رتبة العلماء تالية النبوة وسابقة على الشهادة: "**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**"[4].

ولسنا كذلك في حاجة إلى أن نذكر بأن المعرفة في الإسلام تنطلق من البحث العلمي، من حيث أنها تقوم على الحس والتجريب. تقوم أولاً على الحس، ولكن ليس في شكله البدائي الأولي الذي يكتفي بمجرد ملاحظة الظواهر ببساطة وسطحية، وإنما من خلال رؤية علمية تنطلق من المرئي لمزيد من البحث في تلك الظواهر وإدراك ما بينها من علاقات: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكمُ السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون. ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يومنون﴾[5].

---

[1] رواه ابن ماجة.

[2] سورة الزمر –الآية 9

[3] كما في الترمذي.

[4] رواه ابن ماجة.

[5] سورة النحل –الآية 78–79

وتقوم المعرفة ثانياً على التجريب كخطوة تالية في هذا البحث المعرفي، لتعميقه بطرح تلك الظواهر على بساط التفسير العلمي الذي يعتمد الدقة والتحقيق والتحليل والتنظيم والتقنين والتنظير.

المعرفة الإسلامية بهذا، وهي تقوم على الحس والتجريب، تلح على ضرورة توظيف العقل بالتأمل والقياس والاستنباط، لخدمة الواقع والحياة العملية للإنسان والمجتمع، دون الانشغال بالقضايا الماورائية التي ذكرها القرآن في صيغة نهائية، وإن اضطر المسلمون إلى الاشتغال بهذه القضايا التجريدية للرد على خصوم الإسلام أولا، وتأثرا بالفلسفة اليونانية ثانيا. على أن العلم في الإسلام مقرون بالإيمان: ﴿يرفعُ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[1]، ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾[2].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**فأما طبقتي وطبقة أصحابي فأهلُ علم وإيمان**"[3]. وهو مقرون كذلك بالتحرك والفعالية والنفع: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[4].

وقد حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم على طلبه ولو في أقصى بقاع الأرض: "**اطلبوا العلم ولو في الصين**"[5]، وهو القائل عليه السلام: "إن مثل

---

[1] سورة المجادلة —الآية 11

[2] سورة الروم —الآية 55

[3] كما في سنن ابن ماجة.

[4] سورة التوبة —الآية 123

[5] انظر شرح الجامع الصغير للمناوي.

علم لا ينفع كمثل كنز لا ينفق في سبيل الله"[1]، والقائل كذلك: "**لا تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً**"[2] و "**أعوذ بالله من علمٍ لا ينفع**"[3]. ثم إنه علم لا يتوقف عن النمو والزيادة: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[4]، ﴿وقل ربي زدني علما﴾[5]. والعلم الإسلامي بعد هذا مرتبط بالضمير الحي اليقظ القائم على خشية الله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[6].

ثاني الشروط الثلاثة:

الحرية، أقصد حرية الفكر وحرية التعبير، في إطار الانضباط والقانون، وفي إطار حريات الآخرين كذلك. فإن هذه الحرية هي التي تجعل المفكرين، باعتبارهم مركز قوى لها وزنها، يتحركون في النور ويتنفسون الهواء الطلق. وهي التي تتيح لهم الدعوة إلى الخير وقول كلمة الحق، دون تردد أو خوف أو مماراة أو تقية، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾[7].

وهو القائل عز وجل: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾[8].

---

[1] انظره في مسند الإمام أحمد بن حنبل.

[2] كما عند الدارمي.

[3] ورد في الموطأ وأبي داوود والنسائي وابن ماجة وابن حنبل.

[4] سورة الإسراء –الآية 85.

[5] سورة طه –الآية 114.

[6] سورة فاطر –الآية 28.

[7] سورة البقرة –الآية 42.

[8] نفس السورة –الآية 158.

والقائل كذلك: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبيس ما يشترون﴾[1].

وكيف والساكت عن الحق –كما يُروى– شيطان أخرس ؛ وقد قال عليه السلام: "**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار**"[2]؛ ورحم الله ابن حنبل، فقد رد على بعض الذين زاروه في سجنه وطلبوا منه أن يقول بخلق القرآن تقية: "إذا أجاب العالم تقية والجاهل بجهل فمتى يتبين الحق؟".

وإن هذه الحرية هي التي تجعل التقدير والثقة متبادلين بين أفراد الأمة، حاكمين ومحكومين، عالمين ومتعلمين، نخبة وجماهير، حتى لا يتفشى ما يمكن أن نسميه بالاغتراب السياسي الذي يتجلى في اللامبالاة حينا، أو في النقد الساخر الخفي المقنَّع حينا آخر، أو في الصمت حينا ثالثا، وشر الصمت ما كان عن غضب في القلب. وهي كلها مواقف غالباً ما تفجر ردود فعل عشوائية، كثيرا ما تكون عواقبها غير حميدة.

ثم إن هذه الحرية هي التي تبعث على الإحساس بتحمل المسؤولية، وتحث على المشاركة في حمل العبء بعزة وكرامة: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمومنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[3].

---

[1] سورة آل عمران –الآية 187.

[2] وارد في ابن ماجة وأبي داوود والترمذي وابن حنبل.

[3] سورة المنافقون –الآية 8.

وإن الحرية بعد هذا هي سبيل تطبيق المنهج الإسلامي، ذلك المنهج الذي يحتاج إلى قَوَّامين، لا يشترط فيهم إلا أن يكونوا من العلماء القادرين المخلصين الأكفاء الغيورين والأمناء.

أما الشرط الثالث:

ويرتبط ارتباطا وثيقاً بالشرطين السابقين: فهو الاجتهاد، وكان ممكنا إدماجه في البحث العلمي، لولا أنا قصدنا إلى فصله لإبرازه والتركيز عليه. ونراه من زاويتين:

الأولى: نثير فيها الاجتهاد بمعناه الأصولي، أي بذل الجهد في نطاق أصول العقيدة والأحكام الشرعية الكبرى المتعلقة بهذه الأصول، واقتداءً بالنصوص الصريحة والصحيحة لفهم النصوص الظنية التي تحتمل التأويل، واحتكاماً إلى الرأي والعقل، مع مراعاة المصالح والحاجات الملحة الضرورية، ومراعاة تطلعات المسلمين في حياتهم المستقبلية.

وليس يخفى أن الرسول (ص) كان يجتهد ويحث على الاجتهاد كلما اقتضت الضرورة ذلك. وهذه خطة أقرها عليه السلام من خلال مواقف كثيرة، كموقفه المشهور مع معاذ بن جبل، حين أرسله قاضيا إلى اليمن، فقد قال له: "بم تقضي؟" قال: بكتاب الله. قال الرسول: "فإن لم تجد؟" قال: بسنة رسول الله. قال: "فإن لم تجد؟" قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فردَّ الرسول (ص): "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله".

ويمكننا أن نفسر الرأي هنا بالقياس كما فهمه الأصوليون، أي إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه، لاشتراكهما في العلة. ويمكننا أن نفسره كذلك بأنه استصدار حكم بما يتفق مع المصلحة، ولو لم يكن هناك نص، سواء مع وجود القياس أو عدمه ؛

وهو ما يعرف بالاستحسان، وقد اعتمده كثير من الأئمة، بل إن مالكاً كان يقول: "الاستحسان تسعة أعشار العلم".

ثم إنه مهما كانت مكانة النص، فإن تفسيره في نطاق واقع تاريخي محدد وفي ظل نظم اجتماعية معينة، لا يعطي دائما صلاحية تعميم هذا التفسير. ونحن حين نفعل ذلك نحكم على النص وعلى العقل معاً بالتحجر والجمود والشلل. وإن الاجتهاد في هذا المجال هو الذي يثبت صلاحية شريعة القرآن لكل زمان ومكان، لأن الشريعة قائمة على العدل ومراعاة المصالح، ولأنه لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان. على أن مثل هذا الاجتهاد ينبغي أن يقوم به العلماء المؤهلون، وليس كل من سولت لفه نفسه ذلك: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾[1].

الزاوية الثانية للاجتهاد: تتعلق بتقديم قراءة جديدة داخلية لأصول الفكر الإسلامي، تبتعد عن النقل والترديد والتقليد، وتعتمد العقل والرأي والنقد، بحثاً عن حقائق الأشياء، وسعيا للوصول إلى الجوهر والعمق، وتصفية لهذا الفكر من كل الشوائب التي علقت به خلال التاريخ، ليكون مقنعا للعقل العلمي المعاصر، وليكون عمليا نافعا تتجانس فيه واقعية العصر ومثالية الإسلام ؛ وليكون كذلك مرهصا وطليعيا يبشر بأبعاد المستقبل ويخطط لها، ثم ليكون فاعلاً في الوجدان البشري ؛ وليكون بعد هذا قادرا على أن يحفظ للمسلمين وحدتهم العقدية والفكرية، وعلى أن يجعلهم في مستوى مواجهة كل التحديات لإحباطها والتغلب عليها ؛ وليكون في النهاية صالحاً ليظل كل المجتمعات البشرية، انطلاقا من إنسية جديدة تتميز بالأصالة المستمدة من إيجابيات الماضي، وبتفتح على المستقبل يتسم

---

[1] سورة المومنون –الآية 72.

بالوعي والمرونة والقدرة على استيعاب كل ما يغنيه من الفكر الإنساني. ونعتقد أن هذه القراءة الجديدة هي التي ستجعلنا نستعيد خيط الأصالة الحق بعد أن ضاع منا أو كاد.

*** *** ***

وحتى يكون الفكر الإسلامي الجديد فعالا، أي قادرا على الإقناع والمواجهة، ينبغي أن يلتزم به المسلمون في وحدة وتنظيم، وأن يتعبأوا له في ثقة به ووفاء له وضمير حي، وفيما عبرتم عنه بالالتحامية في خطابكم الأخير[1]. وإن هذه الالتحامية هي التي ستتيح له أن يتبلور ويتحقق، في تخطيط محكم قابل للتنفيذ، فلا يبقى فكرا تجريديا أو مجرد نظرية معرضة للتحريف والإجهاض.

ويعتبر التعليم نقطة البدء في هذا التخطيط الفكري، باعتباره أنجع وسيلة لإحداث التطوير، وبث المفاهيم وترسيخها، والانطلاق منها لاستفزاز شعور النضال وحاسة المبادرة، وللإرهاص بالتغيير والتخطيط له وتنفيذه على جميع الأصعدة والمستويات.

ولأهمية التعليم وضخامة مشكله، فقد قررتم —يا مولاي— أن تطرحوا قضيته للمراجعة. وإن أذنتم لي بكلمة في ختام هذا العرض، فإني أقول إن مراجعة هذه القضية تقتضي أمرين اثنين:

أولهما:

تخطيط التعليم في اتجاه العلم والتقنية، وعلى مستويات مختلفة، مع الإلحاح على التكوين المهني المتوسط، والإلحاح في نفس الوقت على تعميق التخصص العالي في مختلف الشعب العلمية.

---

[1] في عاشر يوليوز 1982 بمناسبة عيد الشباب.

أما الأمر الثاني:

فيتعلق بالتعليم العام وننظر إليه في اتجاهات ثلاثة:

1- الاتجاه الأول: تلقين المادة الدينية بمناهج غير جافة ولا منفرة.

2- الاتجاه الثاني: تعميق الدراسات التخصصية الإنسانية والإسلامية وتوسيع مجالاتها المختلفة.

3- الاتجاه الثالث: أن يكون التعليم كله إسلاميا، أعني بروحه ورؤيته.

وهذا يقتضي أن توضع له فلسفة تكون متحررة من كل المبادئ التي سطرتها سياسة الاستعمار التي تهدف إلى تدمير المسلمين من الداخل. ومن ثم فإن هذه الفلسفة لا بد أن تكون مستخلصة من عناصر القوة في تراثنا التربوي الإسلامي، ومن التجارب الصالحة في الأنظمة العالمية المعاصرة.

ما هو المطلوب في هذه الفلسفة؟

المطلوب في هذه الفلسفة أن تحدد الغايات والمبادئ الأساسية التي يمكن أن تشكل هوية المسلمين وتبرز ذاتيتهم وكيانهم.

وينبغي أن تنطلق من الإيمان بالله لتحرك الحافز الفطري، وتحث الوازع الروحي، وتوعي بحقيقة وجود الإنسان ومكانته في الكون، باعتباره مكرماً: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾[1]، وباعتباره مسؤولاً وصاحب رسالة، أي باعتباره مستخلفا لله في الأرض، صالحا لهذا الاستخلاف وقادرا عليه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾[2].

---

[1] سورة الإسراء –الآية 70

[2] سورة الأحزاب –الآية 72

ولن يتسنى ذلك إذا لم تكن الفلسفة التعليمية قادرة على تفجير طاقات الإنسان، ليستفيد منها في صنع عقله وروحه وجسمه، وفي تكامل يجعله ينمي جميع قدراته ويوظفها في طريق الخير والصلاح.

وإن من شأن هذه الفلسفة أن تجعل المتعلم ينشأ مرتبطا بأرضه ومجتمعه وأمته، معتزا بمبادئه ومقدساته، قادرا على التعايش والتساكن والانضباط داخل نظام موحد. وهو في ارتباطه هذا لا يعيش منعزلا عن العالم، ولكن منسجما ومتجاوبا معه، بل قدوة له ونموذجا عن طريق تحقيق التفوق العلمي القائم على الإبداع والبحث والإنتاج، وتحقيق التفوق السلوكي القائم على الأخلاق الإسلامية، وهي أخلاق الرجولة بكل ما في الرجولة من مروءة وفضيلة.

في ضوء هذه الفلسفة، توضع برامج التعليم وأساليب تنفيذ هذه البرامج. وفي ضوئها كذلك ترسم السياسة الثقافية المسؤولة عن التوجيه والتوعية والتعبئة، والمسؤولة كذلك عن تحريك حوافز الإبداع والإنتاج، على أن توضع لكل ذلك مخططات تتفق وإمكانات الأمة وتطلعاتها ووفق مقتضيات الواقع ومتطلبات التنمية العامة.

*** *** ***

وبعد، فهذا هو الفكر الذي نريد، إنه فكر إسلامي جديد يتجاوز الشرق كما يتجاوز الغرب، ويلتزم بالوسطية التي طالما ألححتم عليها يا مولاي، والتي نربط مفهومها بالصراط المستقيم الذي لا يعوج ولا يميل ولا ينحرف ولا ينحاز.

ومن الحق أن نعترف بأنه ليس سهلاً إنشاء مثل هذا الفكر ولا التخطيط له، ولكنكم أنتم يا صاحب الجلالة، بعلمكم وعملكم، وبعبقريتكم

وذكائكم، وباجتهادكم وإبداعكم، قادرون على اتخاذ مبادرة شجاعة وإيجابية في هذا المجال، ومدعوون لإيجاد الصيغة المناسبة لذلك.

وإن الرسالة السامية التي وجهتم إلى المواطنين، وإلى أبناء الأمة الإسلامية في مستهل هذا العام عند مطلع القرن، لتعتبر بحق ورقة عمل لخير انطلاق في هذا المضمار.

فلتسيروا على بركة الله بهدي من إيمانكم، وثقة الأمة فيكم، تحذوكم عناية الرحمن وروح مسيرة القرآن، مستنيرين بقول الله عز وجل في سورة الزخرف، يدعو الرسول عليه السلام إلى التمسك بالقرآن، ويطمئنه بأنه هو الحق المفضي إلى الصراط المستقيم، ويذكره بالمسؤولية التي يلقيها عليه وعلى المسلمين: ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك، إنك على صراطٍ مستقيم، وإنه لذكرٌ لك ولقومك، وسوف تسألون﴾.

وفقكم الله وسدد خطاكم، وأبقاكم ذخرا للأمة ورمزا للوحدة وقائدا للمسيرة، وحفظكم في شعبكم وأسرتكم وأصحاب السمو الأمراء والأميرات، وأقر عينكم بولي عهدكم الأمير المحبوب سيدي محمد أمل المستقبل الباسم ورمز الغد المنشود.

والختم والدعاء من مولانا أمير المومنين. والسلام على مقامكم الكريم.

أسباب انتشار المذهب المالكي
في المغرب

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف: **"يوشك أن يضرب النـاس أكباد الإبـل في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينـة".**

(وارد في صحيح الترمذي ومسند أحمد برواية عن أبي هريرة)

ألقيت بقصر الرياض في الرباط

بعد عصر الخميس 9 رمضان المعظم 1405هـ

الموافق 30 مايو 1985م

لسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

اللهم أكرمني بنور العلم والفهم، وثبتني على الصدق والحق، وبارك لي فيما قدرت ويسرت، لا علم إلا منك، ولا حول ولا قوة إلا بك.

سيدي صاحب الجلالة،

مرة أخرى تشرفونني وتسعدونني بدعوتكم الكريمة لي أن أشارك في دروس مجلسكم العلمي الموقر، هذا المجلس المشع بقبس مما أوتيتم من علم وحكمة، وورع وتقوى وإيمان ويقين. وإنه ليعد معلمة، بل إحدى معلمات عهدكم الزهي الزاهر، المتسم بالبناء المستمر والجهاد المتواصل، والمطبوع بأصالة الفكر وتفتح الرأي وحرية التعبير، والمتميز بما تخصون به العلماء ورجال الفكر من تكريم وتقدير، ورعاية عز لها نظير.

مولاي،

في غمرة المشاعر المنبعثة من هذا المجلس المشرق بطلعتكم البهية المهيبة، أرجو أن تأذنوا لي بالتحدث في الموضوع الذي دعوتم إليه أول أمس[1]، لعل الله أن يفتح بصيرتي له، فلا يخيب مسعاي بين يدي مقامكم

[1] في الكلمة السامية التي ألقاها جلالة الملك نصره الله، إثر درس الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يوم 7 رمضان 1405هـ الموافق 28 ماي 1985م.

الكريم في أن أحظى برضاكم الغالي، وما يتيح لي هذا الرضى من أجر عند الله يكون بقدر ما أصادف من صواب، صواب أستوحيه من عبقريتكم الفذة وعلمكم الغزير ورأيكم السديد.

الموضوع هو: **"أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب"** وسأتناوله من خلال قسمين اثنين، مع تمهيد توضيحي أقدم به.

ذلكم أن إجماع المغاربة على المذهب المالكي وتوحدهم في ظله يعتبر ظاهرة متميزة في الفكر المغربي، إن لم تكن أهم وأبرز ظاهرة في هذا الفكر، بسبب رسوخها واستمرارها والأبعاد المختلفة والمتعددة الناتجة عنها.

وهي ظاهرة تمثل اختياراً بكل ما في كلمة الاختيار من معنى، أي أن أخذ المغاربة بالمذهب ليس من قبيل المصادفة، كما أنه ليس من قبيل القسر والقهر والفرض والتعسف ؛ ثم إنه ليس من قبيل الحدث الطارئ العابر.

ونعتقد أن وجود هذه الظاهرة —ظاهرة الوحدة— ينسجم مع نزوع المغاربة إلى التوحد، وهو نزوع ناتج عن طبيعتهم الميالة إلى الاتصال والالتقاء، وإلى التجمع والانصهار والاندماج، والميالة بسبب ذلك إلى الاستقرار في جميع مفاهيمه وأبعاده، وفي طليعتها الاستقرار السياسي والفكري.

هذا الاختيار هو في حقيقته حلقة في عملية اختيار أوسع وأكبر ؛ وقد تمت هذه العملية على مرحلتين:

تتمثل إحداهما في اختيار الخط السني، أي في اختيار المغاربة أن يكونوا على رأي أهل السنة والجماعة، أولئك الذين اهتدوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسلكوا طريق الصحابة والتابعين وعلماء السلف وإجماع الأمة، بتلقائية، وفي اعتدال يذيب كل خارج عن الخط، بل يلفظه ويرفضه مهما كانت وسائله وإمكاناته.

أما الحلقة الأخرى في هذه العملية –وهي الأولى والأساس– فاختيار الإسلام الذي اعتنقه المغاربة واختاروه عن اقتناع لم يكن بالأمر السهل، على حد ما يثبت أو تثبت أحداث الفتح الإسلامي للمغرب. وربما كان من دواعي هذا الاقتناع بالإسلام، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة، أن المغاربة وجدوا فيه الحل لمشكل عقدي مزمن، وهو مشكل كانوا يعانونه منذ الديانات الأولى التي عرفوها في المراحل البدائية وما شاع فيها من معتقدات.

هذا المشكل أو هذا الموقف العقدي يتمثل عند المغاربة في النظرة للكون، وفي تصورهم للخالق والمصير وقضايا الغيب ومشكلات الماوراء. والمغاربة في هذه النظرة ميالون إلى تقريب المجرد من المحسوس، في نزوع إلى القلق الممزوج بحب الاطلاع والطمع في الحلول ؛ ولكن في نفس الوقت مع رغبة في الثقة والاطمئنان. إذن هناك سلسلة من الاختيارات بدأت بالإسلام واكتملت بالمذهب.

أما أسباب اختيار هذا المذهب، فنستطيع في ضوء ملاحظتكم التوجيهية القيمة[1]، أن نطرحها من زاويتين اثنتين: أولاهما أسباب وعوامل داخلية مرتبطة بذات المغاربة، وفي ارتباط وتفاعل بين هذه الذات وطبيعة المذهب؛ وسأمر على هذه الأسباب بسرعة. والثانية تتمثل فيها أسباب وعوامل خارجية ذات صبغة تاريخية سياسية.

حين ننظر في الأسباب والعوامل الداخلية نجدها تنسجم مع الكيان الذهني المغربي المرتكز على قيم ومقومات من شأنها أن تكون أكثر انتشاراً بين المغاربة، وأقواها إلحاما بينهم؛ وبذلك تكون أقدر على إبراز خصوصياتهم المميزة لهم. ونستطيع أن نذكر من هذه المقومات مجموعة من

---

[1] الواردة في الكلمة الملكية السامية المشار إليها آنفا.

الضوابط تتحكم في الفعل وتنظمه وتتدخل في التفاعل والانفعال، ويغلب عليها الميل إلى الاعتدال والنزوع إلى العمل أكثر من القول، وكذلك يغلب عليها التعامل مع الأشياء لتطويعها والسيطرة عليها أكثر من التعبير عنها أو الوقوف أمامها للتأمل والوصف والتحليل. ويمكن أن نذكر في هذا المحور خمسة أسباب:

أولا: مكانة الإمام مالك العلمية، وانتماءه للمدينة المنورة، وهي مركز الإسلام، وعاصمة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم، ومدينة الصحابة. وللمغاربة نظرة تقدير وإعجاب نابعة من حب الرسول صلوات اللّه عليه، والتعلق به وبآله وأصحابه والتابعين ومن إليهم من علماء السلف، وكذا تشوفهم الدائم وتشوقهم للبقاع المقدسة. وزاد هذا السبب قوة أن الإمام مالكاً وهو يضع موطاه —ومن خلاله مذهبه— كان ينطلق من السنة ويبني عليها، ومعها يعتمد عمل أهل المدينة باعتبارهم أدرى الناس بالسنة وأقربهم إليها. وكيف وهي —أي المدينة— تعتبر المنبع الذي استقت منه جميع الأقاليم والأقطار. فهي لذلك الأصل الذي لا ينازع أحد فيه، والذي هو أجدر بالإتباع.

السبب الثاني: الأمانة العلمية التي كان عليها الإمام مالك، والتي تجلت عنده في الضبط والتدقيق لدا اختيار أحاديث موطاه، في اعتماد على السند الصحيح والحسن ؛ هذه الأمانة التي أكسبت الإمام مالكاً ثقة بلغت عنده حداً يجعله يعترف بعدم المعرفة حين لا يهتدي إلى جواب ويقول "لا أدري". بل إن قوما جاءوه أكثر من مرة من المغرب وسألوه في قضايا، فقال لهم: لا أدري هذه المسائل لم نتعرض لها ولم تعترضنا. يقولون: كيف؟ جئنا من أقصى المغرب ثم تقول لنا لا أدري؟ يجيبهم: اذهبوا وعودوا إلى من أرسلكم وقولوا له إنه لا علم لمالك بهذه المسائل.

هذه صفة تلتقي مع ما جبل عليه المغاربة من ضبط وإحكام ونقد قد يكون لاذعاً في بعض الأحيان، وتلتقي كذلك مع ما عرفوا به من تحرز وتورع، سواء في جانب العمل أو في جانب السلوك، مع التقرب إلى الله والخشية منه.

ثالث هذه الأسباب الداخلية دائما: طبيعة المذهب. فهو لا يعتمد على الرأي والقياس بقدر ما يعتمد على الأثر والرواية؛ وهو في هذا يوافق مزاج المغاربة، هذا المزاج الميال إلى اليسر والوضوح، والنافر من الغموض والإبهام، ومن التعقيد والتأويل. ثم إن المذهب في كل هذا يتسم بالاعتدال والتوسط. وللمغاربة في هذا الاتجاه، أو للمغاربة في ذلك اتجاه واضح، سواء في مجال العبادات، أو في مجال العقيدة، أو في غير هذا وذاك من المجالات. يمكن —إذا أذنتم— أن نمثل بموقفهم في قضية من قضايا العقيدة كقضية الصفات مثلا، فهو وسط بين التجسيم الغليظ الذي يقول به المشبهة، وبين التنزيه الذي يقول به المعتزلة. وهم في ذلك يعتمدون هذه الصفات وينظرون إليها من خلال ما ورد حولها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويفهمونها في مدلولها الواضح البعيد عن التأويل، خوفا من أن يجنح بهم إلى التحريف.

يمكن أن نلخص هذا الموقف في قضية الاستواء. ولعلنا لن نستغرب إذا وجدناهم فيها على رأي الإمام مالك ؛ فقد جاءه رجل مرة وسأله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى يا أبا عبد الله؟ أجاب الإمام مالك: "الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة".

ولعلنا من هذا السبب المتمثل في الاتفاق بين طبيعة المذهب ومزاج المغاربة نفهم قول ابن خلدون[1] حين تحدث عن انتشار المذهب في الأندلس والمغرب، فعزاه إلى طبيعة البداوة التي تجمع الأندلسيين والمغاربة وأهل الحجاز، باعتبار أن هذه الطبيعة هي التي جعلتهم يقتربون من المذهب ويأخذون به ولا يتعدونه إلى سواه.

والحقيقة أن هذا رأي لا ينبغي أن نأخذه كما هو، لأن مصطلح البداوة لا يمكن أن ينصرف على الأندلسيين والمغاربة وهم أهل حضارة؛ ولكن إذا نحن فهمناه في هذا الاتجاه، أي المزاج الذي يميل إلى اليسر وإلى الوضوح، ونقول إلى السهولة وإلى البساطة، فإننا يمكن أن نقبل رأي ابن خلدون في هذا الصدد.

على أن ميل المغاربة إلى اليسر وإلى الوضوح لا يعني عدم التعمق في النصوص كما قد يفهم، ولو كان يعنيه لأخذوا بالمذهب الظاهري على الرغم من تأخره.

أما **السبب الرابع من هذه الأسباب الداخلية** فيتجلى في نضالية المذهب، وفي التحام فقهائه مع الجماهير وبقضايا الوطن والأمة والمسلمين. وللمغاربة في الإمام مالك خير نموذج. وسنرى بعد قليل –إن سمحتم– موقفه السياسي ومحنته؛ دون أن ننسى حب المغاربة الشديد–وبطبيعتهم– للحرية، ودون أن ننسى كذلك رفضهم للخضوع والاستسلام للغزاة والمعتدين.

ولعلنا في غنى عن استعراض مواقف العلماء المغاربة في هذا المجال، بدءاً من مواقف فقهاء المرابطين الذين تجندوا للجهاد ونشروا كلمة الإسلام في

[1] انظره في المقدمة –ص 440 (ط. الأميرية).

الشمال والجنوب، إلى مواقف فقهائنا الذين تطوعوا مع طلبتهم وتلاميذهم وتقدموا صفوف المجاهدين في معركة وادي المخازن، إلى مواقف علمائنا وفقهائنا الذين ابتلوا وامتحنوا في التحامهم مع العرش والشعب في معركة التحرير. ذلكم أن نظرة المغاربة الشمولية للإسلام جعلتهم يطبقون الشريعة في عباداتهم ومعاملاتهم، وفي خططهم الاجتماعية ونظمهم السياسية، ولكن كذلك يسعون إلى رفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الله بالجهاد.

وأما **السبب الخامس والأخير** في هذا المحور الأول فهو تجدد المذهب باستمرار، ذلكم التجدد النابع من أصول المذهب نفسه، وخاصة ما يتعلق بالذرائع والمصالح المرسلة وما تعطيه من مرونة وقابلية للتكيف مع أية بيئة وفي أي عصر، مما يساعد على حل مختلف القضايا والنوازل الطارئة؛ وقد مرَّ الحديث عنها في درس سابق[1].

والمذهب في هذا يتفق مع طبيعة الذهنية المغربية، هذه الذهنية التي هي مستعدة باعتدالها إلى تجديد أمر الدين حتى يستمر وتستمر الرسالة، لأن المتطرف في الدين لا يمكن أن ينهض بهذا العمل، كما لا يمكن أن ينهض من لا يلتزم به.

ولسنا في حاجة إلى الكشف عن تطلع المغاربة الدائم للجديد، ولكن في ارتباط بالقديم والمحافظة عليه، مما نلاحظه حتى في ممارساتنا الاجتماعية اليومية.

لو شئت أن أشير إلى بعض الذين جددوا أمر الدين كنماذج يمكن تقديمها في هذا الصدد، لوجدت أسماء كثيرة. يكفي أن نذكر مثلا من

---

[1] هو الدرس الذي أشير إليه قبل، والذي ألقاه وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري في موضوع (أصول المذهب المالكي).

السلاطين العلماء سيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان وما كان لهما من تجديد.

يمكن أن نذكر من الفقهاء المجددين أحد علماء الصحراء وهو محمد بَغْيُع الذي كان يعتبر مجدد القرن العاشر، وفيه قال أحمد بابا السوداني:

وعاشر القرون فيه قد أتى *-* محمد إمامنا وهو الفتى

كذلك يمكن أن نذكر من الفقهاء والعلماء الذين جددوا في مئات تالية الشيخ التاودي بن سودة ومحمد بن المدني جنون وأبا إسحق التادلي وآخرين كثيرين. بل إننا إذا نظرنا إلى التجديد كما يفهمه المغاربة وكما طبقوه، فإننا نستطيع أن نستعرض لائحة طويلة، بدءاً من يوسف بن تاشفين إلى جلالة المغفور له محمد الخامس بطل التحرير. أما تجديد مولانا أمير المومنين فهو أوسع من أن يحدد أو تحد جوانبه وأوضح من أن يشار إليه أو يذكر.

بعد هذا أنتقل يا مولاي للقسم الثاني من هذه الأسباب، ويتضمن العوامل التاريخية والسياسية، وهي كذلك خمسة:

أولها: رحلة المغاربة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم. وقد ألح ابن خلدون[1] على هذا العنصر وهو يتحدث عن ظاهرة انتشار المذهب في الأندلس والمغرب، فعنده أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس دون سواه وقلدوه دون غيره.

[1] انظر في ذلك (المقدمة) —ص 440

هذا صحيح ولكن إلى حد، لأن الرحلة كانت غالبا إلى الحجاز وإلى المدينة وإلى فقه الإمام مالك ؛ ولكن المغاربة أيضا رحلوا إلى بلاد أخرى وخاصة إلى العراق. والتاريخ يحدثنا عن الروابط الفكرية والمذهبية التي كانت لهم مع العراقيين، سواء على صعيد المذهب الخارجي أو على صعيد مذهب أبي حنيفة. ولهذا نحن لا نرى اعتبار قول ابن خلدون بهذا القطع وبهذا الجزم، أي أن المغاربة أخذوا بالمذهب لأن غاية رحلتهم كانت إلى الحجاز فقط.

ولعل المغاربة في هذا –أي في سعيهم إلى الرحلة للمدينة وأخذ العلم منها– لعلهم كانوا يستحضرون هذا الحديث النبوي الشريف الذي ندير الدرس عليه: **"يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة"**.

وتجدر الإشارة إلى أن الرحلة –أي رحلة الفقهاء المغاربة للمدينة ومقابلة الإمام مالك– رحلة قديمة، ونشير منها إلى رحلة أحد علماء سجلماسة كان أخذ مباشرة عن الإمام مالك وعاد إلى بلده يفقه الناس بما أخذه. أما العلماء الذين ذهبوا بعد ذلك سواء لمقابلة الإمام مالك أو لمقابلة تلاميذه فهم عديدون وأكثر من أن نذكرهم أو نشير إليهم الآن.

ثاني هذه الأسباب: يتمثل في تبادل الوفود والبعثات بين المراكز الثلاثة المهمة في مجال العلم والحضارة بالغرب الإسلامي، أقصد في الأندلس والمغرب وتونس، وبصفة خاصة في قرطبة وفاس والقيروان. هذا التبادل سار في اتجاهين اثنين:

الأول من المغرب إلى الأندلس والقيروان، وقد يتعداهما وتعداهما بالفعل إلى بلاد أخرى. وعندنا أسماء كثير من العلماء الذين قاموا بتنشيط

هذا التبادل ؛ يكفي أن نشير إلى بعض من يمثل هذا الاتجاه في مرحلة مبكرة كدراس بن إسماعيل وأبي جيدة اليزناسي وعبد الرحيم الكتامي المعروف بابن العجوز.

الاتجاه الآخر في التبادل تم من الأندلس والقيروان إلى المغرب. هنا نذكر نموذجين اثنين لأهميتهما: أولهما من القيروان سنة تسع وثمانين ومائة، حين جاء إلى فاس نحو ثلاثمائة أهل بيت وأقاموا في العدوة التي تعرف لحد اليوم باسمهم، وهي عدوة القرويين ؛ وكان فيهم كثير من الفقهاء ومن فقهاء المالكية. ثانيهما من الأندلس، ويحدثنا التاريخ عن وفد مهم وضخم كان يتكون من أربعة آلاف أهل بيت، جاء إلى فاس على إثر ثورة الربض في عهد الحكم بن هشام سنة اثنتين ومائتين، وكان فيه الفقهاء، بل كان كله من الفقهاء، لأن الفقهاء كان لهم موقف من الحكم الذي اضطر إلى مقاتلتهم، مما جعلهم يهاجرون ؛ وكان فيهم أمثال يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطا. هاجر هؤلاء الفقهاء إلى أماكن متفرقة، إلى الإسكندرية والقيروان، ولكن معظمهم جاءوا إلى فاس وأقاموا في العدوة التي لا تزال تعرف لحد الآن باسمهم، وهي عدوة الأندلس. ولعلنا هنا أن ننوه بجهود بعض العلماء في ترسيخ المذهب بما كتبوا أو جمعوا، على حد ما فعل سحنون في مدونته، مما كان له أثر حميد في هذا المجال.

العامل الثالث في هذا المحور التاريخي السياسي —وهو مهم— فيكمن في توقيت الاختيار، توقيت اختيار المغاربة للمذهب المالكي. ذلكم أننا يا مولاي في فترة تاريخية هي النصف الأخير من القرن الثاني الهجري. المغرب يومئذ يعيش مخاض هذا الاختيار، ويعيشه وسط خضم من المذاهب والتيارات والفرق الإسلامية، سواء على صعيد السياسة أو العقيدة أو الفقه،

وكان بعضها يتسم بالغلو والمبالغة. فهناك من جهة وجود الخوارج، هؤلاء الخوارج الذين رحب بهم المغاربة حين هزموا في المشرق واستقروا في مراكز مختلفة من المغرب، في مدينة طنجة التي سوف يظهر فيها زعيم كبير من زعماء الخوارج الصفرية هو ميسرة المدغري الذي سيقوم من المغرب بحملة ضد الدولة المركزية في المشرق. وسوف يتقوى الخوارج ويكون لهم نفوذ في سجلماسة التي أسست فيها إمارة على رأي الصفرية كذلك، وهي إمارة بني مدرار. ومن سجلماسة التي يبدو أنها كانت مركزاً مهما للخوارج سيذهب إلى طرابلس أبو الخطاب المعافري الذي كانت له الرياسة في طرابلس بليبيا، وسوف يطارده العباسيون إلى أن يرحل إلى القيروان ؛ وهو الذي شجع عبد الرحمن بن رستم على تأسيس الدولة الإباضية في المغرب الأوسط أي في الجزائر وفي مدينة تاهرت، لا سيما بعد أن انتهت زعامة الخوارج في طرابلس.

ثم هناك الاعتزال، هذا الاعتزال الذي يقول لنا التاريخ إن قبيلة أوربة التي آوت المولى إدريس كانت على رأيه. ويحدثنا التاريخ كذلك عن جماعة تسمى الواصلية –نسبة إلى واصل بن عطاء— كانت موجودة في المغرب.

وهناك بعد هذا مذهب أبي حنيفة في الفقه. فالمغاربة كانوا أول الأمر على مذهب السنن، ثم تحولوا إلى مذهب أبي حنيفة كما يقول عياض في ترتيب المدارك. وفي هذه الفترة نحن لا نستبعد أن يكون أيضا لمذهب الأوزاعي بعض التأثير بسبب العلاقة التي كانت مع الأندلس، وبحكم أن مذهب الأوزاعي هو مذهب أهل الشام، وبحكم أموية الأندلس كما هو غير خاف.

في هذا الظرف، نعني هذا الظرف الذي كان فيه المغرب يعيش مخاضاً، ووسط تلك التيارات المتعددة والمتضاربة، يفد المولى إدريس. يفد

فيرحب به المغاربة ويبايعونه ويتم الاختيار. والسبب؟ السبب أن المولى إدريس من آل البيت، ومن آل البيت المضطهدين ؛ والمغاربة معروف حبهم الشديد وتقديسهم لآل الرسول صلوات الله عليه.

في قدوم المولى إدريس إلى المغرب نقرأ روايتين اثنتين: **الأولى** —وهي الشائعة— تقول إن المولى إدريس جاء على إثر وقعة فخ في عهد الخليفة الهادي سنة تسع وستين ومائة، وما كان في هذه الوقعة من هزيمة على يد العباسيين. ولكن هناك **رواية أخرى**، وهي لا تخلو من مغزى، تقول إن المولى إدريس جاء قبل هذا التاريخ بنحو عشر سنوات، موفداً من قبل أخيه محمد بن عبد الله الذي يعرف بالنفس الزكية والذي كانت له مواجهات مع المنصور العباسي. إذن جاء المولى إدريس —حسب هذه الرواية— في مهمة لا نعرف عنها للأسف أي شيء.

هنا يطرح سؤال: الأدارسة من آل البيت، ومن الشيعة المناضلين وإن في زيدية معتدلة، والمغاربة يحبون آل الرسول ويقدسونهم ؛ لماذا لم يتشيع المغاربة في هذا العهد؟ ولماذا لم ينتشر التشيع كمذهب وليس كعاطفة؟ كعاطفة هو موجود باستمرار ودون انقطاع، ولكن لماذا لم ينتشر التشيع كمذهب؟

هذه قضية كبرى وسنحاول الإجابة عليها بما يتيسر. المغاربة على ما يبدو من خلال تعاملهم مع المذاهب يميزون بين ما هو تعاطف سياسي وما هو التزام فكري وديني يتبلور في التطبيق، فهم قد استقبلوا أول الأمر الخوارج ورحبوا بهم حين هزموا في المشرق، وهم يستقبلون آل البيت كما استقبلوا ويستقبلون غيرهم، ولكن من غير أن يتبلور ذلك في انتماء فكري وتطبيقي. ونعتقد أن المولى إدريس أدرك هذا الأمر جيدا، أي أدرك حقيقة التوجه الفكري المغربي ؛ ولهذا لم يحاول إثارة قضية التشيع في المغرب.

وهذا واضح من الرسالة التي خاطب بها المغاربة. إذا أذنتم أقرأ فقرة من هذه الرسالة ؛ يقول وهو يخاطب المغاربة: "... أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم، وإحياء السنة وإماتة البدعة وإنفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد ...". ويقول في فقرة أخرى: "... فعسى أن تكونوا معاشر إخواننا من البربر اليد الحاصدة للظلم والجور وأنصار الكتاب والسنة القائمين بحق المظلومين من ذرية النبيئين ..."[1].

هذه الرسالة تفوح بروح الكتاب والسنة، ولا تشم منها أية رائحة يمكن أن يفهم منها أن المولى إدريس كان يريد أن يوحي أو يثير أو يفرض هذا التشيع. وربما كان يهم المولى إدريس وهو في معركة ضد العباسيين، ومعه أسرته، كان يكفيه أن يقوي نفسه وأن يجد له مكاناً يستقر فيه وينطلق منه. ويبدو أن العباسيين أدركوا ذلك، ولهذا ما كاد يستقر في المغرب حتى طاردوه، وأرسلوا له من قتله بالسم كما هو معروف في التاريخ.

ثم إن هناك تعاطفا بين الأدارسة والإمام مالك. وهو تعاطف له مظهران اثنين: **الأول** يتمثل في أن الإمام مالكاً يروي في موطاه عن عبد الله الكامل والد المولى إدريس. **الثاني** —أي المظهر الثاني لهذا التعاطف— يتجلى في أن الإمام مالكاً كان له موقف من العباسيين ؛ وقد أشرتم يا مولاي إلى ذلك في ملاحظاتكم القيمة[2]. هذا الموقف كان لصالح أخ المولى إدريس المسمى محمدا والمعروف بالنفس الزكية. ولهذا بمجرد ظهور هذا الأخير، أعلن الإمام مالك بطلان بيعة أبي جعفر. لماذا؟ لأنها كانت على

[1] انظر نص الرسالة في (الوثائق) —المجلد 1 ص: 40–43 (المطبعة الملكية — الرباط).

[2] الواردة في الكلمة الملكية السامية التي أشير إليها من قبل.

الإكراه، بل كان قال قبل ذلك ببطلان الطلاق المكره وسقوط يمين الإكراه على العموم. وضرب في ذلك بالسياط ومدت يده حتى انخلعت عن كتفه كما يقول لنا التاريخ.

إذن هناك ما يجعل المولى إدريس —وهو من آل البيت، ومن الشيعة المناضلين وقد وجد في البيئة المغربية نفساً أخر وميولا أخرى، بالإضافة إلى ذلكم التعاطف الذي له مع الإمام مالك— يسير على خط أهل السنة، وينشر المذهب المالكي الذي عرف ازدهاراً في عهده.

ونستمر في ذكر هذه الأسباب التاريخية والسياسية، فنضيف سبباً رابعا، وهو تقوية المذهب في ظل المرابطين، أولئك المرابطين الذين اعتمدوا المذهب واتخذوه حركة تقود نضالهم وتكيف هذا النضال. ومن خلاله —أي من خلال المذهب ووحدته— حاولوا أن يحققوا الإصلاح ويصححوا أوضاع المسلمين، ويطبقوا الإسلام في صيغة ثورية مبسطة واضحة، بدءاً من الشمال في الأندلس إلى عمق القارة الإفريقية. ونحن لا نستطيع أن ندرك أهمية الدور المرابطي إلا إذا عرفنا أنه بعد الاضطراب الذي تعرض له المغرب إثر انهيار الدولة الإدريسية، ومع بداية الغزو الفاطمي للشمال الإفريقي في مستهل القرن الرابع، ظهر في المغرب اتجاهان: اتجاه يميل إلى أمويي الأندلس، ويمثله أو تمثله مجموعة من القبائل الزناتية. واتجاه يميل إلى الفاطميين، وتمثله مجموعة من القبائل الصنهاجية. ولكل من هاتين المجموعتين من القبائل إمارات يمكن أن توصف في المصطلح السياسي بأنها إمارات عازلة أو حاجزة "Des Etats tampons" من شأنها أن تقي هذا الاتجاه من أن يتسرب له خطر الاتجاه الآخر.

كذلك يكفي لنتمثل ما وصلته قوة المذهب في هذا العهد، أي عهد المرابطين، أن نعرف مدى صموده للموحدين والدعوة التي ظهر بها المهدي بن تومرت، وكانت قائمة على بعض مبادئ الشيعة الإمامية ؛ ولكنه في الواقع لم يكن شيعيا إلى درجة مزعجة، فقد كان يتوسل بالمبادئ الشيعية فقط لتحقيق أهدافه السياسية. وإلا فنحن نعتقد أنه في عمقه —نقصد في عقيدته وتطبيقه الديني— كان على رأي أهل السنة إن لم نقل إنه كان على مذهب مالك.

ثم نصل يا مولاي إلى السبب الخامس والأخير في هذا المحور، ويتجلى في مساندة الدولة المغربية باستمرار للمذهب. وربما إلى مثل هذا السبب أشار ابن حزم[1] وهو يتحدث عن الأندلس، حين قال إن المذهب المالكي انتشر بالسيادة والسلطان، وأنْ يحيى —يقصد يحيى الليثي— كان مكينا عند عبد الرحمن بن هشام، وكان يعين القضاة من قبله ؛ ولهذا تركز المذهب في الأندلس. والدولة المغربية في الحقيقة لم تكن تساند المذهب فحسب، ولم تكن تقوم عليه فحسب باستثناء فترة الموحدين التي هي فترة عابرة في التاريخ على أهميتها ؛ ولكن الدولة كانت باستمرار تحميه، أي تحمي المذهب من الانحرافات والتيارات المتطرفة. يكفي أن نذكر أن يوسف بن تاشفين قضى على البورغواطيين وهم منحرفون، وأن المولى إسماعيل قضى على العكاكزة وهم أيضا منحرفون، وجلالة مولانا أطال الله بقاءه وضع حدا للبهائيين وهم منحرفون بإجماع أهل السنة والشيعة.

الهدف من هذه الحماية هو الحفاظ على نقاء العقيدة وصفائها، في هذا التجاوب، وفي هذا الانسجام بين طبيعة المذهب وطبيعة ذاتية المغرب

[1] انظر قوله في نفح الطيب —ج 2 ص: 10 (ت إحسان عباس — بيروت).

وكيانه. والهدف قبل هذا وبعد هو الحفاظ على الوحدة. وإن علينا في الظروف الراهنة وأكثر من أي وقت آخر أن نستحضر هذه الوحدة. وإنكم يا مولاي تلحون عليها في كل مناسبة، خاصة والمغرب معرض باستمرار على نحو ما مر في تاريخه لألوان من المواجهات والتحديات.

وقد دلت مواقفكم ومواقف شعبكم على أن الوحدة هي الضمان. ولا أدل على ذلك من المسيرة الخضراء، المسيرة التحررية التي استرجع بها المغرب السليب من أراضيه. هذه المسيرة التي كانت تنادي بشعار واحد تعدى كل اختلاف في الرأي وتجاوز كل انتماء مهما كان. هذه المسيرة التي جسدت الوحدة وبلورتها، والتي اعتبرها العالم بحق معجزة العصر إن لم تكن معجزة التاريخ. وكانت العدالة الدولية قد استندت إلى ظاهرة الوحدة المذهبية التي تجمع المغرب المستقل وصحراءه المحتلة لإثبات حقه في استرجاعها والحكم له بهذا الحق.

وإنه ليخيّل إليَّ من موقف الدارس المحلل أنكم يا مولاي بحرصكم على الوحدة، تلخصون التاريخ في أبهى صحائفه، وتتطلعون منه لتشرفوا على المستقبل تختصرون أبعاده للتحكم فيه وارتياد آفاقه وتحقيق تطلعاته التي لا حد لها ولا حصر.

وقد جاءت رحلتكم إلى الأقاليم المسترجعة ملمحا لهذه الوحدة، وهو ملمح جعل العالم كله يقتنع بحق المغرب في هذه الأقاليم، وبالمصير الذي قرره السكان في استفتاء شعبي فاق بإجماعه وتلقائيته كل حد أو مقياس، وجعل العالم قبل هذا وبعد يستحضر من خلال لحظات الرحلة ولقطاتها أهمية الوحدة وما تبلوره من عناصر الذاتية المغربية ومكوناتها، وما لها من قيم ومقومات. ومن خلال ذلك يستحضر الدور الحضاري والثقافي الذي

ينهض به المغرب في إفريقيا عبر الصحراء، وفي خط السنة ومذهب الإمام مالك. وقد أدى المغاربة هذا الدور، وعليهم أن يستمروا في أدائه إلى يوم الدين لأنه قدرهم الذي لا بد لهم في حياتهم منه.

مولاي،

بارك الله سيركم ومسيرتكم المستمرة، وأدامكم نبراساً للدين، ورمزا لوحدة الأمة ونهضتها، وحفظكم في شعبكم وأسرتكم وأصحاب السمو الأمراء والأميرات، وأراكم ما تحبون وترجون في ولي عهدكم المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه المولى الرشيد.

والختم والدعاء من سيدنا أمير المومنين. والسلام على مقامكم الكريم.

الدين في وسطيته وتجديده
وسياق الشخصية المغربية

انطلاقاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

"لا يزال أهل المغرب ظاهرين حتى تقوم الساعة".

ألقيت بقصر الرياض في الرباط

بعد عصر الثلاثاء 11 رمضان المعظم 1406هـ

الموافق 20 مايو 1986م

لسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

اللهم إني أستقدرك بقدرتك، وأسألك بعلمك، وأدعوك بهداك، وأرجوك من فضلك ؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب، وإن الهدى هداك، وإن الفضل بيدك تؤتيه من تشاء، وأنت ذو الفضل العظيم.

مولاي أمير المومنين،

أتشرف بالمثول بين يدي جلالتكم في هذا المجلس الساطع نوره بوجودكم، تتصدرونه وتبثون فيه مما أفاض الله عليكم من علم واسع وفكر ثاقب ويقين صادق وإيمان ثابت وشيم حميدة، وقد اشرأبت النفوس وهفت العقول تستمد من هذا الفيض، سعيدة بلقاء جلالتكم في مكان غدا الوجهة والمحراب. وما إخال كل واحد يتطلع إليكم في هذا المكان وفي مثل هذه اللحظات إلا مرددا قول الشاعر العربي:

لقيته فرأيت الناس في رجل *-* والدهر في ساعة والأرض في دار

نعم يا مولاي، أتشرف إذ أعتلي هذا الكرسي الذي أبيتم –أعلى الله مقامكم ورفع شأنكم– إلا أن تقيموه إبرازاً لجميع القيم التي يرمز إليها، وتقديراً لمكانة العلم والعلماء. وأستسمحكم في أن أطلق عليه كرسي الحسن

الثاني للعلوم الإسلامية. وإن التاريخ سيقف عنده —ومن خلاله عند هذا المجلس الموقر— باعتباره مظهرا مميزا للفكر العربي الإسلامي في المغرب، ومنطلقا لمسيرة هذا الفكر في عهدكم الزاهر الميمون الذي نحتفل هذا العام في نطاقه الممتد إن شاء الله بالذكرى الخامسة والعشرين لإرسائكم دعائمه القوية المتينة.

وبعد، فأستأذن سدتكم العلية في أن أتحدث عن موضوع أعترف منذ البدء بصعوبة اقتحام صيغته التركيبية، وهو: "الدين في وسطيته وتجديده، وسياق الشخصية المغربية". وسأتناوله من خلال محورين:

أولهما: عن الشخصية في سياقها مع الدين، باعتبار الدين أهم مقوم يكون الشخصية المغربية، إن لم يكن أهم مقوماتها على الإطلاق ؛ وباعتباره كذلك يتبادل التأثر والتأثير معها من حيث هو نسق يتفاعل مع الأنساق الأخرى للشخصية.

أما **المحور الثاني** فسأتحدث فيه عن ظاهرتين نتجتا عن هذا التفاعل، هما الميل عند المغاربة إلى الوسطية والاستعداد للتجديد.

حين نتحدث عن الشخصية نعني ذلكم الكيان القائم على مجموعة من العناصر المادية والمعنوية التي تتصل بالجسم والعقل والروح والإرادة والشعور، والتي تتحدد من خلالها ملامح الهوية في جانبيها الذاتي والموضوعي بكل ما يشكلها من عوامل داخلية وخارجية تضبط التفكير والسلوك، سواء في حركة الإنسان التلقائية وردود فعله أو محاولته التكيف مع الآخرين. والشخصية بذلك كيان ذهني مرتكز على قيم ومقومات تكون أكثر من غيرها انتشاراً بين الناس وأقواها إلحاما بينهم، وتكون في ذلك وبذلك أقدر على إبراز خصوصياتهم المميزة لهم عن غيرهم، من حيث هم

أفراد أو من حيث هم جماعة. وهي خصوصيات قد تتسم بالثبوت لارتباطها بعوامل قارة، ولكنها تتصف كذلك بالتطور والتغير، إذ تخضع لعناصر متحركة هي عناصر الواقع بكل ما يفعل فيه ويؤثر، وإن كان الثبوت والتغير يبقيان مع ذلك نسبيين.

والشخصية تنبثق من مكونات تلتقي على صعيد البيئة وتنصهر في بوتقة العوامل الفاعلة فيها حضاريا وثقافيا. وربما كان بعضها –أي بعض هذه العوامل– ضارباً في عمق التاريخ وملتصقا بالأرض التي تحرك فيها هذا التاريخ. وللعامل الجغرافي في ذلك أثر كبير، ويتفرد المغرب فيه بتكوين طبيعي يلتقي فيه السهل والجبل والصحراء، ويتميز نتيجة ذلك بمناخ معتدل دائم فيه إشراق الشمس والتطلع إلى السماء وترقب ما تجود به. ثم هو يتميز بموقع جعله ضارب الجذور في عمق القارة التي ينتمي إليها، وجعله كذلك مفتوح الشواطئ على بحرين عظيمين، متحكماً في منافذهما ومنفتحا على ما وراءهما، وكان بعض هذا الوراء يعد في الظلمات. والمغرب بهذا الموقع يتوسط كل جهات الكون، ويتحرك في مركز ثقل العالم بتفاعل جدلي مستمر، مع يد ونظر ممدودين دائما إلى الشرق في عملية أخذ وعطاء لم ينقطعا قط.

وكما ورد في حديث جلالتكم لمجلة لونوفيل أوبسرفاتور (Le Nouvel Observateur) في مارس الماضي فإن "من حسن حظ المغرب أن له حدودا طبيعية، فهناك المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط والصحراء. وهذا ما جعلنا نراوح مكاننا منذ عدة قرون، وهكذا حافظنا على مزايانا وعيوبنا على حد سواء". وزدتم يا مولاي: "إن شعباً يتمدد يفقد

ميزاته الخاصة كالصباغة التي تذوب في الماء. إن التجربة المغربية قد اكتسبت رصيدا من المزايا لا يمكن تصديرها".

ويرتبط بهذا العامل الجغرافي عامل الجنس البشري ؛ والمغرب كان مسكونا منذ العصر الحجري وفترات ما قبل التاريخ. ويتمثل هذا العامل الجنسي في السكان الأصليين، وهم الأمازيغ ج. إيمازيغن، ومعناها الحر الشريف. وهي تسمية وردت في الكتابات القديمة جدا بصيغة مازيس (Mazices) أو ما يشبهها ؛ وتدل على طبيعة الشعب وتطلعاته، وإن أطلق عليهم الرومان اسم البربر. وكان موسى بن نصير قد وصفهم للخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك بأنهم الأبطال المغاور.

ولعلنا أن نستحضر العروبة الحميرية لهؤلاء السكان وأرومتهم الشرقية التي لا مجال لإنكارها، وكان أثبتها مؤرخون قدامى كهيرودوت وسالوست وبروكوب، قبل أن نصل إلى ابن خلدون مؤرخ البربر. وقد تسنى للأمازيغ أن ينصهروا مع العرب الوافدين إثر الفتح الإسلامي، وكذا مع جميع من أتيح لهم أن يحتكوا بهم أو يتصلوا معهم، سواء أكانوا من الشمال أم الجنوب. ومعروف أن المغرب استقبل أجناسا مختلفة طوال العصور القديمة، على الرغم من أنه —وكما يدل عليه اسمه— يوصف بالأقصى، وكان يعرف بـ "فار ويست" (Far West) العالم القديم أي غربه البعيد. وكان لهذا الانصهار أثر في إبراز طبيعة نستطيع وصفها بأنها طبيعة متوسطية تمتزج فيها الحامية والسامية.

ولا شك أن هذه البيئة بعنصريها الطبيعي والبشري أفرزت أوضاعا اقتصادية وظروفا إنمائية ونظما اجتماعية معينة تبلورت في وسائل إشباع الحاجات، أي في أساليب الإنتاج ونمط العيش وما يترتب عن ذلك من

تصور وسلوك. فقد أتاحت هذه البيئة منذ فجر الحضارات والعهود البشرية الأولى تفاعل الإنسان مع شروطها وإمكاناتها الطبيعية، مما يسر للسكان أن يعيشوا على شكل مستقر في الغالب، يتمثل في نظام اجتماعي يقوم على جماعية الأرض والفلاحة والممتلكات، ولا سيما في السهول حيث الطبيعة تساعد على إقامة زراعة منظمة أساسها القمح والشعير والزيتون والكروم، وكذا إقامة تجارة منتظمة بما يفيض من الحبوب وبعض المواد المصنعة.

ذلكم أنه إذا كانت الزراعة هي الغالبة، فإنها لم تحل دون وجود صناعة مرتبطة بالفلاحة لإنتاج الزيوت ومستخرجات الأعناب، وكذا الصيد وتصبير الأسماك. بل وجدت صناعة ثقيلة منذ العهد الفينيقي تتصل بالسفن والأساطيل وأجهزة الموانئ، دون أن ننسى صناعة الأسلحة والأمتعة والأقنعة والتماثيل وأدوات الزينة والأواني المزخرفة والصناعات الجلدية والخشبية ؛ ومثلها صناعة النسيج والحصر والزرابي التي يبدو أن الفينيقيين حملوا فنيتها إلى الشمال الإفريقي. ومن المعروف تاريخياً أن الزرابي كانت تمثل جزءا من الخراج أو الهدايا التي كانت تقدم للمشرق. ولعلنا ألا ننسى كذلك تجارة الذهب في الجنوب انطلاقا من الصحراء، وتجارة اللؤلؤ والمرجان في الشمال، وخاصة سبتة ومليلية اللتين تستنجدان لتحريرهما وتناديان: "واحسناه".

حين نحلل هذا الواقع نجده أثر في تكوين وحدات اجتماعية هي ليست فردية بإطلاق، ولكنها تقوم على تجمعات قبلية صغيرة يتشكل في نطاقها نظام الأسرة التي تخضع للسلطة الأبوية. وقد أفضى هذا النظام إلى إنشاء القرية ثم المدينة، مع عدم وجود أقليات منعزلة أو تكتلات منغلقة،

ودون أن يؤثر وجود الرحل في بعض المناطق على نظام الاستقرار الذي كان سائداً، سواء على مستوى الحاضرة أو البادية.

وقد ساعد على هذه الظاهرة –أي ظاهرة الاستقرار– نمو ديموغرافي عرفه المغرب باستمرار، ويكفي لإبرازه أن نعرف أن الأوروبيين الذين زاروه في القرن الماضي وأول هذا القرن –من أمثال إركمان Erckmann والسفير شينيي Chénier والكومندان لاراس Larras– طرحوا أرقاما تدل رغم اختلافها على مدى هذا النمو ؛ فهي تتراوح ما بين ستة ملايين وما يفوق الخمسة عشر مليونا.

ومن ثم نجد الواقع البيئي المغربي أثر في خلق الميل إلى الاستقرار في جميع أبعاده، بما في ذلك البعد الفكري والسياسي ؛ في الوقت الذي أثر هذا الواقع في تكوين حب شديد للحرية ورفض الخضوع والاستسلام للغزاة والمعتدين، مع قدرة فائقة على الصبر والتحمل وإمكان التوقع والانتظار. وكما قلتم يا صاحب الجلالة وأنتم تخاطبون أعضاء مكتب مجلس النواب في السنة الماضية، فإننا "لم نكن لندرك ما أدركنا لولا الحرية. الخصب كل الخصب في الحرية، وفيما غير الحرية لا يمكن لأي بلد أن يعطي أو ينجز أو يخلق".

وعلى الرغم من أن الوقت لا يتسع للدخول في تفاصيل هذه القيم والأخلاق، فإننا حين نحللها بدءاً مما ينشأ الطفل عليه في أسرته إلى أن يخرج للمجتمع الكبير، نجدها تقوم على مجموعة من الفضائل الفردية والجماعية تفضي إلى تكوين رجولة جادة وصارمة مع النفس والآخرين ؛ وهي رجولة يغلب عليها التمسك بالكرامة والاعتزاز بالذات إلى حد الكبرياء مع القدرة على تحمل المسؤولية، ولكن مع احترام الغير ومد اليد إليه،

وربما الاندماج معه والانصهار فيه، بشيء كبير من التسامح، باعتبار التسامح مقياس التحضر كما ورد صدقا على لسانكم يا مولاي أكثر من مرة.

وقد لخصتم مجموع تلكم القيم في فقرة وردت في خطاب جلالتكم ببلدية باريز في نوفمبر المنصرم حيث قلتم: "إننا ننظر أحيانا للماضي حتى ندرك حقيقة الأشياء التي تمر أمامنا. إذن فإننا لم نجد صعوبة في اختياراتنا. لقد وجدنا أولا التنوع ثم التسامح والتساكن منذ آلاف السنين. وعندما نقبنا وجدنا تراثاً عريقاً بربريا ورومانيا وعربيا وإفريقيا. لقد كانت لدينا إذن المسائل الجوهرية التي تساعدنا على رسم حاضرنا فأدركنا أن التنوع والقدم يتناغمان أحسن ما يكون التناغم مع الحرية. ولكن من هو هذا الشخص الذي يمكنه أن يكون حراً دون أن يعيش كريماً؟ وهل يمكن للمرء أن يعيش في حرية وكرامة في غيبة عن المسؤولية ... فإنه لا يمكن فصل المسؤولية عن الكرامة واستمرارية الدولة. ولتحقيق ذلك يجب توفير الحرية".

لعلنا بهذا نشرف على العنصر الثقافي بكل منابعه المتعددة ومصادره المتنوعة، وبجميع ملامحه الأصيلة القديمة والمستمرة. وفي هذا العنصر نستطيع رصد التراث بمختلف مكوناته ومظاهره، ولا سيما الشعبي منه بما فيه من عادات وتقاليد وحكايات وخرافات وأغاني ومرددات وأمثال وأشعار وصناعات يدوية دقيقة، وما إليها من الفنون التي عرفت ازدهارا في مجال المسرح والموسيقى في عهود مختلفة وخاصة في عهد يوبا الثاني، وكذا في مجال التشكيل الذي تنم تقسيماته الهندسية كما في زخارف الفسيفساء (الزليج) عن فكر رياضي متميز لا شك.

وفي طليعة هذه المكونات الثقافية تبرز اللغة وما يغنيها من روافد اللهجات المحلية التي تداخلها وتحيط بها. وهي —أي اللغة وأقصد بها

العربية المدرسية التي يطلق عليها الفصحى— تتجاوز وظيفتها التقليدية كلسان تخاطب وأداة تواصل لتصبح رمز القيم وإحساساً باطنيا عند الفرد، حتى الذي لا يتكلمها لو وجد ؛ وهو إحساس بالهوية والذات وبالفكر والمشاعر، لارتباطها بالقرآن الكريم وتراث العلوم الإسلامية الزاخر. وهي بهذه الأبعاد تداخل وعي المواطن المغربي وتعيش في أعماقه، مما يجعلها عنصر توازن للشخصية سواء في علاقتها مع نفسها أو مع الآخرين، ويجعلها كذلك كما جعلها على الدوام سلاحا فعالا في معركة استرجاع الذات.

ومن ثم جاءت هذه الهوية تجمع بين ما هو محلي وما هو أوسع، أي هوية مغربية عربية إسلامية يلتقي فيها البعد الوطني ببعد الوحدة الشاملة. وهي هوية متماسكة لم تعرف التمزق أو التصدع قط منذ الفتح الإسلامي إلى المرحلة الحديثة، على الرغم من التحديات التي واجهتها على مر العصور.

وتبرز طبيعة هذه الهوية —أو العينية كما سماها بعض فلاسفة المسلمين لعله الفارابي— في جملة ملامح تلتقي فيها نوعية البيئة بكل عناصرها ومكوناتها مع الفكر السائد والمتمثل في سلوك تجاه واقع هذه البيئة. وهو سلوك يبرز نمطا من المثل التي تعكسها مجموعة من المقومات والضوابط تتحكم في الفعل وتنظمه، كما تتحكم في التفاعل والانفعال وتنظمهما. ويغلب عليها توسط مزاجي، ولكن في نزعة عملية تتجاوز القول والتعبير وتسعى باستمرار إلى البت والحسم.

ويمكن أن نذكر من هذه الملامح كذلك قدرة الأخذ والعطاء والتأثر والتأثير والتكيف والامتصاص، مع التمسك الدائم بالمقومات الأصيلة، مما

نتج عنه توازن مستمر بين المحافظة والتطور، في تطلع للجديد دون التفريط في القديم.

أما في مجال التصور والنظرة للكون والطبيعة مما يرتبط بقضايا الغيب ومشكلات الماوراء، فنلاحظ انبهارا أمام الخلق، واستسلاما يبطن اعتقادا في ضرورة أن يكون لهذا الخلق خالق لا يمكن إلا أن يتصف بالقوة والخير ؛ ولكن من غير أن يحول هذا الاستسلام دون استفسار خفي ودائم عن علية كل ذلك وعن المصير. وهو موقف عقدي لم يجد المغاربة له حلا إلا مع الإسلام، علماً بأن التدين عندهم قديم يرجع إلى الفترة البدائية وما شاع فيها من معتقدات.

وهذا التدين يدل على وعي بحقيقة الطبيعة والكون، وكذا على نضج في الفكر والشعور ؛ ثم هو يدل على ميل فطري إلى الوحدانية، مما سيؤكده وجود المسيحية واليهودية قبل الإسلام، وإن لم يقبل عليهما المغاربة لارتباط المسيحية بالمد الاستعماري الروماني وارتباط اليهودية بالميز العنصري.

والحق أن المغاربة بهذا التدين يكشفون عن شخصية سوية، شأنهم في ذلك كشأن بني الإنسان المفطورين على الإيمان بالله. وهي حقيقة أخبر الله عز وجل بها في سورة القيامة بهذا الاستفهام الإنكاري: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾. وبها خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله من سورة الروم: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. والرسول نفسه تحدث عن هذه الفطرة في حديثه الشريف المروي عن أبي هريرة ممثلا حال الإنسان المولود في كماله بحال البعير المولود في تمامه:

"كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء".

ولعل هذا هو السر في كون الإنسان كان مخاطب الخالق ومكرمه ومتحمل أمانته، لأنه بفطرته مهيأ ومؤهل لعبادة الله على النحو الذي يريده عز وجل وهو ما لم تدركه الملائكة من قوله في سورة البقرة: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لكَ قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾. ولا عجب فقد جعل الله عبادته والارتباط به في خشية وتقوى مقياس صلاح الإنسان، وهو القائل في سورة الحجرات: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، والقائل في سورة التين: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾.

ولقد انتبه العلماء والفلاسفة كذلك إلى هذه الحقيقة المتعلقة بالفطرة، على حد ما نقرأ للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون: "إنه وجدت وتوجد جماعات إنسانية بدون علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات سوية دون ديانة".

وإذا كان المغاربة عرفوا التدين، وإذا كان هذا التدين تطور معهم مسايرا مراحل تاريخهم، فإن ذلك كله مهد عندهم للإسلام الذي احتوى الشخصية المغربية احتواءً كاملا وأعاد تكوينها بالتصحيح والتقويم ؛ فجعلها تتلاءم مع تصوراته ومقاصده.

ومن ثم نلاحظ في هذه الشخصية جملة خصائص نستطيع إجمالها في هذه النقط الخمسة:

1- الاعتدال وعدم التطرف، مع الانضباط والحد من الأنانية والطغيان.

2- التقرب إلى الله وخشيته والاحتراز في العمل والسلوك.

3- تهذيب الغرائز والطباع وتقويم الضمير الفردي وتقريبه بوعي للضمير الجمعي العام.

4- الرضى والقناعة والقدرة على تجاوز تناقضات الواقع وتحمل ذلك.

5- عدم الانشغال بالغيب في اطمئنان لما أخبر الله به، مع الاستعداد للعالم الآخر ويوم الحساب، في نظرة مستقبلية على الدوام.

وإذا كان الإسلام هدى المغاربة بالعقيدة، فإنهم اتخذوا هذه العقيدة نبراسا لمفاهيمهم ومنظوراتهم ومعقولاتهم، وقاعدة لسلوكهم وعلاقاتهم، ومقياسا يميزون به الخبيث من الطيب والفاسد من الصالح. وبذلك –وانطلاقا من نموذج الرسول صلى الله عليه وسلّم وصحابته والتابعين رضوان الله عليهم– صار الإسلام هديا لهم في جميع أحوالهم، إذ صادف استعداداً في شخصيتهم لتقمصه والاصطباغ به، سواء في سلوكهم العام والخاص أو في علاقتهم مع الله والناس، وسواء أكانوا داخل المسجد أم في الأسرة والمجتمع، أم في السوق أو ساحة الحرب. كل شيء عندهم مرتبط بالشرع تحقيقا لقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾.

وتدين المغاربة من هذا المنظور هو الذي جعلهم يلتزمون بالإسلام وشريعته في كل ما يمس حياتهم، ليس فقط فيما يتصل بالعبادات والمعاملات والحدود، ولكن كذلك فيما يتعلق بالخطط والنظم، بما في ذلك نظام الحكم في حرص شديد على الشرعية المرتبطة بالبيعة التي لم يتخل المغاربة عنها قط.

ومن ثم جاءت نظرتهم شمولية ترصد الإيمان والعمل، وتسعى إلى تطبيق الشريعة ونشر كلمة الإسلام والجهاد في سبيل الله، عملا بقول الرسول صلوات الله عليه يوم دخل مكة: "**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**". وهم في ذلك يهتدون بمثل قوله تعالى في سورة النور: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾، وقوله عز وجل في سورة العنكبوت: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾. ويتمثلون كذلك قوله الكريم في سورة التغابن: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، وقوله سبحانه في سورة محمد: ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾. وليس غريباً ولا من قبيل المصادفة أن تكون هذه الآية شعار المغرب الرسمي ورمز ملكه حتى اليوم.

*** *** ***

من هنا يا مولاي أستسمح في الانتقال للقسم الثاني من هذه المحاضرة، لأتناول ظاهرتي الوسطية والتجديد، باعتبارهما من أبرز نتائج التفاعل الذي حدث بين الإسلام والشخصية المغربية، تحثني على تناولهما حاجة المغاربة والمسلمين جميعا إلى استحضارهما اليوم.

وتتجلى هذه الوسطية في عدة مظاهر أكتفي منها بثلاثة:

أولها: التمسك بالاعتدال المذهبي ورفض التطرف. وهذه حقيقة عامة يكشف عنها تاريخ المغرب الفكري والسياسي، وهي التي جعلته لا ينحاز للفرق والمذاهب الغالية، على الرغم من احتكاكه بها واحتضانه لها حين تعرضت للشدة والمحنة. وذلكم ما حدث له مثلا مع الخوارج والشيعة

الذين استقبلهم ورحب بهم حين هزموا في المشرق وضاقت بهم الأرض، ولكن دون أن يميل لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك. وظل ملتزما بخط أهل السنة والجماعة لم يحد عنه قط، سواء في المفهوم الذي يجعل أهل السنة والجماعة في مقابل الشيعة، أو في المفهوم الذي يعني الذين اهتدوا بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وسلكوا طريق الصحابة والتابعين وإجماع الأمة، في اعتدالية وتلقائية تذيب كل خارج عنها وتلفظه وترفضه مهما كانت إمكاناته ووسائله. وكأني بهم قد تأثروا بالقول الذي نسبه الذهبي للأوزاعي: "خمسة كان عليها الصحابة والتابعون: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، والتلاوة، والجهاد".

ومقولة السنة والجماعة تعني أن التمسك بالسنة وسيلة الحفاظ على الجماعة، باعتبار أن السنة ارتبطت أولاً بسيرة الرسول عليه السلام ثم لم يلبث مفهومها —في النطاق الذي سبق أن أشرت إليه— أن اتسع ليشمل سلوك الصحابة والتابعين وعموم السلف، دون أن تفقد أبدا فاعليتها المتمثلة في بعض المأثورات كالقول المنسوب للزهري بأن "الاعتصام بالسنة نجاة"، والقول المعزو إلى ابن الديلمي بأن "أول ذهاب الدين ترك السنة".

أما **الملمح الثاني** في هذه الوسطية فيكمن في الموقف بين العقل والنقل في مسائل العقيدة. ويرتبط بالإيمان بدءاً من الصفات إلى القدر، أي بالمنطلق الأول في الإسلام وهو التوحيد في قضاياه الأساسية التي كثر حول فهمها الجدل والنقاش. وفي طليعتها قضية الصفات التي وقف المغاربة منها في موقع وسط بين التجسيم الغليظ الذي قال به المشبهة، وبين التنزيه الذي قال به المعتزلة. وهو موقف يلتزم بما ورد من هذه الصفات في القرآن الكريم

والحديث النبوي الشريف، يؤمن بها ويصدقها كما هي في مدلولها الواضح بتسليم وتفويض، غير لاجئ إلى التأويل الذي قد يجنح إلى التحريف.

والمغاربة بهذا الانضباط بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام يسيرون على مذهب السلف القائم على إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها حتى لا يعتبر إنكار الصفات أو نفيها إنكاراً للموصوف أو نفياً له. ويلخص الغزالي هذا المذهب في الأبيات التي رَدَّ بها على الزمخشري في نقاش حول قول الله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، وهي التي يقول في أولها:

قل لمن يفهم عني ما أقـول ⁎–⁎ قصر القول فذا شرح يطـول

ثم سر غامض من دونـــه ⁎–⁎ قصرت والله أعناق الفحـول

إلى أن يقول في آخرها:

فهو لا أين ولا كيف لـــه ⁎–⁎ وهو في كل النواحي لا يزول

جل ذاتا وصـفـات وسما ⁎–⁎ وتـعـالى ربنـا عـمـا تقـول

وقد أفضت قضية الصفات إلى قضية عقدية أخرى أساسية، وهي الإيمان بقضاء الله وقدره وما يترتب عنه من عدل في الوعد والوعيد اللذين أخبر بهما عز وجل، فلم يربطها المغاربة بالعقل ولم يجعلوها من موجباته، ولكنهم وصلوها بعلم الله ومشيئته، أي أنه تعالى يعلم ما يعمل الخلق بعلمه القديم ويعلم جميع أحوالهم من طاعات ومعاصي وأرزاق وآجال لها مقادير كتبها في اللوح المحفوظ. والمشيئة تعني أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يكون شيء في ملكه لا يريده. فالإنسان يفعل حقيقة ولكن الله هو خالق فعله. والإنسان هنا يشمل المومن والكافر والبر والفاجر. فهو يعمل

ويقدر على عمله ويريد أن يعمله، ولكن الله الذي خلقه هو الذي يخلق فيه القدرة والإرادة. ومن ثم قالوا بأن الإنسان يكسب أفعاله بقدرة يخلقها الله فيه، ولم يثبتوا الحرية المطلقة للإنسان كما عند المعتزلة حتى لا يفضي رأيهم إلى تقييد إرادة الله وتعدد الخالق. والمغاربة في هذا على مذهب الأشاعرة؛ بل إنهم قبل أن ينتموا إليهم كانوا –كأهل السنة والجماعة– يعرفون بالمثبتة لأنهم كانوا يثبتون ما ينفيه المعتزلة. وتأثرا بهم –أي بالأشاعرة– يقول المغاربة:

فإن يثبنا فبمحض الفضل *–* وإن يعذب فبمحض العدل

ومن ثم يقرون الشفاعة باعتبارها عفواً أو تفضلاً من الله على المومنين العصاة. وبلغ تعلقهم بها حدا جعلهم كثيري ترديدها والإلحاح عليها حتى فيما يتداولون من أغان وأناشيد، وفي صيغ توسلية مختلفة، كقولهم: "الشفاعة رسول الله"، "اشفيعنا يا رسول الله" و "يا شفيع الأمة يا مولاي محمد".

وعلى الرغم من ذلك كله، وعلى الرغم كذلك من أن المتصوفة المغاربة كشفوا بدورهم عن عجز العقل عن الخوض في مثل هذه القضايا خاصة حين ربطوها بالقلب والإلهام، على حد ما يقول أحد كبار رجال التصوف المغربي، هو عبد الله الغزواني أحد رجال مراكش السبعة:

سبحان من إلاه وجودك في قلبي *–* سبحان من إلاه علمك في قلبي

أقول، على الرغم من كل هذا، فإنه لا ينبغي أن يذهب الرأي بأحد إلى أن المغاربة حادوا عن العقل في طرحهم لتلك القضايا العقدية. فهم انطلاقا من الشرع وبحكم مقتضى العقل ميزوا بين ما هو واجب ومستحيل وجائز، وما هو قابل للثبوت والانتفاء، أو ما هو قابل للثبوت فقط أو

الانتفاء فقط. ويكفي أن نعرف أن أبسط منظومة شائعة عند المغاربة — وهي "المرشد المعين"— تقول في المقدمة:

وحكمنا العقل قضية بلا *-* وقف على عادة أو وضع جلا

أي أنه حكم يثبت بالعقل وليس بالعادة أو الشرع. فقد تعاملوا بشيء من الفهم العقلي المستند إلى النصوص، حتى فيما يتعلق بالصفات، كقولهم مثلا في رؤية الله عز وجل، إذ رأوا إمكانها، على حد ما يذهب إليه عياض في "الشفا" من أنه ليس في الشرع دليل قاطع على استحالة رؤيته تعالى وأنه لا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لا تدركهُ الأبصَار﴾ بسبب اختلاف تأويلات هذه الآية.

ومن ثم لا نستغرب حين نجد المغاربة يفتحون باب المناقشة في كثير من المسائل التي ترتبط بالعقيدة، والتي تناولها العلماء الذين تصدوا لها، من أمثال المهدي بن تومرت وعثمان السلالجي وأبي الحسن الحرالي.

بل إن مثل هذه المسائل تخطت ساحة العلماء إلى ساحة الشعب، مما يبرز الوعي العميق بقضايا العقيدة. ويتجلى لنا ذلك في المعارضات التي شاعت عند أشياخ الملحون، والتي تعرف عندهم بـ "لعراض". وإن أذنتم يا مولاي أقدم مثالا على ذلك من خلال مساجلة دارت بين شاعرين كبيرين هما أحمد الغرابلي الفاسي والمدني التركماني المراكشي، تناولت قضية الإيمان والعمل. قال التركماني بجواز الإيمان دون عمل، وهو رأي أوضحه في حربة قصيدته —أي لازمتها— وأكتفي بها:

اللايم خلي لعباد كل واحد في حالو

الشهادا بالله وبالرسول تكفي مولاها

أما الغرابلي فقال بعكس ذلك، مشترطاً ضرورة العمل حتى يكتمل الإيمان. وفي ذلك رد بقصيدة هذه حربتها، مع الاعتذار لمقامكم العالي عن الصيغة الهجائية التي خاطب الشاعر بها معارضه:

الداعي بالجهل اصغ الهل العلم او ما قالوا

الشهادا من غير اعمال ليس تكفي مولاها

مما جعل شيخ مراكش، وكأنه يريد أن يحسم النقاش في الموضوع، يعقب ملحاً على رأيه في قصيدته التي يقول في حربتها:

الداعي شهد والشهادا بالله وبالرسول تكفي

واكفات وكافيا وخير فالدنيا ولاخرا اكثر

والمومن نيتو افضل من اعمالو

وأما **الملمح الثالث والأخير للوسطية** فيتجلى في التوازن بين الشريعة والحقيقة أو بين الظاهر والباطن، أي بين الظاهر الفقهي الذي قد يصل إلى الجمود والتحجر وبين الباطن الصوفي الذي قد يغرق في الفلسفة.

وهو موقف يحث على التزام تصوف معتدل ينضبط بحدود الشريعة دون الوقوع في غلو آراء التصوف الفلسفي ونظرياته، من حيث أنه لا يفصل بين الشريعة والحقيقة، وبين نصوص الشرع ومعرفة الذوق.

ويعتمد هذا التصوف السني التعبدي الذي تميز به المغاربة على التقوى والاستقامة والارتفاع بالنفس إلى مستوى خلقي رفيع حتى تقف عند حدود الله فلا تتعداها، عن طريق التأدب بأخلاق القرآن واتباع نموذج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين. وهم في ذلك على مذهب الجنيد الذي كان يقول: "مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة".

وهذا لا يعني أن المغاربة لم يعرفوا التصوف الفلسفي الذي ازدهر على يد أحد تلاميذ محي الدين بن عربي، هو عبد الحق بن سبعين السبتي الذي ترأس في منتصف القرن السابع الهجري بسبتة جماعة "السبعينية" التي ثار عليها العلماء لخروجها عن المألوف في العقيدة والسلوك.

ويكاد هذا الخيط الصوفي يجمع بتفاوت بين المغاربة كافة، سواء أكانوا فقهاء أي أولئك الذين يعتمدون التحليل المعرفي القائم على البرهان والعقل المرتبطين بالنص، أم ممن اختصوا بإطلاق المتصوفة عليهم وهم أولئك الذين اشتهروا بالحدس والذوق في إدراك المعرفة. وبلغ هذا الالتقاء إلى حد قيل:

من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق

ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق

بل إنا نجد هذا الروح الصوفي حتى عند السلفيين الذين ناهضوا الطرقية في مرحلة ما من تاريخ المغرب الحديث، إن لم أقل إنا نجده في نشأة الحركة السلفية نفسها.

ويتمثل هذا الخيط عند المغاربة في سلوك ديني يتجلى في الانضباط والامتثال، أي في تصور حقيقي للدين لا أقول إنه بعيد عن الباطن أو بعيد عن الظاهر، ولكنه يجمع بينهما في إيمان وصفاء وتلقائية، وإن اضطروا فيه إلى الترجيح حين يبدو تعارض بينهما فإنهم يغلبون الظاهر. ولعل هذا هو السر في كون التصوف المغربي لم يشتط أبداً ولم ينحرف قط في اتجاه النظريات الفلسفية.

مولاي أمير المومنين،

إن التزام المغاربة بالإسلام على النحو الذي رأينا —وفي وسطية واعتدال— أتاح لهم أن يكونوا على مر التاريخ مهيئين للحفاظ على الدين، مستعدين لتجديد أمره حتى يستمر وتستمر رسالته. وهو عمل لا يمكن أن ينهض به المتطرف، كما لا يمكن أن ينهض به غير الملتزم لارتباط سلوكهما بالهدم دون البناء.

وقد انطلق المغاربة في أداء هذه الرسالة من تصور مرن ومتسع للتجديد، هو وسط بين التقليد والابتداع، على الرغم مما شاع عنهم أنهم مقلدون حتى قيل في المثل الشعبي: "در ما دار جارك أو بدّل باب دارك". وهذه قضية لها أبعاد أخرى تتصل بضوابط السلوك وبمفهوم الإبداع الأدبي والفني وخلفياته والعوامل الفاعلة فيه ستحيد بي عن الموضوع لو حاولت مناقشتها.

ويكاد يكون تصور التجديد مقترنا عندهم بالإتباع الذي يعني أنهم يتبعون الحق ويقتنعون بالدليل ويحترمون رأي الأئمة الذين يقتدون بهم. وحتى الذين لا يقتدون بهم فهم يكنون لهم الإجلال والإكبار والتقدير، ولا يبيحون لأنفسهم أن يمسوهم أو يجرحوهم أو يطعنوا في عملهم واجتهادهم لمجرد أنهم يختلفون في بعض الجزئيات مع من يتبعون، وقد يختلفون معهم حتى في بعض الكليات. والمغاربة في هذا كله يتحملون مسؤوليتهم كاملة.

وقولهم بالإتباع لم يحل عندهم دون الابتداع في نطاق الحدود التي تتيحها معادلة لا شك أنها صعبة، تلكم التي تقتضي التوفيق بين القول النبوي الوارد في الحديث الشريف بأن "**كل بدعة ضلالة**" وقبول ما يستحدث من أمور نافعة لا يمكن وصفها إلا بأنها من قبيل البدع المستحسنة.

ولم يجد المغاربة في ذلك أي تعارض أو تناقض مع الأخذ بالمذهب المالكي الذي أجمعوا عليه وتوحدوا في ظله، والذي قد يظن أنه خلف ما يشاع عنهم من تقليد. وقد غدت أسباب الأخذ بالمذهب معروفة لا تحتاج إلى أن تثار، وبعضها يدخل في إطار الانسجام مع مكونات الشخصية المغربية ؛ من بينها ما ينسجم مع روح التجديد، كقابلية المذهب لذلك من خلال الذرائع والمصالح المرسلة. وقد أمرتم في السنة الماضية بدرس في هذا الموضوع تشرفت بإلقائه بين يدي جلالتكم.

على أن مالكية المغاربة لم تحل دون حرصهم على العودة إلى الأصول، أي إلى الكتاب والسنة وما سار عليه الصحابة والتابعون وأئمة الأمة وعلماؤها. كما لم تحل دون ترجيح القول بالأعراف والعادات وما جرى عليه العمل حتى ما كان من ذلك مخالفا للنصوص. كذلك لم تحل مالكيتهم دون إلحاحهم على التقريب بين المذاهب بهدف التوحيد، ولا سيما في بعض المجالات المتيسرة، كما هو حادث هذه الأيام فيما يتعلق بالأحوال الشخصية مما نرجو له كامل التوفيق والنجاح.

وحين نتأمل تصور المغاربة للتجديد نجده يمس العناصر المنصوص عليها في الحديث المروي عن أبي هريرة مرفوعاً: "**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**".

بالنسبة لمعنى التجديد، فإنه يكاد يشمل عندهم جميع ما ورد مفرقا عند العلماء من إحياء العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما، والنهوض بالعلم وتشجيع العلماء، ونفع الأمة بالتدريس والوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة الحق والانتصار لأهله.

أما بالنسبة للمجدد، فقد يكون واحداً أو أكثر من واحد، وقد يكون من العلماء أو الأولياء أو الملوك، لا يشترط فيه إلا أن يكون معروفا مشاراً إليه، وأن تنقضي الفترة وهو كذلك، أي معروف ومشار إليه بين معاصريه ومن خلال قرائن أحواله وانتفاع الأمة به. وهو بعد هذا قد يكون مجتهدا وقد لا يكون، كما أنه قد ينتسب لآل البيت أو لا ينتسب. ثم إنه قد يعتبر مجددا على صعيد الأمة الإسلامية كلها وقد لا يعتبر إلا في نطاق محدود.

وأما فيما يتعلق بالفترة فهي غير مقيدة، سواء بالنسبة لامتدادها إن كانت قرنا أو أقل، أو بالنسبة لمبتداها ومنتهاها إن كان أول القرن أو منتصفه أو آخره.

والذين تحدثوا من المشارقة والمغاربة عن التجديد والمجددين، ذكروا أسماء بعينها في كل عصر تتفرد وتتعدد، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها عرضا في درس العام الماضي. ومن بين العلماء والصلحاء والملوك المغاربة الذين عدوا في المجددين الفقيه محمد بغيع الصحراوي الذي اعتبره أحمد بابا السوداني في رجز له مجدد القرن العاشر، وفيه قال:

وعاشر القرون فيه قد أتى *-* محمد إمامنا وهو الفتى

وعند القصار أن السلطان أحمد المنصور الذهبي يعتبر مجدداً لهذه المائة، وذلك في قوله من رجز له في الموضوع:

ولم نجد من جدد الدين سوى *-* إمامنا المنصور فالكفر ثوى

وفي ميدان الولاية والصلاح عُدَّ عبد الله الهبطي مجدد نفس المائة، وفي ذلك قال ولده محمد:

ومنهم الشيخ الرضى ذو الجاه *-* الهبطي الأبـر عـبد اللـه
بعث في المـائة هاذي العاشرة *-* يحي شريعة النـبـي الداثرة

على هذا النحو تسلسل المجددون من المغاربة، إذ اعتبر الأفراني صاحب "الصفوة" أن أبا علي اليوسي هو مجدد القرن الحادي عشر. واعتبر المرجاني في "وفية الأسلاف وتحية الأخلاف" أن من المجددين المغاربة في المائة الثانية عشرة الشيخ التاودي بن سودة. وبالنسبة لهذه المائة ذكر محمد دينية في "واسطة العقد النضيد" مجموعة من العلماء تلوح عليهم أوصاف التجديد، كالطيب بنكيران ومحمد ابن أبي القاسم السجلماسي الرباطي وحمدون بن الحاج وسليمان الحوات.

أما بالنسبة للمائة الثالثة عشرة فذكر صاحب "الواسطة" محمد بن المدني جنون وأبا إسحاق التادلي والمكي البيطاوري الرباطيين، والسلطان المنعم جلالة الحسن الأول الذي اشتهرت رسالته التي وجهها للأمة عند مختتم القرن الماضي، وفيه قال البيطاوري المذكور:

مجدد العصر محيي الدين شمس هدى *-* أقواله حكم أفعاله سنـن

وفيه قيل كذلك:

فأنت أس الديـن والمجدد *-* له كما نصّ بذاك يشـهد

ونعتقد أن تاريخ المغرب الفكري والسياسي غني بالرجال الذين جددوا أمر الدين في مجالات العلم والجهاد والولاية، سواء على صعيد الوطن أو الأمة الإسلامية قاطبة، بدءاً من يوسف بن تاشفين والقاضي عياض والمهدي بن تومرت إلى السلطانين المنعمين سيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان، ثم إلى أبي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي

وجلالة المغفور له محمد الخامس، هذا الملك المكافح الذي أتشرف وأعتز بأن ألقي درسي مباشرة عقب يوم ذكراه طيب الله ثراه وجزاه أحسن الجزاء وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

أما في المرحلة المعاصرة، فالتجديد الذي ظهرتم به يا صاحب الجلالة، تقودون حركته وتعلون رايته سواء على صعيد المغرب أو على صعيد الأمة العربية الإسلامية، أوسع من أن يثار في حيز درس محدود. ولو حاولت أن أفعل لأصابني العجز والتقصير، فقد تكاثرت مظاهره وتألقت حتى ما أدري ما أدع منها وما أذكر.

فهل أذكر معرفتكم الواسعة الأصيلة وثقافتكم المتفتحة المعاصرة وتجربتكم الرائدة وخبرتكم العميقة واجتهاداتكم الصائبة ومواقفكم المتميزة؟

أم أذكر النهضة الشاملة التي أقمتم دعائمها على أساس متين من العلم تشيدون معاقله وترعون رجاله؟

أم أذكر مسيرتكم التحريرية المظفرة التي استعدتم بها السليب من أرض الوطن والتي عدها العالم بحق معجزة العصر بل معجزة التاريخ؟

أم أذكر دعوتكم المتواصلة لبعث إسلامي جديد يتوخى الوحدة، ويعتمد الوسطية والتجديد، ويستند إلى الكتاب والسنة وما اصطفاه علماء السلف؟ وهي الدعوة التي توّجتموها برسالتكم التي وجهتم إلى الأمة الإسلامية مع مطلع هذا القرن.

أم أذكر جهادكم الصادق لنصرة الحق العربي الإسلامي الذي غدت القدس رمزه وشعاره، وما بذلتم وتبذلون من جهود لإزالة الضيم الذي تعددت مظاهره ومحو وصمة الإهانة والعار.

هل ؟ وهل ؟ وهل ؟ معذرة يا مولاي إن كنت لا أستطيع ذكر كل ما يقتضي الموضوع والموضوعية ذكره. وحسبي أن أقول مع أبي الطيب المتنبي:

متى أحصيت فضلك في كلام *–* فقد أحصيت حبات الرمـال

وإنكم يا صَاحب الجلالة بهذا التجديد تجددون الرسالة التي نهض بها المغاربة على الدوام، والتي لا حياة لهم بدون أدائها والاستمرار في هذا الأداء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهي رسالة تنسجم مع شخصية المغرب وتتفق مع تاريخه وتلتقي مع الرؤية التي نظر بها المسلمون إلى هذا البلد، والأمل الذي علقه عليه الرسول صلوات الله عليه، والمسؤولية التي حمله إياها نتيجة ذلك. وصدق عليه السلام: "**لا يزال أهل المغرب ظاهرين حتى تقوم الساعة**".

وهو حديث لا يتسع المجال لاستعراض مختلف ما جاء في لفظه ومعناه، وخاصة حول كلمة "المغرب". وقد أورده مسلم برواية الحضرمي عن سعد بن أبي وقاص في ترجمة باب قوله عليه الصلاة والسلام: "**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**". ومهما قيل في تفسير هذا الحديث الذي أدرنا الدرس عليه، فإن الواقع يرجح السياق الذي وجهناه فيه.

أمد الله في عمركم يا مولاي معززين منصورين حتى تحققوا هذا الظهور، وحفظكم ممتعين بالصحة والعافية، وكلأ برعايته وعنايته أصحاب السمو الأمراء والأميرات، وأقر عينكم بولي عهدكم المحبوب فخر المغرب

وعالم الشباب الأمير الأمجد سيدي محمد وصنوه النابغ السعيد المولى الرشيد.

اللهم أنت أمرتنا بدعائك ووعدتنا بإجابتك، وقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا يا ذا الجلال والإكرام إنك لا تخلف الميعاد.

والختم من مولانا أمير المومنين. والسلام على مقامكم الكريم.

شرعية الإمامة في المغرب
منذ اثني عشر قرناً

انطلاقاً من قول الله تعالى في سورة النساء (الآية 58):

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

ألقي في قصر الرياض بالرباط

قبل مغرب الخميس 21 رمضان المعظم 1409هـ

الموافق 27 أبريل 1989م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

لسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المخلوقين

وعلى آله وصحبه أجمعين

اللهم إني أسألك من العلم والفهم ما يدلني عليك ويقربني منك، وما يعينني على طاعتك ويلزمني بخشيتك، وما يرشدني إلى هداك ويقف بي على حدودك.

مولاي أمير المومنين،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

بلسان عاجز عن الإيفاء، أبدأ بالإعراب عن الشكر والامتنان اللائقين بمقامكم العالي، إذ شرفتموني فدعوتموني هذه المرة بعد مرار سابقة للمثول بين يدي جنابكم الكريم، أتشرف بالمشاركة في دروس مجلسكم العلمي الموقر، هذا المجلس المنور بوجودكم، المعظم بالانتساب إليكم، المعطر بأريج كتاب الله العزيز وسنة جدكم المطهرة. بهما تمسكتم ملتزمين، وعلى نهجهما سرتم مهتدين، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: **"تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي"**. فطوبى يا مولاي ثم طوبى لكم ولشعبكم الوفي الذي حظه القدر وأسعده بعهدكم الزاهر الميمون.

وأستسمح جلالتكم فأبادر إلى الاعتذار عما لا شك ستلاحظونه بواسع علمكم وثاقب رأيكم من نقص، لا أخفي أنه معزو إلى قصر باعي عن خوض غمار التفسير والحديث على النهج الأصيل الذي رسمتموه، لأن ذلك مما لا يدرك بالتحصيل وحده، ولكن أولا وقبل كل شيء بإلهام من الله ونور من عنده يقذفه في القلب. وما أعظم خيبتي إن لم يحالفني التوفيق فيما أقصد إليه بتناول موضوع لست فيه إلا كواسق التمر إلى هجر أو مستبضعه إلى طيبة أو خيبر. وحسبي أن أمس —وإن برفق— أهم جوانبه التركيبية الشائكة، وحسبي كذلك أن أنال من ثمين رضاكم وغالي ثقتكم ما أنتظم به في سلك مدرستكم التجديدية الرائدة.

أما بعد،

فأستأذنكم في أن أتناول الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. وسأحاول شرحها في القسم الأول من هذا الدرس. ومنها أنطلق إلى القسم الثاني لأنظر في شرعية الإمامة بالمغرب منذ اثني عشر قرناً، باعتبارها ظاهرة سأجتهد في تتبع أهم مظاهرها ثم تفسيرها بعد ذلك.

هذه الآية هي الثامنة والخمسون من سورة النساء التي أولها: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾. وهي سورة مدنية بل إحدى السور المدنية الطويلة، إذ عددها خمس وسبعون ومائة آية، حسب عد أهل مكة والمدينة، وهو العد المعروف عندنا في المغرب. نزلت بعد الهجرة لقول سيدتنا عائشة رضي الله عنها كما في صحيح البخاري: "ما نزلت سورة

البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده". ومعروف أنه صلوات الله عليه تزوجها سنة اثنتين.

وقد ذهب رأي شاذ إلى أنها مكية لافتتاحها بـ: ﴿يا أيها الناس﴾، وهو في الواقع خطاب عام غير مقصور على المكي من القرآن، وإن كان غالبا ما يقصد إلى مخاطبة أهل مكة، دون أن يعني ذلك النزول بمكة.

على أن مدنية هذه السورة لا تنفي نزول بعض آياتها في مكة كقوله تعالى في الآية السابقة على التي نحن بصدد تناولها: ﴿إن الله يامركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾. وهي آية نزلت يوم فتح مكة متحدثة عن تسليم عثمان بن طلحة الشيبي مفتاح الكعبة للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان عثمان مسؤولاً عن سدانة البيت.

هذه السورة تتضمن أحكاما اجتماعية وتنظيمية متعددة، وفيها أحكام كثيرة تخص النساء، ومن هنا سميت سورة النساء. وعن الفيروزابادي في كتاب (بصائر ذوي التمييز) أنها تسمى "سورة النساء الكبرى" تمييزاً لها عن سورة الطلاق التي تعرف بـ "سورة النساء الصغرى"، وهي التي أولها: ﴿يا أيها النبيء إذا طلقتمُ النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة﴾. وقد ورد في صحيح البخاري ما يفيد أن سورة الطلاق تسمى "سورة النساء القصرى".

وعن سبب نزول الآية التي نحن بصددها وردت روايات أهمها اثنتان:

الأولى: ساقها البخاري وغيره عن ابن عباس، وتذهب إلى أنها نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية.

والثانية: ذكرها الطبري عن السدي، وترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية عليها خالد بن الوليد، وفيها عمار بن ياسر، فهرب القوم غير رجل أتى ابن ياسر ليلاً وقال له: "يا أبا اليقظان إني قد أسلمت ... وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا، وإني بقيت، فهل إسلامي نافعي غدا وإلا هربت"، فأجابه عمار: "بل هو ينفعك فأقم". فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل، فأخذه وأخذ ماله. فبلغ عماراً الخبر فأتى خالدا وقال له: "خل عن الرجل فإنه قد أسلم، وإنه في أمان مني"، فقال خالد: "وفيما أنت تجير؟". فرفعا الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير.

في لفظ هذه الآية وأسلوبها ما يستدعي بعض التوقف. أما من حيث اللفظ فنقف عند كلمتين:

الأولى: أطيعوا، وهو فعل أمر من (أطاع) بمعنى لان وانقاد وامتثل، والاسم منه الطاعة ؛ ومثله طاع. ففي الحديث الشريف: "**فإن هم طاعوا لك بذلك**". وفي شعر الأحوص الشاعر الحجازي الغزل الذي كان يعيش في عصر الأمويين:

وقد قادت فـؤادي في هواها *-* وطاع لها الفـؤاد وما عصاها

وقد ورد فعل طاع بثلاث لغات: 1- يطيع، 2- يطاع، 3- يطوع

والكلمة الثانية هي: أولو الأمر، أي ذوو الشأن وأصحابه، وهم المعروفون كذلك بأهل الحل والعقد. وفي (أولو) قيل إنه جمع لا واحد له من لفظه، وقيل كذلك إنه اسم جمع واحده: ذو. ومؤنث أولو: (أولات)، واحدتها: ذات.

وأما من حيث الأسلوب، فتلفت النظر صيغة الأمر الوارد عليها الفعل (أطيعوا)، وذلكم من وجهين:

الوجه الأول: إعادة ذكر الفعل ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[1]، وهو ما لا نجده في آيات أخرى تدعو كذلك إلى طاعة الله ورسوله، كقوله عز وجل في سورة الأنفال: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾ (الآية 30)، وكقوله تعالى في نفس السورة: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الآية 47).

والسبب في هذه الإعادة بالنسبة للرسول وليس لأولي الأمر هو الإلحاح على طاعة الرسول وجعلها مساوية لطاعة الله، واعتبارها بذلك أرفع وأقوى من طاعة أولى الأمر، لأن طاعتهم طاعة امتثال، أما طاعته صلى الله عليه وسلم فطاعة امتثال وتلق. ولو قال تعالى: ﴿أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر﴾ لظن أن طاعة أولي الأمر طاعة امتثال وأن طاعة الرسول طاعة تلق فحسب.

الوجه الثاني: يتعلق بمدلول صيغة الأمر في الآية. فالأمر من حيث هو، لا يخلو:

1- إما أن يكون مرتبطاً بقرينة، وفي هذه الحالة يفيد ما تحدده تلك القرينة كالإباحة في قوله تعالى في سورة النور متحدثاً عن التعاقد مع العبيد وتحريرهم: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ (الآية 33).

2- وإما أن يكون مجرداً عن أية قرينة، كما هو الشأن في الآية التي نحن بصددها، وإذ ذاك يفيد الوجوب كما عند الكثير من العلماء، ولا سيما

---

[1] انظر "تفسير التحرير والتنوير" لمحمد الطاهر بن عاشور –ج 5 ص: 97 في تفسيره للآية (ط. تونس 1984).

الأحناف، وإن خالفهم المعتزلة وبعض الفقهاء الذين يقولون بالندب، وغيرهم من الذين يقولون بالوقف، كالغزالي ومعظم فقهاء الشافعية. وعندهم أنه لم يقم الدليل على تعيين أحد نوعي الطلب الذي يستلزم مثوبة أو عقوبة. أما المالكية فنظروا إلى الأمر من زاوية المصلحة ومدى الحاجة إليها. ويذهبون إلى أن الله تعالى غني عن الناس، ومن ثم فإنه حين يطلب منهم شيئاً فإنما يفعل ذلك لما فيه خيرهم وصلاحهم. ويستحيل في حقه تعالى أن يطلب منهم ما فيه عكس ذلك. إلا أن المصلحة قد تتفاوت، وتفاوتها يتضح من صيغة الأمر بها، مما قد يؤدي به إلى الوجوب أو إلى الندب أو إلى الإباحة. على أن مما استدل به العلماء على ترجيح الوجوب مواضع ثلاثة:

الأول: قول الله تعالى للملائكة: ﴿اسجدوا لآدم﴾ كما في سورة البقرة (الآية 33). فالصيغة هنا مجردة عن كل قرينة، لاقتصارها على الأمر. ومع ذلك استحق إبليس التوبيخ والعقاب من الله لاستكباره وامتناعه عن الامتثال، واعتبر بذلك من الكافرين.

الثاني: قوله عز وجل يذم عدم الامتثال في سورة المرسلات: ﴿وإذا قيل لهمُ اركعوا لا يركعون﴾ (الآية 48). وهي كذلك صيغة مجردة.

الثالث: التحذير من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم كما في سورة النور (الآية 61): ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

فالمخالفة هنا متوعد عليها، وكل متوعد عليه حرام ؛ ومن ثم فمخالفة أمره حرام. وبذلك يتبين أن الأمر يعني الوجوب، وأن امتثاله يستوجب الرضى والثواب، والامتناع عنه يؤدي إلى الملامة والعقاب. وغير خاف أن ذلك لا يكون إلا في حال آمر له سيادة على المأمور، أي في حال

الأمر الذي يعني طلب فعل شيء من أعلى، وليس في حال آخر كالذي تعنيه الآية الواردة على لسان فرعون في سورة الشورى (الآية 34) وهو يتحدث عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تامرون﴾، فالأمر هنا بمعنى الرأي والمشورة.

ما هي الاستنتاجات التي نستخلصها من هذه الآية؟

شاع عند كثير من المفسرين أن الآية تدعو إلى اتباع كتاب الله وسنة رسوله. فقوله تعالى: ﴿أطيعوا الله﴾ يعني اتباع كتابه، وقوله: ﴿أطيعوا الرسول﴾ يعني اتباع سنته، وقوله: ﴿أولي الأمر﴾ يعني الامتثال لهم فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله.

وعند الطبري أن هذه الآية تشتملُ على مجمل علم أصول الفقه، لأن أصول الشريعة أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس=

1- ﴿أطيعوا الله﴾ إشارة إلى الكتاب

2- ﴿أطيعوا الرسول﴾ إشارة إلى السنة.

3- ﴿أولي الأمر﴾ إشارة إلى الإجماع.

4- بقية الآية ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوهُ إلى الله والرسول﴾ إشارة إلى القياس.

إن مثل هذه الاستنتاجات لها أهميتها وقيمتها، ولكن ما إليها نقصد في سياق هذا الدرس، وإنما نقصد إلى ما يمكن استخلاصه من الآية الكريمة في مجال الفكر السياسي الإسلامي. ونستطيع أن نلخص ذلك في ثلاث نقط:

الأولى: وجوب الإمامة. فقد اعتبر المسلمون أن الإمامة تدخل في مجال التشريع الذي اجتهد فيه المسلمون منذ اختاروا إسنادها لأبي بكر، باعتبارها خلافة للرسول صلى الله عليه وسلم، وإن اختلفوا في كونها

فريضة إسلامية أم ضرورة اقتضتها حياة المسلمين بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

مهما يكن، فقد طرح وجوبها فقهاء السياسة المسلمون، استناداً إلى الآية الكريمة التي نحن بصددها، واعتبروا أن "نصبة الإمام واجبة" كما عند ابن الفراء في (الأحكام السلطانية)[1]، وأن "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع" كما عند الماوردي في (الأحكام السلطانية)[2]. بل إن ابن خلدون يرى "أن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين"[3]. وعند ابن حزم[4] رأي طريف في إثبات وجوب الإمامة يعتمد فيه على قول الله تعالى في سورة البقرة (الآية 286): ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ ليؤكد ضرورة إسناد الأمر لمن ينوب عن أفراد الأمة في تدبير شؤونها، مما لا يستطيعه كل على حدة، ويذهب إلى "أن الله تعالى لا يكلف الناس ما ليس في بنيتهم واحتمالهم. وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته أن قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم في الأموال والجنايات والدماء والنكاح والطلاق وسائر الأحكام كلها ومنع الظالم وإنصاف المظلوم وأخذ القصاص على تباعد أقطارهم وشواغلهم واختلاف آرائهم وامتناع من تحرى في كل ذلك، ممتنع غير ممكن".

[1] ص: 19 (ت. محمد حامد الفقي. ط. دار الكتب العلمية –بيروت).
[2] ص: 3 (ط. الأولى –مصر 1327هـ – 1909م).
[3] المقدمة. ص: 190 (ط. الأميرية).
[4] في (الفصل في الملل والأهواء والنحل) –ج 4 ص: 87 (ط. مكتبة المثنى ببغداد والخانجي بمصر).

وتعتبر سلطة الإمامة "نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا. فصاحب الشرع متصرف في الأمرين: أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها. وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري" على حد قول ابن خلدون[1].

وارتباط الخلافة بالشرعية التي منها تستمد المشروعية حتم أن تكون هذه الخلافة واحدة غير متعددة حتى حين تكثر الأقاليم، طالما أن الدولة الإسلامية تسودها الوحدة، مما جعل فقه السياسة الإسلامي ينتهي إلى أنه "لا يجوز عقد الإمامة لإمامين في بلدين في حالة واحدة" كما عند ابن الفراء[2]، وكما عند غيره من الذين فصلوا القول في القضية.

ولعله واضح أن النص على الوحدة يقتضي وجود الكيان ذي النظام المتكامل والمتماسك، وفق النموذج الذي عرفته الدولة الإسلامية لأول عهودها قبل أن يتسرب إليها التشتت والتمزق وتعدد الكيانات في ظل أوضاع نتج عنها تعدد في الخلافة، بل تعدد في أنظمة الحكم مما أدى إلى استبعاد إمكان قيام الخلافة الواحدة.

هذا رأي أهل السنة، أما رأي غيرهم فتكفينا منه الإشارة إلى ما عند الشيعة والخوارج. أما الشيعة فيقولون بالإمامة ووجوبها "نصا ووصية إما جلياً وإما خفياً" وإن حصروها في علي بن أبي طالب وأولاده لا تخرج منهم "وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده. قالوا: وليست للإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم بل هي قضية

---

[1] المقدمة. ص: 218

[2] الأحكام السلطانية. ص: 25

أصولية، هو ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص"[1].

وأما الخوارج فإن بعض فرقهم كانت لا ترى حاجة الأمة إلى إمام ما دامت تحفظ كتاب الله وسنة رسوله وتسير عليهما. وهو موقف يفضي إلى الفوضوية Anarchisme. ومن الفرق التي دعت إليه (المُحكمة الأولى). ويمثلون أول تنظيم خارجي، وكانوا ينادون بأن "لا حكم إلا لله". ومثلهم (النجَدات) أتباع نجدة بن عامر الحنفي، وكان يرى أن على المسلمين أن يتناصفوا بينهم، إلا إذا لم يستطيعوا ذلك فيجوز أن يقيموا الإمام. ومن قال من الخوارج بالخلافة رآها أول الأمر حقاً لكل عربي حر، ثم عدل هذا المبدأ بعد أن انضم إلى الخوارج كثير من المسلمين من غير العرب، فأصبح ينص على أنها حق لكل مسلم عادل.

من هنا أنتقل إلى النقطة الثانية في الاستنتاجات التي نستخلصها من الآية الكريمة، وتتعلق بتناول حقوق الإمام. وتتلخص هذه الحقوق في السمع والطاعة والامتثال ؛ وهي حقوق أكدتها آيات أخرى معروفة، وكذا أحاديث نبوية كثيرة كقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الوارد في مسند ابن حنبل: **"آمركم بالسمع والطاعة والجماعة"**، وكقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الأحكام: **"من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصا أميري فقد عصاني"**.

[1] الملل والنحل للشهرستاني –ج 1 ص: 195 (بهامش كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل").

وبذلك يتأكد أن المقصود بـ "أولي الأمر" جميع المسؤولين عن شؤون المسلمين المكلفين بمصالحهم والمتحملين أمانتهم في نطاق الشرع وعلى مختلف المستويات.

على أن ربط "أولي الأمر" بقوله "منكم" دليل على أنه يلزم أن يكونوا مومنين مسلمين، وفي طليعتهم الأمراء ومن يكون إلى جانبهم من العلماء وحماة الأمن وقواد الجيش، ومن إليهم من الذين يسيرون على نهج العدل والحق ويدعون إليه وينهون عن غيره. وبهذا فالطاعة مطلقة وليست مشروطة أو مقيدة كما يزعم الشيعة حين يربطونها بالإمام المعصوم.

على أن الأمر بالطاعة مقرون بانتفاء المعصية، وإلا انتفت معها الطاعة. ففي الحديث الذي رواه ابن حنبل وكذلك ابن ماجة في الجهاد "**لا طاعة لمن عصا الله**". ومثله الحديث الذي رواه البخاري في كتاب الأحكام وأبو داود في الجهاد والترمذي وابن ماجة في الجهاد "**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يومر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**".

مقابل هذه الحقوق توجد واجبات على الإمام أداءها والالتزام بها، هي التي ساقها القرآن الكريم ملخصة في الآية السابقة على التي نحن بصددها، وهي قوله عز وجل: ﴿إن الله يامركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾.

فالآيتان معا تضبطان العلاقة بين الحاكم والمحكوم، أو بين الأمير والرعية، وهي علاقة تقوم على الأمانة والعدل من جهة، والسمع والطاعة من جهة أخرى.

وحتى يتسنى للإمام أن يتحمل هذه المسؤولية بما لها من واجبات وحقوق، حدد علماء السياسة المسلمون شروطاً رأوا ضرورة توفرها، وهي:

1- **العلم:** واشتراطه حسب ابن خلدون راجع إلى أن الإمام "إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالما بها ؛ وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها. ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال"[1].

2- **العدالة:** وهذا شرط مفروغ منه.

3- **الكفاية:** وهي شرط مفروغ منه كذلك.

4- **سلامة الحواس:** وهي أيضا مفروغ منها.

5- **القرشية:** وقد اختلف العلماء حول هذا الشرط، وربطه ابن خلدون بالعصبية التي كانت لقريش. وقد وردت فيه أحاديث كثيرة كالذي ساقه البخاري عن ابن عمر: "**إن هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان**"، وكالحديث الآخر الذي رواه معاوية، وهو وارد في البخاري كذلك: "**إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين**".

وقد سبق أن ذكرنا في النقطة السابقة رأي الخوارج في الإمام وما يشترطونه فيه، وكذا رأي الشيعة الذين حصروا الإمامة في علي وأولاده وزادوا فربطوها بالعصمة والمهدوية والرجعة.

وتبقى بعد هذا النقطة الاستنتاجية الثالثة، وتتلخص في أن العلاقة الجدلية التي تربط بين الحاكم والمحكوم من خلال هذه الحقوق والواجبات تقتضي وجود عقد يبرم بين الطرفين، هو الذي تمثله البيعة، اقتداء

---

[1] المقدمة. ص: 193

ببيعات المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وامتثالاً للنص القرآني الذي جعل الله فيه للبيعة مكانة مرموقة حين قرنها بذاته وحذر من نكثها في سورة الفتح (الآية 10): ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجراً عظيما﴾.

*** *** ***

من هذا القسم الأول الذي انصب على تفسير الآية الكريمة، أستسمح جلالتكم في أن أنتقل للقسم الثاني المتعلق بظاهرة شرعية الإمامة في المغرب. وسأتناوله من جانبين:

الأول: مظاهر هذه الظاهرة.

الثاني: تفسيرها.

وأبدأ **بالمظاهر** فأراها تتجلى في الالتزام بجميع المعطيات التي حددتها النقط الثلاثة المستخلصة من الآية الكريمة.

فبالنسبة **لوجوب الإمامة ووحدتها**، نجد أن المغاربة حددوا اختيارهم ونفذوه وحققوه يوم بايعوا المولى إدريس، وكانوا في هذا الاختيار قادرين على اتخاذ القرار بحرية وإرادة ووعي بمختلف الظروف والملابسات؛ كما أنهم كانوا مدركين أنهم باختيارهم ذاك يحددون مصيرهم ويخططون مستقبلهم.

ومن ثم كان سلوك إسحق بن عبد الحميد الأوربي —وهو يومئذ زعيم في قومه وصاحب غلبة وعصبية— حين تنازل عن الأمر للمولى إدريس، ليس ناشئاً عن أي دافع، إلا ما كان من الاقتناع بأنه من آل البيت أصحاب الحق المهضوم. وبذلك كانت بيعته موقفا صريحا وفعليا من الصراع القائم

يومئذ بين العباسيين وبين أسرة المولى إدريس بزعامة أخيه محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية.

ويتكرر الموقف نفسه –وإن في صيغة أخرى– مع المرابطين الذين طرحوا مشكل الخلافة من منظور شرعي يراعي وجوب الوحدة، مما جعل يوسف بن تاشفين يخطب للخليفة العباسي المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد، ويضرب العملة باسمه، ويستأذنه في بسط نفوذه على الأندلس، ويتخذ الشعار العباسي الأسود، ويزيد فيحتفظ لهذا الخليفة بلقب أمير المومنين ويكتفي هو بلقب أمير المسلمين، علماً بأن ابن تاشفين كان يومئذ على رأس أكبر قوة وأعظم دولة، في وقت كانت الدولة العباسية تنهار أو كانت قد انهارت بالفعل ؛ دون أن ننسى أنه كان بهذه التبعية يسعى إلى تكوين حلف سني يكون قادرا على تطويق نفوذ الفاطميين في مصر.

ومن المنظور الشرعي نفسه كان المهدي بن تومرت يثير قضية الخلافة بعد أن حدث الانقسام ووقع تمزق الدولة الإسلامية. فقد ظهر داعياً لنفسه بالإمامة على مستوى الأمة كلها، وزاعماً أن أتباعه هم وحدهم أهل التوحيد، ووضع في ذلك مذهبا دينيا وسياسيا لا يتسع المجال لتناوله.

هذا بالنسبة لوجوب الخلافة ووحدتها، أما بالنسبة لشروط تحمل المسؤولية فقد التزم المغاربة بها، في حرص شديد عليها، ولا سيما شرطي العلم والقرشية.

فيما يتعلق بالعلم، فقد توافر في ملوك المغرب على اختلاف الدول المتعاقبة. وبلغ من توافره إلى حد الاجتهاد والتجديد في بعض الأحيان أن المؤرخين حين صادفوا أميراً دون هذه المرتبة في العلم أقاموا الدنيا حوله. ذلكم يا مولاي هو يوسف بن تاشفين الذي رمي بالجهل والخشونة. وهو

موقف نعرف دوافعه المرتبطة بتصحيح الأوضاع بالأندلس، كما نعرف محركيه بدءاً من الشقندي في رسالته عن فضل الأندلس.

ولست هنا بصدد الدفاع عن ابن تاشفين، ولكن يكفي في دحض زعم خصومه وخصوم الدولة المرابطية أن أذكر أنه قضى فترة بالأندلس، وقبل ذلك أمضى سنوات في رباط الداعية عبد الله بن ياسين، ذلكم الرباط الذي كان مدرسة فقهية وعسكرية أهلت يوسف ليكون على رأس الدولة في أزهى فتراتها، يحقق لها من النصر والاستقرار والازدهار ما شهد به حتى الخصوم والأعداء، علماً بأنه تورع عن إمارة المومنين كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وفيما يتعلق بالقرشية، فقد اعتبرتها الدول في قيامها منذ استقلت الخلافة عن المشرق في عهد الموحدين، على الرغم من الاختلاف القائم بين العلماء حول هذا الشرط.

فالمهدي بن تومرت —وهو من هرغة أحد بطون المصامدة— جعل نسبه في آل البيت عن طريق سليمان بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب. وقد رفع البيدق سلسلة نسبه إلى إدريس بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما خلفاء المهدي، بنو عبد المومن، فالمشهور عنهم أنهم أحفاد مادغيس الأبتر، أي أنهم أبناء عم زناتة، وإن رفع بعض المؤرخين نسبهم إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، لإثبات عروبة أصلهم وقرابتهم القرشية. وهو نفس النسب الذي أثبت المؤرخون لبني مرين.

وتجدر الإشارة إلى أن القرشية نسبة إلى قريش. وقد اختلف النسابون حوله، وإن اتفقوا على كونه أحد أبناء مضر أو حفدته. وعند ابن هشام في السيرة أنه هو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن

نزار بن معد بن عدنان. وعيلان الذي ينتسب إليه المرينيون هو أخ إلياس، إذ أن أباهما واحد هو مضر.

وقد أثبت التاريخ أن السعديين أشراف من ولد محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب. وهم بذلك أبناء عم الأشراف العلويين الذين قدموا من ينبع النخل من أرض الحجاز، والذين يلتقون معهم في محمد بن أبي القاسم، إذ يرجعون إلى الحسن بن القاسم بن محمد بن أبي القاسم. ونسبهم بذلك مرفوع إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أجمع المؤرخون على أن نسب الأسرة العلوية الشريفة من أصرح الأنساب وعلى أن سببها المتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم من أمتن الأسباب.

وحين نصل في تتبع المظاهر إلى البيعة، نجد أن المغاربة اعتمدوها في اختيار الإمام وإسناد الأمر إليه، وفي تنظيم العلاقة بينه وبين الأمة. وهذه حقيقة مستمرة لم تتعرض لأي استثناء منذ البيعة الأولى التي قدمها المغاربة للمولى إدريس بمدينة وليلي يوم الجمعة رابع رمضان عام اثنين وسبعين ومائة الموافق خامس أو سادس فبراير سنة تسع وثمانين وسبعمائة.

وإن من أبرز ما يميز البيعة في المغرب على مر التاريخ أن الذين يقدمونها هم ممثلو الأمة، أي أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف والأعيان، وأنها تكون مكتوبة وعليها إمضاآت المبايعين، وربما وثقت بالإشهاد العدلي، ونودي بها إعلاماً للجماهير بإمامها الجديد مع الدعاء له بالعز والنصر.

وفي هذا الجانب الإعلامي المتعلق بإشهار البيعة على أوسع نطاق، كان للدولة العلوية الشريفة تقليد يقضي بأن تظل معروضة بيعات ملوكها على أنظار الناس في الضريح الإدريسي، معلقة في جدران القبة. وهو تقليد استمر إلى عهد السلطان المنعم المولى عبد الحفيظ الذي ذكر المؤرخ النقيب المرحوم عبد الرحمن بن زيدان أنه "طمحت نفسه إلى الاطلاع على تلك البيعات القديمة المعلقة في قبة الضريح ونال منها مأربه. ولما أراد إعادتها إلى مستودعها المعهود دفع عوضها غلطا رسما على جانب عظيم من الزخرفة والتنميق بالذهب المحلول الخالص الإبريز يتضمن عقود شراء العبيد وفتاوي للعلماء المشاورين"[1]، وهو عقد يرجع إلى عهد المولى إسماعيل.

ومن تقاليد البيعة في المغرب أنها كانت تجدد في المناسبات، وخاصة في عيدي الأضحى والفطر. وقد ربطتم يا مولاي تجديدها بحفل الولاء الذي يقام في اليوم الثاني من عيد العرش، علما بأن أبناء شعبكم الوفي يغتنمون فرصة كل لقاء لهم مع جلالتكم، بل يغتنمون كل مناسبة ليعربوا عن تأكيد الولاء وتجديد البيعة.

ولست في حاجة إلى الإشارة إلى أن البيعات كانت تلح في نصوصها على المسؤولية وما يفرضه تحملها من تفان، مما أعطى للشرعية بعداً قوياً تولد عنه التمسك المتبادل بها والتشبث بمقتضياتها من الطرفين، مهما كلف الأمر من تضحية. يدل على ذلك موقف والدكم المنعم جلالة الملك المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه، حين رفض أن يتنازل أو يساوم، وفضل المنفى مع أسرته الطاهرة. ويدل عليه كذلك إجماع الشعب

---

[1] العز والصولة. –ج 1 ص: 27–28 (المطبعة الملكية –الرباط 1381هـ=1961م).

المغربي على أن يرجع للعرش ملك البلاد الذي غدا رمزاً للشرعية والمشروعية ولجميع القيم الدينية والمبادئ الوطنية.

وكان طبيعيا في سياق هذه الشرعية والالتزام بها أن ينتقد المغاربة تأسيس مجلس حفظة العرش بعد أن اضطرت فرنسا إلى التراجع عن سياستها. وكان البلاغ الرسمي الذي أذيع بهذا الصدد قد علل تأسيس هذا المجلس بأنه "عندما سحب ابن عرفة إلى طنجة بقصد السكنى وبقي العرش فارغاً اقتضت المصلحة العامة تأسيس مجلس".

ولا شك أن انتقاد المغاربة لهذا المجلس كان نابعاً مما في إحساسهم وتفكيرهم أنه يتنافى والشرع، وأن العرش لم يكن فارغا أبداً، سواء في هذه الفترة أو غيرها من فترات المحنة، وأن ملك البلاد هو جلالة محمد بن يوسف الذي تعاهد مع شعبه ببيعة شرعية يتحمل كل منهما تبعات واجباتها والتزاماتها الدينية والدنيوية. ونبع من هذا الإحساس والتفكير بأن العرش لم يكن فارغاً ولو من بعد، شعور راسخ بأن عرش الملك المجاهد في قلوب المغاربة. ومن ثم لم يستغرب الأمر حين رأوا صورته تنعكس على صفحة القمر.

ويجدر التسجيل هنا —بعد استعراض المظاهر الثلاثة— أن هذا التطبيق في نظام الحكم على أساس من المبادئ الإسلامية، واكبه عمل تنظيري مهم تجلى فيما ألفه فقهاء السياسة المغاربة. ويكفيني في هذا المجال أن أذكر:

1- كتاب **الإشارة إلى أدب الإمارة** لأبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي أحد قضاة المرابطين في الصحراء المغربية، بأزكي حيث توفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة للهجرة.

2- **سراج الملوك** لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي المتوفى عام عشرين وخمسمائة للهجرة.

3- **الشهب اللامعة في السياسة النافعة** لأحد كتاب الدولة المرينية هو أبو القاسم بن رضوان المالقي المتوفى بأنفا (الدار البيضاء) سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة هجرية، وكان ألفه للسلطان أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني.

4- **واسطة السلوك في سياسة الملوك** للأمير أبي حمو الزياني المتوفى عام واحد وتسعين وسبعمائة للهجرة.

5- **مقدمة** ابن خلدون المتوفى عام ثمانية وثمانمائة هجرية.

6- **بدائع السلك في طبائع الملك** لأبي عبد الله ابن الأزرق المتوفى سنة ست وتسعين وثمانمائة للهجرة.

بعد هذا –يا مولاي– يحق طرح السؤال حول ظاهرة شرعية الإمامة في المغرب منذ اثني عشر قرناً، في محاولة لتفسيرها ومعرفة سبب وجودها. ويبدو لي أنها راجعة إلى أمرين متداخلين.

أولهما: الإسلام ودوره في توحيد المغاربة وتكوين الكيان على ما في المغرب من تعدد وتنوع.

ثانيهما: استعداد الشخصية المغربية لاعتناق الإسلام وفهمه والاندماج فيه، باعتباره عقيدة وبنية ونظاما متكاملا تشكل في النظرية والتطبيق من خلال النموذج السني الذي هو أقرب إلى الصورة المثلى، باعتباره مرتبطاً بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ومن سار على هديهم من السلف الصالح.

وفي نطاق هذا التفسير يتأكد أن عنصر الدين أساسي وجوهري، ليس باعتباره فاعلاً بمفرده، ولكن باعتباره يحتوي جميع العناصر التي لها مفعولها في إنشاء أنظمة الدول، كالسياسة والإيديولوجيا والعصبية بكل مكوناتها من قوة بشرية أو عسكرية أو اقتصادية.

لقد أذاب الإسلام ما كان في المغرب من غلبة قائمة على العصبية والقبلية، بل إنه استقطب جميع العصبيات والقبليات، من حيث هو عقيدة دينية، ومن حيث هو نظام سياسي واقتصادي واجتماعي، ومن حيث هو فكر يتوسل بأداة واحدة هي العربية ؛ مما أتاح له أن يحتوي جميع عناصر التفريق والتشتيت ويصهرها في بوتقة لتصبح عوامل تقوية للمؤسسة الوطنية السياسية في إطار الإسلام.

وهذا يعني أن قيام الدولة في المغرب على ذاك الأساس وتلك الأجهزة أتاح للمغاربة أن يلتئموا، وأن يكونوا وحدة ؛ أي أن يكونوا شعباً يعيش في وطن تسوده قيم الوطنية، وفي طليعتها الحرية والسيادة.

إن المغاربة ما كانوا ليتصوروا الوطنية والسياسة خارج الإطار الإسلامي الذي ارتبط بالإمامة الشرعية في مجموع شروطها ومقوماتها.

ولعلنا –من هنا– نفهم سر الاجتماع حول الإمام والاتفاق والإجماع عليه حتى في حال قيام معارضة أو نزاع. وقد سمعت في صغري أحد قواد جيش الودايا يحكي عن بعض الاضطرابات التي عرفها المغرب في نهاية القرن الماضي وأول الحالي، والتي اضطرت السلطان إلى التدخل، ولعله يومئذ المولى الحسن الأول رحمه الله. فما كاد يظهر في الساحة حتى تنادت الأطراف المتنازعة بوقف الاقتتال، معلنة بلسان واحد: "الصلا على النبي، الشريف اوْصل".

وهذا يعني:

أولا: أن الإمام فوق جميع الاعتبارات.

ثانيا: أن مفهوم البيعة الشرعية يفضي إلى الإجماع الملزم لكل أفراد الأمة حتى للأقلية التي قد لا تكون راضية، إن وجدت هذه الأقلية.

ثالثا: أن الإحساس الديني القوي يحث على الإيمان بأنه "**لا تجتمع أمتي على ضلالة**" رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير، وبأن "**يد الله مع الجماعة ومن شذّ شُد في النار**" رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر، وبأن "**من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه**" رواه مسلم عن عرفجة.

مولاي صاحب الجلالة،

إن عنصر الدين كان الفاعل الأساسي في قيام جميع الدول التي تعاقبت على المغرب. وهذه الدول جميعها كانت تؤسس حكمها على النظام الإسلامي بتتبع حرفي لكل مبادئه وأصوله وشروطه، على النحو الذي شرحنا من قبل.

ومن هنا —ومع الاعتذار لمقامكم العالي إن كنت مخطئاً— استسمح في الحديث عن دولة واحدة في المغرب منذ المولى إدريس إلى الآن وليس عن دول. وهي دولة تواصلت حلقاتها على امتداد التاريخ من خلال أسر حاكمة يلي بعضها البعض في عملية مستمرة للإمداد والإصلاح والتجديد والتقوية.

وهذه الحلقات في تتابعها عرفت نمواً وتطوراً من حيث هي مؤسسة دينية جامعة تنصهر في بوتقتها مختلف المقومات السياسية والعسكرية

والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، أي جميع العناصر الفاعلة في تشكيل أنظمة الحكم وتثبيت أنواع السلطة.

ومن هذا المنظور والتحليل ننتهي إلى أن مرحلة الأسرة العلوية الشريفة تعتبر حلقة أعلى في مسيرة الدولة المغربية بما حققته على جميع المستويات وعلى مختلف الأصعدة، انطلاقا من الإمامة الشرعية التي تستوعب باقي القيم والمقومات.

ولا عجب في قانون هذه المسيرة أن يكون عهدكم يا مولاي أزهى وأزهر وأرقى من كل ما سبقه. وكيف وقد تجمع في شخصكم الكريم ما تفرق في غيركم من محاسن ومزايا وفضائل. ففي نطاق الإمامة الشرعية التي قامت دعائمها على الكتاب والسنة، وفي إطار ما أجمله هذان الأصلان مما هو متغير غير ثابت، وما فصلاه مما هو ثابت لا يقبل التغيير، أبدعتم فكرا سياسيا جديدا خرجتم به من التنظير إلى التطبيق، دون حصره في مؤسسات جامدة، فأتحتم لنظام الحكم من التطور والنمو ما يتسنى له به أن يساير حركة تطور المجتمع وتقدمه، وأن يواكب الصالح مما يجد في العصر. وقد تجلى ذلك في إقامة ملكية دستورية تفتح الباب لمشاورة الأمة وإشراكها من خلال برلمان ومجالس بلدية وقروية، وفي سعي إلى لامركزية تجعل الشعب يمارس عن قرب وبفعالية وإيجاب جميع حقوقه وواجباته.

إنكم بهذا يا مولاي تراعون المصالح الوقتية والظروف المتغيرة، وفي نفس الوقت –وهنا سر عبقريتكم وتجديدكم– تظلون مرتبطين بنموذج الخلافة التي أقامها الراشدون ومن سار على هديهم من الذين التزموا بالمبادئ الأساسية للحكم الإسلامي في صورته الأولى المثالية.

فلا عجب —في نطاق هذه المعادلة الصعبة الشائكة— أن تنطلقوا في مسيرات للتشييد والتوحيد والإبداع، بوأتكم مكان الصدارة بين المجددين في هذا القرن وكل قرن، ليس على مستوى الوطن فحسب، ولكن على مستوى الأمة العربية والإسلامية وعلى صعيد العالم كله كذلك. وذلكم بما أحدثتم من نهضة شاملة أتاحت للمغرب وتتيح له أن يعيش عصره ويساهم بفعالية وإيجاب في حركة التقدم والرقي من منظور متميز يتطلع لآفاق المستقبل ويتوسل بفكر منفرد خلاق فاق كل ما هو معهود، بشموليته وتنوعه وأصالته وتفتحه، وبما يصحبه من وعي عميق ورؤيا نافذة وطاقة استيعابية وقدرة إبداعية في مختلف مجالات المعرفة وفنون التعبير وبشتى الأدوات.

أبقاكم الله يا مولاي حصنا منيعا للإسلام، تحفظون شريعته وتنفذون أحكامه وتنشرون قيمه وتقيمون مؤسساته وترعون رجاله ؛ وحفظكم ذخرا للأمة ورمزا للوحدة وقائدا للمسيرة ورائدا للنهضة ؛ وأدامكم للعرب والمسلمين والإنسانية جامع الكلمة ورائب الصدع وموحد الهدف والصف وملاذ الرأي السديد والفكر الثاقب وملجأ الخير والنجاة ومناط جميع الآمال ؛ وخلد العرش العلوي المجيد رمزا للفكر القويم وشعارا لجمع الشمل وصون الكيان وحفظ العقيدة وآصرة قوية لا تنفصم عراها إلى يوم الدين ؛ وأقر عين جلالتكم والمغاربة أجمعين بولي عهدكم المحبوب قدوة الشباب وقلادة الأجيال صاحب السمو الملكي الأمير الأمجد سيدي محمد وصنوه السعيد المولى الرشيد وجميع أفراد الأسرة الشريفة الطاهرة.

﴿ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف

عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ سورة البقرة (الآية 285). صدق الله رب العالمين.

والختم من مولانا أمير المومنين، والسلام على مقامكم الأمين.

روح المنهج العلمي
في الإسلام

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف المروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه :

"طلب العلم فريضة على كل مسلم".

ألقي بقصر الرياض في الرباط

يوم الخميس 23 رمضان المعظم 1410هـ

الموافق 19 أبريل 1990م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لسم الله الرحمن الرحيم.
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد،
وعلى آله وصحبه أجمعين

اللهم إني أدعوك باسمك الأعظم الأجل، أن تشرح صدري وتنير بصيرتي، وتفتح لي باب الفهم عنك وبك، وتمدني بعون منك، حتى لا يجنح بي فكر أو يزل تعبيري.

مولاي أمير المؤمنين، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

بأي لسان أعرب عما يخالجني من شعور بالشرف والسعادة وأنا أمثل بين يدي جلالتكم مرة أخرى، أتملى بطلعتكم البهية، وأستمد من حضرتكم الشريفة السنية، وبأية لغة أعبر عما يغمرني من إحساس بالفخر والاعتزاز، وأنتم تحسنون الظن بي، فتدعونني للمشاركة المتوالية في دروس مجلسكم العلمي المتفتح. إن اللسان ليعجز عن البيان، وإن اللغة لتضيق عن التعبير، وكيف وقد أسعدتم حظي فجعلتموني أنتظم في سلك مدرستكم الحسنية أقتبس من عبقريتكم الفذة، وأستمد من نور إبداعاتكم المتميزة، وأتنسم في أبهاء هذا المجلس العلمي الموقر، وفي رحاب هذا القصر العامر، أتنسم عبير سنة جدكم المطهر، هذه السنة التي أنتم بها ملتزمون، وعلى هديها سائرون، وبضوئها مستنيرون ولسان حالكم يقول:

دين النبي محمّد مُختار *–* نعم المَطِيّةُ للهدى الآثار
لا تَرغَبن عن الحديث وأهلِه *–* فالرأيُ ليل والحديث نهار

أما بعد، فأستأذنكم –يا مولاي– في أن أتناول الحديث الشريف: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**". وإني لأتناوله في هذا الجو المفعم بروحانية السنة، فليعنكم يا مولاي بما أنتم نائلون، وبما أنتم حظون، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**إن الله يدخل العبد الجنة بالسنة تمسك بها**"، ويقول رسول الله (ص): "**المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد**".

هذا الحديث يا مولاي، سأتناوله في القسم الأول من هذا العرض، ومنه أنطلق للحديث عن روح المنهج العلمي في الإسلام. هذا الحديث على الرغم من أنه شائع وذائع وكثير التداول، فإن تحقيقه وتخريجه ليس بالأمر الهيِّن، فقد نظرت في مختلف رواياته، واهتديت إلى أن أجمعها في خمس روايات:

الرواية الأولى هذا نصها: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**". فقد أُخْرِجَ هذا النص من طرق متعددة رتبتها حسب الراوي الذي يأتي في أعلى السّند، فوجدت هذه الطرق ستة:

أولاً: أخرجه عن أنس بن مالك، عبد الله بن عدي الجرجاني في كتابه الكامل الذي ألفه في معرفة الضعفاء، وكذلك أخرجه عن أنس، الحافظ يوسف بن عبد البر القرطبي في كتابه عن العلم.

ثانياً: أخرجه عن الحسين بن علي أبو القاسم الطبراني في معجمه الصغير، وعن الحسين كذلك أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه على أنه ضعيف لضعف أحد رواته هو عبد العزيز بن أبي فارس.

ثالثاً: أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط الذي ألفه في مراتب شيوخه عن ابن عباس، وقال إنه ضعيف لضعف أحد رواته هو عبد الله بن عبد العزيز بن أبي داود.

رابعاً: أخرجه أبو القاسم تمام بن محمد البجلي الرازي الدمشقي في كتاب الفوائد عن ابن عمر بن الخطاب، وتَمَّام هذا مغربي الأصل.

خامساً: أخرجه الطبراني في معجمه الكبير المصنف في أسماء الصحابة عن ابن مسعود.

سادساً وأخيرا من طرق هذا النص: أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط وكذلك البيهقي في شُعَبِ الإيمان عن أبي سعيد. هذه هي طرق الرواية الأولى.

الرواية الثانية هذا نصها: **"طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب"**. رواه ابن ماجه في مقدمة سننه عن أنس بن مالك وضعفه المنذري والمناوي، وعلق عليه في الزوائد بأن إسناده ضعيف، لضعف أحد رواته، وهو حفص بن سليمان.

الرواية الثالثة هذا نصها: **"طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر"**. أخرجه ابن عبد البر في كتابه العلم عن أنس بن مالك بوجوه كثيرة كلها معلولة حسب قول المناوي في فيض القدير.

الرواية الرابعة يقول نصها: **"طلب العلم فريضة على كل مسلم، والله يحب إغاثة اللهفان"**. أخرجه البيهقي في شُعَبِ الإيمان، وابن عبد

البر في كتاب العلم عن أنس بن مالك، وقال عنه المناوي: مَتْنه مشهور وإسناده ضعيف.

الرواية الخامسة والأخيرة هذا نصها: **"أطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم"**. هذه الرواية وردت من ثلاث طرق:

أولاً: أخرجها الحافظ عبد الله بن عَدِيّ الجرجاني عن أنس، وعند ابن حبان في صحيحه المسمى بـ "التقاسيم والأنواع" أنه باطل لا أصل له بسبب تجريح اثنين من رواته هما: الحسن ابن عطية وأبو عاتكة. وبهذه الرواية أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عبد البر في كتاب العلم، وكذلك تَمَّام من طرق عن الحسن.

ثانياً: ساقه ابن عبد البر عن أنس مرفوعاً، إلا أن الذهبي في الميزان طعن في أحد رواته، وهو يعقوب بن إسحاق العسقلاني.

الطريق الثالث والأخير لهذه الرواية: وردت في الميزان للذهبي عن أبي هريرة. ولكن توالى الطعن في اثنين من رواته هما: أحمد بن عبد الله الجويباري أو الجوباري وابن كرام السجستاني أو ابن كَرَام، لأنه كان متهماً بالتجسيم، وهو صاحب الفرقة الكرامية المنسوبة إليه.

هذه يا مولاي، هي الطرق التي وردت عليها مختلف روايات هذا الحديث. وأَود أن أعلق عليها بثلاث ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أن هذا الحديث يتراوح في مختلف رواياته بين الحُسْن والضعف، وليس يخفى أن الحديث الحَسَن هو الذي يخلو من الشذاذة والعلة، فهو الذي يكون في سنده عدل خفيف الضبط. هذا بالقياس إلى الصحيح الذي يكون العدل في سنده تام الضبط. أما الضعيف فهو الذي لا تتوافر فيه شروط الحسَن ولا شروط الصحيح. وقد أوصل العلماء صور الضعيف

إلى نحو من ثمانين وثلاثمائة صورة. ومع كل النقد الذي وجه لسند هذا الحديث، فقد كان أقرب إلى الحُسْن إن لم أقل إنه كان أقرب إلى الصحيح. فقد سئل الشيخ النووي عن هذا الحديث فقال: "إنه ضعيف أيْ سَنَداً ولكنه صحيح أيْ معنًى". وقال تلميذه جمال الدين المُِزّي: "هذا الحديث روي من طرق تبلغ درجة الحسن". وقال السيوطي: "جمعتُ له خمسين طريقاً وحكمتُ بصحته" وزاد فقال: "لم أصحح حديثاً لم أُسْبَق بتصحيحه سواه". أما الْمُنَاوي فقال: "إن أسانيده ضعيفة لكنْ تَقْوَى بكثرة طرقه".

هذا بالإضافة إلى أن جميع هذه الروايات على اختلافها تتفق في ذلكم الجزء من الحديث وهو: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**".

الملاحظة الثانية: أن معظم سند هذا الحديث على اختلاف الروايات يرتبط بالصحابي الجليل أنَس بن مالك الخزرجي الأنصاري خادِم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد قال: "جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأنا ابن عشْر سنين وتوفي وأنا ابن عشرين سنة"، عُمر طويلاً، وهاجر من المدينة بعد وفاة الرسول إلى دمشق، ومن دمشق إلى البصرة، وفيها توفي، توفي سنة إحدى وتسعين أو اثنتين وتسعين. وقيل: أكثر. وتوفي بالبصرة وهو آخر الصحابة الذين توفوا بالبصرة، وليس آخر صحابي توفي على الإطلاق كما قد يظن، يقول العراقي في ألفيته:

أبو الطفيل مات عام مـائـة *-* ومات آخـرا بغير مِـرْيـة

وابن أبي أوفى قضى بالكوفة *-* وأنـس بن مـالـك بالبصرة

إذن، أنس بن مالك، إنما هو آخر صحابي توفي بالبصرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو له فيقول: "**اللهم ارزقه مالاً وولداً، وبارك له بالفعل**"، فإن أنساً يقول: "إني لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً.

أما **الملاحظة الثالثة والأخيرة:** فهي أنه على الرغم من حال هذا السند المتأرجح بين الحسن وبين الضعف، فإن المعنى صحيح، بالنسبة لهذا الحديث في مختلف رواياته. ولنأخذ مثلاً الرواية التي تقول: "**أطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم**". هذا حديث صحيح في معناه، لأنه يسير في سياق العلم في الإسلام، وفي سياق ما ينتظر طالب العلم، لا سيما وأنه معزز من جهات أخرى، معزز بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فلولا نَفَر من كلِّ فِرقةٍ منْهمْ طائِفة ليتَفقَّهُوا في الدّين وليُنذِروا قومَهُم إذا رجعوا إليهم لعلَّهم يحْذرُون﴾، ومعزّزاً كذلك بأحاديث نبوية أخرى كقوله عليه الصلاة والسلام: "**من سَلَك طريقاً يلتمِس فيه عِلْماً سهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنّة**". (سهل الله له طريقا إلى الجنة)، هذا المعنى كثير ووارد عند المُرَبِّين، وعند الذين عُنُوا بالعلم وبالتعليم، ونجده وارداً كثيراً عند أصحاب المنظومات التربوية، كالمنظومة التي أنشأها الأديب المغربي المساري (سراج الطلاب)، وقد توفي سنة أربعين ومائتين وألف، في هذه المنظومة يقول:

ولْتَطْلُبِ العلم ولو بالصين *-* بذا أتى الحديث عن يقين

بعد هذا ننظر في معنى الحديث "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**". ليس في هذا الحديث ما يستوقفنا إلا كلمتان اثنتان: فريضة وعلم. فريضة من فَرَض يَفْرِض فَرْضاً، أي أوْجَب. الفرض هو الواجب، والواجب هو الذي يُذَمُّ على تركه ويعاقَب عليه. عند الإمام أبي حنيفة أن الفرض أقوى من الواجب، لأن الفرض عنده هو ما استند إلى دليل قطعي، يقوم على الكتاب وعلى السنة المتواترة. أما الجواب فإنه يستند إلى الدليل الظني

كخبر الآحاد. إذن فرَض يفرِض فرْضاً، ويقال كذلك: فرَّضَ، يقول الله تعالى في أول سورة النور: ﴿سورةٌ أنزَلْناها وفرَضْناها﴾ هي قراءة الجمهور، ولكن ابن كثير وأبا عمرو قرءا هذه الآية: ﴿سورةٌ أنزَلْناها وفرَّضْناها﴾ بتشديد الراء، والتشديد هنا للمبالغة، ولتقوية المعنى كما هو معروف في العربية، يقول الزمخشري:

كأنَّه عـاملٌ في ديـن سُـؤْدَدِهِ ـ بسُـورةٍ أُنْزِلَتْ فيه وفُرِّضَـت

والفريضة، صفة جعلت اسماً فدخلت عليها الهاء، هذا بالنسبة لكلمة الفريضة.

أما العلم، اختلف العلماء في مدلول العلم هنا، أي العلم الذي يكون فرْضاً، ويمكن أن نقول إن العلم هنا نوعان:

نوع يكون فرض كفاية، ونوع يكون فرض عيْن. أما الذي يكون فرض كفاية فهو العلم المتخصص، والعلم الذي يَتَبَحَّر فيه أصحابه إذا قام به البعض سقط عن الآخر. ثم هناك العلم الآخر الذي هو فرض عين. وقد أجمع الفقهاء والعلماء على أنه ما ينبغي معرفته للمسلم، من شؤون التوحيد ومن شؤون الفقه، وكذلك من شؤون معاشه، ولعلنا هنا أن نربط هذا العلم الذي يعتبر فرض عين، أن نربطه بالتربية الأساسية وبمحو الأمية، هذه الأمية التي تتفشَّى في عالمنا الإسلامي والتي ما أَحْوَجَنا إلى أن نتدبر أمرها، وما أحوجنا إلى أن ننظر فيها من خلال الرسالة التوجيهية التي وجهتموها للأمة يا مولاي في أول هذا العام. إدراك الناس، والعامةِ منهم لمعنى هذا الحديث ومغزاه العميق، وأن العلم فريضة على كل مسلم، هو الذي جعل الناس يرْوُونه بنص لم يرِدْ قطّ في أية رواية وهو قولهم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" المعنى صحيح لا شك، لأن النساء شقائق الرجال في

الأحكام، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "المسلم"، يُدخِل كذلك المسلمة، ولكن لفظ الحديث لم يَرِدْ فيه لفظ مسلمة.

*** *** ***

من هنا يا مولاي، أستأذنُ في الانتقال إلى القسم الثاني من هذا العرض.

إن كون العلم فرضا أي واجبا وجوبا لازما، يربطه بالعبادة بل يجعله عبادة. وحين أقول: إن العلم عبادة نقرِنه بجملة صفات لا بد أن تتوافر لمن يعبد الله، وهي الوَرَع، والتقوى، والصدق، والأمانة، والنزاهة الفكرية والاستقامة الخُلُقيّة، وما إلى ذلك. ويمكن أن أقتصر على بعض المقتضيات التي يتطلبها العلم باعتباره عبادة، هذه المقتضيات الأربعة هي:

أولاً: التقوى: ﴿واتّقوا الله، ويُعلِّمُكُمُ الله﴾. ﴿إن تتّقوا الله يجعلْ لكم فرقاناً﴾، أي فارقاً بين الحق والباطل.

ثانيا: الضمير: ﴿إنما يخشَى الله من عبادِه العلماءُ﴾، فهنا يا مولاي أستحضر كلمتكم الذهبية، التي وردت في خطابكم بمسجد لبنان في أگـادير، حين قلتم: "إنّ مَن لاَ ضميرَ لهُ لا علْمَ له".

المقتضى الثالث: العمل والنفع: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا تكون بالعلم عالِماً حتى تكون به عاملاً**". ويقول كذلك رسول الله (ص): "**أعوذ بالله من عِلْمٍ لا ينْفعُ**".

المقتضى الرابع: الاعتدال وعدم الغُلُوّ: ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسَطاً﴾. "**خير الأمور أوسطها**"، "**إنّ الدّين يُسْر، ولن يشادَّ الدّين أحدٌ إلاَّ غلَبَه**"، هنا يكمن روح المنهج العلمي في الإسلام، المنهج العلمي النابع

من المعرفة الإسلامية، المتصلة بالكتاب والسنة، وهو روح يتجاوز ما هو متعارَف عليه اليوم في مجال العلم والبحث العلمي، من موضوعية وحياد وأمانة. ثم تأتي بعد ذلك جملة عناصر مكوِّنة للمنهج، هذه أبرزها:

أولاً: تقديم الأدلة والبراهين والحجج، لأنها الفيْصل بين الصحيح وبين الخطأ: ﴿قل هاتوا برهانكمُ إن كنتُم صادقين﴾.

ثانياً: الابتعاد عن الظَّن: ﴿قل هل عندكم من علمٍ فتخْرجوهُ لنا، إن تتّبعون إلا الظّن وإن أنتُم إلا تخْرصُون﴾.

ثالثاً: النهي عن القول بغير علم: ﴿إذ تلقَّوْنهُ بألسِنتكم وتقولون بأفْواهكُم ما ليس لكم به علم وتحسَبونه هيِّناً وهو عند الله عظيم﴾.

رابعاً: اتساع العلم وعدم إمكان حَصْرُه: ﴿وما أوتِيتم من العلم إلاّ قليلاً)، ﴿وقلْ ربِّي زِدني علماً﴾.

خامساً: نسبة الحقائق العلمية وتطورها: ﴿ولا يحيطُون بشيء من علْمه إلا بما شـاءَ﴾.

سادساً: التخصص: ﴿فاسألوا أهلَ الذّكر إن كنتُم لا تعلمون﴾.

سابعاً: حرية التعبير: ﴿الرّحمن علَّم القرآن، خلقَ الإنْسان علَّمهُ البيَان﴾، جعل الله تبارك وتعالى البيان نعمة تأتي بعد نعمة الخلق، ﴿ولا تلبِسوا الحقَّ بالباطل، وتكتُموا الحقَّ وانتُم تعلَمون﴾.

قد يقال: وأين الشكّ الذي هو مفتاح الوصول إلى الحقيقة ؟ يجاب بأن هذا الشك أساسيٌّ في المعرفة الإسلامية وفي المنهج الإسلامي، ولكن هذا الشك ليس من ذلكم النوع الذي يفضي إلى الاضطراب وإلى الانزعاج والقلق والارتياب، ولكنه الشك الذي يفضي إلى الطمأنينة. ﴿وإذ قال إبراهيمُ ربِّ

أرني كيف تُحيي الموْتى ؟ قال أوَ لم تومنْ ؟ قال: بلى. ولكنْ ليطمئِّن قلبي﴾، (بلى حرف جواب وتصديق).

على أساس هذه العناصر وعلى أخرى غيرها مما لا يتسع الوقت لتناوله تشكلت المعرفة الإسلامية، ومعها تشكَّل المنهج الإسلامي، وهي معرفة تقوم أولاً على الحِسِّ —ولكنه ليس الحِس في شكله الساذَج أو في شكله البسيط السطحي الذي يكتفي بملاحظة الأشياء وبرصد الظواهر— ولكنه الحِس الذي ينْفُذُ إلى الأعماق، ويدرك الأسرار، ويدرك كنْه الأشياء، ويصل إلى العلاقات التي تربط بينها. ثم إن المعرفة الإسلامية تقوم ثانياً على التجربة، التجربة لأنها هي التي تعمِّق البحث وهي التي تفضي إلى التحليل، وتفضي إلى الكشف عن أعماق الأشياء. وقد يصل الأمر في التجربة إلى قضية الإيمان، على حدّ ما رأينا عند إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿ربِّ أرني كيف تُحيي الموْتى﴾ فقد قال له الله عز وجل: ﴿فخُذْ أرْبعةً من الطّير فصُرهُنَّ إليكَ ثمَّ اجْعلْ علَى كلِّ جبلٍ مِنهنَّ جزءاً ثمَّ ادعُهُنَّ ياتينك سعْياً، واعلَمْ أنَّ الله عزيزٌ حكِيم﴾. إبراهيمٍ عليه السلام سيأخذ أربعة من الطير من أنواع مختلفة، وسيَقْطَعُها أو يُقَطِّعُها أجزاءً، ثم يضع هذه الأجزاء في أركان مختلفة، ثم يدعو هذه الأجزاء فتأتي الطيور على ما كانت عليه في الأصل. إذاً كان لا بد لإبراهيم أن يطمئِّن ويزول عنه كل شك بما شاهده وليس عن طريق التخمين أو عن طريق التصور. إذن هناك الحسّ، وهناك التجريد. ثم هناك في الدرجة الثالثة المعرفة الإسلامية تقوم على العقل بالتأمل والاستنباط، وتقوم على المنطق دون الانشغال بالغيبيات ودون الاهتمام بالمَاوَرائِيَّات، التي طرحها الإسلام، وطرح حُلولَها معها، حتى لا ينشغل الناس بها.

وتحضرني هنا يا مولاي قصة تلكم المرأة التي وطئت على ثياب الرازي فقيل لها في ذلك: إنكِ وطئْتِ على ثياب رجلٍ لو أراد أن يقيم مائة دليل على وجود الله لفَعَل"، فقالت هذه المرأة العجوز بعفوية وتلقائية: "لو عرف الله حق المعرفة ما احتاج إلى دليل واحد". من هنا كانت المعرفة في الإسلام تبتعد عن الماورائيات والغيبيات، لأنها محلولة في القرآن وفي السنة، ولكنها تعتمد على العقل وعلى الحس وعلى التجريد. ﴿ولا تقفُ ما ليس لكَ به علمٌ، إن السّمعَ والبصرَ والفؤادَ كلّ أولئك كان عنهُ مسؤولاً﴾، لأن هذه المعرفة تجمع في المنهج بين الدليل الاستنتاجي المنطقي، وبين الدليل التجريدي التطبيقي، فهي بذلك ليست غيبية كما يزعم خصوم الإسلام، بل هي بذلك تتجاوز المعرفة، والمناهج اليونانية القديمة والأوروبية الحديثة التي لم تعرف المنهج التجريدي إلا في القرن الثالث عشر على يد "روجي بكو" ، وبعد ذلك على يد "فرنسيس بكو"، بل إنها تتجاوز المعرفة اليونانية القديمة ومناهجها، تلكم المعرفة التي كانت تعتمد على الجواهر وعلى المثُل وعلى الأشياء المجردة ولا تتعامل مع الخَلْقِ ومع الكائنات إلا عن طريق معطيات الحدْس. ذلكم يا سيدي باختصار شديد روحُ المنهج العلمي في الإسلام.

ولكن قد يقال: لماذا الإلحاحُ على روح المنهج؟ وهل للمنهج روح؟ وهل لبقية المناهج روح؟ وهل للمنهج من حيث هو روح؟

لقد جاء أن المنهج هو مجموعة من الطرائق، وأنه خطة تقوم على مقاييس وقواعد يسير عليها العلم ويسير عليها البحث. ذلكم يا مولاي، جزء من المنهج وهو الذي نعتبره جزءاً منظوراً، أو جزءاً مرْئياً، ولكنَّ للمنهج جانبا آخر غير مرئي ولا منظور هو الذي يتمثل في الوعي، ذلكم

الوعي الذي يتكون انطلاقاً من معطيات معرفية ومن أحاسيس ذاتية. ثم إلى جانب الوعي، هناك الرؤية وهناك التصوّر، ثم هناك الهدف الذي يريد العالم أو يريد الباحث أن يحققه من وراء بحثه.

المنهج، يا مولاي، منظومة متكاملة تبدأ من الوعي والرؤْيا وتنتهي إلى الهدف. وبين هذا وذاك، هناك تلكم الوسائل وتلكم الأدوات، التي تسمى أدوات إجرائية يتوسل فيها أو يتوسل بها في البحث. يوم كان الفكر العربي الإسلامي يلتزم بهذا الروح أبدع المعرفة وأبْدَعَ معها مناهجها. وعلى الرغم من أن المناهج كانت متعددة تعدُّد العلوم، فللمُحَدثين مناهجهم، وللفقهاء مناهجهم، وللمتكلمين والأصوليين، وللنحاة وللأطباء وللفلاسفة، ولكل نوع من أنواع العلم منهجه، بل لرُبَّما كان لكل عالم متخصص منهجه المتميز، ولكن هذه المناهج كلها كانت تنطلق من هذا الذي قلنا: إنه روح المنهج العلمي في الإسلام، من منطلق هذا الروح كان إبداع المسلمين المعرفي والمنهجي.

أولاً: في نطاق معطيات الإسلام.

ثانياً: دون إهمال ما هو في تراثهم من أشياء إيجابية.

وثالثاً: مع تفتح بدون حدود على المستحدثات، وعلى ما اقتبسوه من الأمم والشعوب الأخرى، يقتبسون وينقلون ويترجمون بدون أية عقدة وبدون أي مركب، ولكنهم كانوا يفعلون من موقع القوة، ومن موقع القدرة على النقد وعلى الاختيار. ولكن حين أخذ هذا الروح في التقلص وحين أخذ في الانكماش إلى أن غُيِّبَ -أو كاد- بدأ الفكر الإسلامي في الانحسار وفي الانزواء إلى أن وصل إلى التخلف. ربما من بين مظاهر هذا التخلف شيوع التقليد وتوقف الاجتهاد، وربما من بينها كذلك انعدام حرية التعبير. ولكن -في اعتقادي-

أن بوادر هذه المرحلة ظهرت في وقت مبكر، مقترنةً ببداية الخَلل الذي مس التوازن بين هذه المعطيات الثلاث: معطيات الإسلام، التراث، والمستحدثات. حين بدأ الخلل يمس التوازن بين هذه الأقطاب الثلاثة بدأ تقهقر الفكر العربي الإسلامي. وقد تجلى هذا الخلل في ثلاث ظواهر:

أولاً: الدخول في متاهات الماورائيات والغيبيات. وقد رأينا من قبل أن المعرفة الإسلامية الحق، تبتعد عن الغيبيات لأنها مطروحة في الإسلام طرحاً نهائياً.

ثانياً: من ظواهر الخلل: النظر إلى هذه القضايا الماورائية من منظور غير إسلامي.

ثالثاً: وضع الدين في مقابل الفلسفة ومحاولة المقارنة بينهما فيما عُرف بالتوفيق بين الشريعة والحكمة أو بين الدين والفلسفة. ولعل أبا يوسف يعقوب الكندي الفيلسوف العربي المشهور المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين أو ستين ومائتين، لعله من أول الذين طرحوا هذه المقارنة، أو هذا التوفيق بين الدين والفلسفة، قال في أول الأمر: إن الدين يساوي الفلسفة، لأن كلا منهما يطلب الحق، والحق واحد، والحق لا يضاد الحق. ومن ثَمَّ فإن الدين يعدل الفلسفة، ولكنه لم يلبث أن قال: إن الدين أعلى من الفلسفة لأن الوصول إلى الحقيقة أو إلى الحق عن طريق المعرفة الربانية أي عن طريق الوحي هو أسهل من الوصول إلى الحق عن طريق المعرفة المكتسبة. وزاد قائلا: إن البراهين القرآنية هي أوجزُ وأسهل وأوضح وأكثر إقْنَاعاً من البراهين المنطقية. ولكننا حين نصل إلى الفارابي المتوفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة نجده قد غلب عليه التأثر بالفلسفة اليونانية، ولا سيما بالفلسفة الأرسطية، والأفلاطونية الحديثة " Néo

Platonisme" نجده يطرح مسألة الألوهية من منظور غير إسلامي، أفضى به إلى القول بأن الله تعالى عقلٌ خالص أو عقل بالفعل، أو هو جوهر معقول لذاته، ثم طرح مسألة الخلْقِ اعتماداً على نظرية الفيض "L'émanation" التي قال بها فيلسوف الإسكندرية فلوطين "Plotin". هذه النظرية تقول: إن هذا العقل الجوهر فاضت عنه جملة عقول، أوصلها إلى عشرة عقول، وقال: إن هذا العقل العاشر الذي هو العقل الأخير، هو الذي يسأل أو هو الذي وُكلت إليه معرفة العالم الكوني والعالم الآخر. وقال: إن الله —أي انتهى إلى القول— بأن الله تعالى لا يعْلَم الجزئيات، لأن عِلْمَهُ بالجزئيات يُلْحِقُ بذاته الفساد والتغير. —تعالى الله وتبارك عن ذلك—.

أين نحن من قول الله تعالى: ﴿ومَا يَعْزُبُ عن ربّك من مثْقال ذرَّة في الأرض ولا في السّماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبَرَ إلاّ في كتابٍ مبين﴾ ؟ وأين نحن كذلك من قوله عز وجل: ﴿وعندَه مفاتِحُ الغيْبِ لا يعلَمُها إلا هُو، ويعلمُ ما في البرّ والبحْر وما تسقطُ من ورقةٍ إلاّ يعلمُها ولا حَبّةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ولا رطْبٍ ولا يابِسٍ إلاّ فِي كتابٍ مبين﴾ ؟

وتحت تأثير الفلسفة اليونانية، ولا سيما الفلسفة الأرسطية التي تقول بجوهر النفس وانفصالها عن الجسم، قال: إن البعث لا يكون إلا بالنفوس، ولا يكون بالأجسام، متغافلاً عن قول الله تعالى: ﴿قال مَنْ يُحيي العظامَ وهي رمِيم، قل يحييها الّذي أنْشأَها أوَّل مرّةٍ، وهو بكلّ خلْقٍ عليمٌ﴾.

هذه الآراء يا مولاي اقتَبَسَتْ الفلسفة اليونانية، ولكنها لم تقتبسْها في منهاجها من حيث هي أدواتٌ، ولكنها تأثرت بهذه الفلسفة من حيث هي روح، وبالمنهج من حيثُ هو روح، ولهذا زاغت عن الجادة. وعلى مثل هذه الآراء انْتفض أبو حامد الغزالي في كتابه "تهافُت الفلاسفة"، ثم جاء أبو

الوليد ابن رشد، فيلسوف قرطبة، وكتب يَرُدُّ على الغزالي في "تهافت التهافت" وكتَب فصْل المقال، يحاول أن يُصْلِحَ ذات البين بين الفلسفة وبين الدين.

هذا يا مولاي، مجرد مظهر، وهو مظهر مبكر يكشف عن بداية الابتعاد عن روح المنهج العلمي في الإسلام، وإن جاء هذا المظهر على صورة العقل، وبطريقة إعمال العقل، مما يُغْرِي به، وكأن الإسلام لا يعتمد العقل، وهل نحن في حاجة إلى أن نذَكِّر بالعقلانية في الإسلام ؟ يكفي أن نستحضر هنا إنكاره للتقليد، ونبدأ بهذا التقليد ﴿وإذا قِيل لهمُ اتّبِعوا ما أنْزلَ الله، قالوا: بل نتَّبعُ ما الْفيْنا عليه آباءَنا أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهْتدون﴾. ثم هل نسينا الفلسفة الإسلامية الحق؟ أي الفلسفة التي لم تتأثر بالفكر اليوناني، وهي الفلسفة التي ظهرت عند المتكلمين وظهرت عند الأصوليين، والتي كان لها إشعاع على مختلف العلوم.

الحق يا مولاي، أن في مثل هذه الآراء وفي مثل هذه النظريات وكذا في الرد عليها صرفت جهودٌ وبُذِلَتْ طاقات جبارة، لو صُرِفَتْ كلُّها أو بعضُها في تنمية المعرفة الإسلامية، وفي تطوير العلوم الإسلامية لكان حال الفكر الإسلامي غير ما آل إليه. وشيئاً فشيئاً كانت الهوة تزيد عمقاً، وتزيد اتساعاً بين الفكر الإسلامي وبين روح المنهج، ولم يكن دائما يوجد أولئك العلماء الذين يستطيعون أن يواجهوا التيار وأن يَرُدُّوا الأمور إلى نصابها، فتجمَّد الفكر، تجمد الفكر عاجزاً عن الإبداع وأصبح العلماء وكأنّ لسان حالهم يقول مع الرازي:

ولم نستفد من بحثنا طولَ عُمْرنا *–* سوى أن جمَعْنا فيه قيل وقالوا

وكان ما كان، مما آل إليه واقع الفكر العربي الإسلامي في المرحلة الحديثة والمعاصرة، متخلِّفاً عن ركب الآخرين المتقدم، لاهثاً خلف هذا الركب يحاول المواكبة ويحاول اللحاق به ولكنه لم يستطع، ثم مخَلِّفاً وراءه تيارين اثنين: تياراً يزعم الأصالة ولكنه منغلق على نفسه ومنكمش، وتيارا آخر يزعم التفتح، ولكنه ظاهر التبعية والاستبداد، فأين يا ترى يكْمُنُ الحل؟ إن الانسياق لأحد التيارين لن يجدي شيئاً، ولا بد من حل توفيقي، وإن كان كثير من المفكرين —اليوم— لا يقبلون هذه التوفيقية، ويعتبرون أنها نوع من التلفيق أو من الترقيع، ولكن التوفيق ليس هو الترقيع وليس هو التلفيق. والتوفيق انسجام، والتوفيق انضباط مع الذات ومع بقية المعطيات. ولن يتيسر الحل إلا بصياغة علم إسلامي جديد. صياغة هذا العلم الإسلامي الجديد فريضة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**هي فريضة**" ولكنها لن تتأتى إلا بجملة شروط، لابد من تطوير العلوم الإسلامية وتطوير مناهجها، وتجديدها، لا بد من هضم علوم العصر، ولا سيما العلوم البحثة والعلوم الآلية والتقنية، ولكن على أن يتم ذلك في نطاق تكييفها بالذات الإسلامية. حين نقول التكييف بالذات نقول: التكييف مع الإنسان ومع قيمه ومقوماته، هذا التكييف هو الذي سَيَحُول دون أن يكون الإنسان المسلم وليكن عالما، وليكن باحثا، هو الذي يحول بينه وبين أن يكون مجرد شيء أو مجرد ركام زائد. ثم إن هذا التكييف هو الذي سيساعد على الخروج من الحيرة، حيرة تراكُمِ المعرفة اليوم، وتراكم المناهج المختلفة التي يتَخبَّطُ فيها العلماء والباحثون. إننا يا مولاي بذلك في حاجة إلى فكر إسلامي موضوعي، عقلاني، إبداعي، واضح وواقعي يكون له وجود في مسيرة الفكر العالمي، وفي مسيرة الفكر الإنساني،

وإن ذلك ليس مستحيلاً. لأن مسيرة الفكر العالمي اليوم —مسيرة الفكر الإنساني— في حاجة إلى من يُمِدُّها بشيء تفتقده. إن العلم اليوم عبارةٌ عن جملة مناطق: فهناك منطقة العلوم البحتة، وهناك منطقة العلوم الآلية والتقنية، وهناك منطقة العلوم الإنسانية، ثم هناك منطقة الدين وعلومه. وداخل كل منطقة، هناك جملة من العلوم، لكل منها منظوره، ولكل منها تصوره، ويكاد أن يكون بين العلم والآخَرِ نوع من التناقض ومن التصادم. إن العلم اليومَ في كل هذه المناطق وفي كل هذه الأنواع هو في حاجة إلى روح يفتقدها، إلى روح تجعل من منظوره ومن تصوره متَّسِماً بالشمولية، وبما يجعله في صالح الإنسان وفي صالح سعادته، يراعي مصيره ويراعي متطلباته. لذا، فما أحوج الفكر الإنساني اليوم إلى فتح قنوات للاتصال وإلى أن يمر عبر هذه القنوات، هذا الروح الذي نتحدث عنه، هذا الروح الديني الذي نشعُرُ في جامعاتنا بأن طلابنا وبأن أساتذتنا وباحثينا، في حاجة إليه لكي يضبط لهم المعرفة، ويضبط لهم المنهج، ويبعث أيضا في نفوسهم الطمأنينة، ولكن لذلك مقتضيات وشروطاً ذهنيةً، واقتصاديةً وتربوية. ثم إن لذلك —قبل هذا وبعد— حاجة إلى نظر ثاقبٍ ونظرٍ سديد، يلقي الضوء، وينير السبيل حتى يهتدي رجال العلم ورجال البحث.

وإنكم يا مولاي، بما لديكم من ثقافة أصيلة، وبما لديكم من تفتح واسع على مختلف ثقافات الغرب، وبما تتوافرون عليه من قُدُرات إبداعية فذة، ولعبقريتكم النادرة، ولدعوتكم المتجددة إلى بعث إسلامي جديد يراعي الثوابت والمتغيرات، ثم نظراً إلى حسن الأحدوثة التي تتمتعون بها في وسط العالم الإسلامي، وفي العالم أجمع. من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما لا يتَّسِع المقام لذكره، أنتم يا مولاي مهيأون لإلقاء هذا النظر الثاقب، الذي

من شأنه أن ينير الطريق. وإني لأستحضر هنا أبياتاً لأبي الطيب يقول فيها:

إذا ما العالمون عَرَوْكَ قالـوا *–* أفِدنا أيها الحبْـر الإمـامُ

إذا مـا المعْلِمـون رأوْك قالـوا *–* بهذا يُعرفُ الجيشُ اللّهـامُ

لقد حسُنت بك الأوقــاتُ حتّى *–* كأنّكَ في فم الدنيا ابتسـامُ

أبقاكم الله يا مولاي، ذخراً للأمة ورمزاً للوحدة، وقائداً للمسيرة، ورائداً للنهضة، وحفظكم في صحة كاملة وعافية تامة، وأطال عمركم ومدَّد عهدكم وأبقاكم راعين للعلم وللعلماء. تقيمون مؤسساته، وترعون رجاله، علماء ومتعلمين، ومعلمين، وأبقاكم ملجأً وملاذاً للعروبة والإسلام، حتى يعيد الله بكم مجد العرب وعز المسلمين، وخلد العرش العلوي المجيد مناراً للفكر القويم، ورمزاً للكيان وللوحدة، وآصرةً قوية لا تنْفصِمُ عراها إلى يوم الدين. وحفظكم في ولي عهدكم المحبوب سموِّ الأمير عالم الشباب، وقلادة الأجيال، سيدي محمد، وصنوه سموِّ الأمير النابغة المولى الرشيد، وجميع آل بيتكم الأطهار. ﴿ربَّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذْ هدَيْتنا وهبْ لنا من لدُنْكَ رحمةً إنَّك أنت الوهّاب﴾. آمين.

والختم من مولانا أمير المومنين.

المذاهب الإسلامية
بين حقائق الدين و مواقف التاريخ
وتحديات المصير

انطلاقا من قوله تعالى في سورة النساء (الآية 58) : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾.

ألقي في قصر الرياض بالرباط

عشية الخميس 23 رمضان المعظم 1415هـ

الموافق 23 فبراير 1995م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

لسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني.

مولاي أمير المومنين،

بمشاعر فياضة تغمر القلب بالحب والوفاء والإكبار والولاء لجلالتكم، وسعيا إلى مواكبة جنابكم الشريف في الرؤيا البعيدة التي تنظرون بها إلى واقع الأمة الإسلامية ومستقبلها في أفق التطوير والتجديد والتوحيد، أستأذنكم — سيدي أعزكم الله— في أن أتناول موضوعاً أعترف منذ البدء بأنه شائك، وبأني ما كنت لأجرؤ على بسطه في هذا المجلس العلمي الموقر وبحضرتكم السنية، لولا يقيني في سعة علمكم، ورحابة صدركم، وأملي في أن يحظى من جلالتكم بالرضى والقبول والتجاوز عما قد أجانب الصواب فيه.

وقد صغت الموضوع في العنوان الآتي:

المذاهب الإسلامية

بين حقائق الدين و مواقف التاريخ و تحديات المصير

على أن أحلله انطلاقا من قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلاً﴾. وكنت قد وقفت عند بعض متعلقاتها في درس سابق.

فإذا سمحتم لي –يا مولاي– تناولت هذا الموضوع وجعلته في ثلاثة أقسام:

في الأول: أتحدث عن الآية الكريمة التي سأنطلق منها وبعض متعلقاتها.

وفي الثاني: أتناول أسباب الخلاف بين المسلمين ومظاهره السياسية والفكرية المتجلية في قضايا العقيدة والفقه.

وفي الثالث: أعرض إمكان تجاوز هذا الخلاف، وحاجة المسلمين إلى هذا التجاوز وهم يواجهون تحديات المصير.

يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلاً﴾.

هذه هي الآية 58 من سورة النساء.

وهي سورة طويلة، إذ تضم 175 آية حسب رواية ورش، و 176 وفق رواية حفص ؛ وترتب بذلك في الدرجة الثالثة من حيث الطول بعد البقرة بـ 285 آية، و آل عمران بـ 200 آية. وهي على هذا الترتيب في إيرادها بالمصحف.

وتتضمن كثيراً من الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة، وهي أهمها، ولهذا سميت سورة النساء. وتتضمن كذلك أحكاما متصلة بالأسرة والروابط

الزوجية والمواريث، وأخرى مرتبطة بالدولة الإسلامية في علاقاتها مع غيرها والأسس التي تقوم عليها هذه العلاقات. ومن ثم فإن السورة تتعرض للجهاد والموقف من المنافقين وأهل الكتاب.

وقد أجمع العلماء –أو كادوا– على أن هذه السورة مدنية، إلا قوله تعالى في الآية 57 وهي السابقة على الآية التي نحن بصددها: ﴿إن الله يامركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها﴾. وهي آية نزلت متعلقة –كما في أغلب الروايات– بمفتاح الكعبة حين أخذه الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح من عثمان بن أبي طلحة الحجبي العبدري (من بني عبد الدار) ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وكانا كافرين، وأراد أن يسلمه لعمه العباس بن عبد المطلب. فما كان يدخل الكعبة ليكسر ما بها من أوثان ويخرج إلى مقام إبراهيم حتى نزلت هذه الآية. وساعتئذ قال عمر بن الخطاب: "خرج رسول الله (أي من الكعبة) وهو يقرأ هذه الآية وما كنت سمعتها قبل منه، فدعا عثمان وشيبة وقال: "**خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم**".

وقد ورد في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم" تقصد أنه تزوجها، وهو ما تم في المدينة.

وقد ذهب أبو بكر محمد بن الحسن النقاش إلى أنها نزلت عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة. وقد ظن بعض المفسرين كأحمد بن محمد النحاس أنها سورة مكية لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكمُ الذي خلقكم﴾ على اعتبار أن معظم ما ورد فيه الخطاب

موجهاً للناس فهو مكي. وهذا غير مطرد ؛ ففي سورة البقرة وهي مدنية وردت ﴿يا أيها الناس﴾ في آيتين اثنتين:

1- ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكمُ الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ (الآية 20).

2- ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (الآية 167).

وعند آخرين كعلقمة أن صدر السورة مكي. ولكن الراجح أن السورة مدنية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس لدا تفسير الآية التي نحن بصددها أنها نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية. ويذكر أنه كان في عبد الله بن حذافة دعابة، وحين أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية أمر الناس أن يجمعوا حطبا ويوقدوا نارا ثم أمرهم بالتقحم فيها فامتنعوا، فذكرهم بآية الطاعة فقالوا: "ما آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار". وحين علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وافقهم على رأيهم وقال كما في الحديث الصحيح: **"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"** قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾. وهي الآية 29 من سورة النساء نفسها.

وروى الطبري عن السدي أنها نزلت في قصة جرت لعمار بن ياسر مع خالد بن الوليد، وكان خالد أميرا فأجار عمار رجلا بغير أمره، فتخاصما ورفعا القضية إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير مرة ثانية على أمير.

والمراد واحد سواء بالنسبة لهذه الرواية أو تلك.

ماذا يمكن أن نقول عن مضمون هذه الآية ؟ إن فيها أمرين:

الأول: الأمر بطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم وأولي الأمر. وجاء هذا الأمر مباشرة بعد أمر الله تعالى في الآية السابقة ولاة الأمر ورعاة المسؤولية أن يؤدوا الأمانة وأن يحكموا بالعدل: ﴿إن الله يامركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾.

والربط بين الطاعة والعدل ناتج عن كون الطاعة دالة على أن العدل قد تحقق ونفذ وطبق وانتشر.

والمقصود بأولي الأمر هم الأمراء والقائمون على مصالح الرعية. فقد روى الطبري عن أبي هريرة بسند صحيح "إن أولي الأمر هم الأمراء". والمقصود بلفظ الأمراء من يؤمرون، ومن ينبغي أن تنقاد الأمة لأمرهم من الحكام والعلماء. ولأهمية ذلك جعلت طاعتهم مرتبطة بطاعة الله ورسوله.

أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني**".

وعند ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن لفظ (أولي الأمر) يشمل أهل القرآن والفقه والدين، أي علماء الأمة ؛ وهو اختيار الإمام مالك، بدليل قوله تعالى في الآية 65 من سورة المائدة: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، لبيس ما كانوا يصنعون﴾. وقوله عز وجل في الآية 7 من سورة الحشر: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

وعند الرازي أن المقصود بأولي الأمر هو إجماع الأمة، مما يجعل في الآية إشارة إلى هذا الأصل، إلى جانب الأصول الأخرى في استنباط الأحكام.

وذكر الزمخشري أن المقصود هم أمراء الحق، لأنهم هم الذين يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم. أما غيرهم من أمراء الجور فلا طاعة لهم. وهذا واضح يؤكده ما رواه الشيخان عن علي بن أبي طالب من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**إنما الطاعة في المعروف**"، ويؤكده كذلك ما أخرجه ابن حنبل في مسنده عن عمران بن حصين من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**لا طاعة في معصية الله**".

وقال ابن أبي طالب كذلك: "حق على الإمام أن يحكم بالعدل ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا".

قال سهل بن عبد الله —كما ساق القرطبي في تفسير الآية—: "لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم".

ويروى: "صنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: الأمراء والعلماء".

الأمر الثاني: هو رد كل تنازع حول ما يتعلق بأصول الدين وفروعه وما يتعلق بهما من شؤون الناس، والتحاكم في ذلك كله إلى الله ورسوله. ورد التنازع إلى الله والرسول، أي إلى الكتاب والسنة، باعتبارهما الأصل، وباعتبار ما جاءا به هو الحق، مصداقاً لقوله تعالى في الآية 8 من سورة الشورى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾.

وربطت الآية الاحتكام إلى الكتاب والسنة بالإيمان بالله وباليوم الآخر "﴿إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر﴾ وجعلته خيرا وأحسن تاويلا"، أي أصلح وأجدى وأنفع سواء في الدنيا أو الآخرة.

وهنا يرد ما قد يفهم من أن ردّ الأمر إلى الله ورسوله هو السكوت عنه وعدم التعرض له، لأنه فهم يتنافى مع الانقياد وما يقتضي من وضوح في المسائل وحل للمشاكل. ويلحق بهذا الفهم قول من ذهب إلى الرد بـ: الله ورسوله أعلم.

في هذه الآية يا مولاي إشارات لغوية وأسلوبية أستسمح في ذكر بعضها:

الإشارة الأولى: إعادة فعل (أطيعوا)

لماذا أعيد هذا الفعل في غير اكتفاء بحرف العطف، إذ لم ترد الآية على هذا النحو (أطيعوا الله والرسول)؟

وقع هذا التكرار لغايات منها:

1- تأكيد وجوب طاعته صلى الله عليه وسلم.

2- إبراز مدى الأهمية التي لطاعة الرسول.

3- جعلها أعلى مكانة من طاعة أولي الأمر.

4- حتى لا يظن أن طاعة الرسول إنما هي راجعة إلى طاعة الله، أي فيما يأمر به الرسول مما هو مطالب بتبليغه وليس في امتثال أمره كله، أي فيما يتعلق بشؤون الدنيا والدين.

5- ويمكن أن نضيف غاية أخرى، وهي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بدور التبليغ والتنفيذ، أما أولو الأمر فدورهم مقصور على التنفيذ.

ويلاحظ أنه حين لم يعطف أولو الأمر في آيات أخرى، لم يكرر الفعل، كقوله تعالى في الآية 32 من سورة آل عمران: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾، وكقوله عز وجل في الآية 132 من نفس السورة: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

الإشارة الثانية: تتعلق بقوله "تنازعتم"

وهو فعل ماض من التنازع. ومعناه في الأصل التجاذب من الجذب.

ومن معانيه المنبثقة من هذا المعنى الأصلي:

أولا: المعاطاة. وتكون في الشرب ونحوه مما يتبادل. يقول الله تعالى في الآية 21 من سورة الطور: ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم﴾.

ومنه قول ميمون بن قيس الملقب بالأعشى:

نازعتُهم قضب الريحان متكئا

وقهوة مُزة راووقُها خَضِل

أي عاطيتهم طاقات المشموم الطيب من النبات والأزهار، وخمرا بها مَزازة أي طعمها بين الحلاوة والحموضة، وراووقها —أي مصفاتها من روّق الشراب إذا صفاه— خضِل أي ندي مبلول، من الخضِل. وهو كناية عن استعمالها الدائم والمستمر.

ولقب هذا الشاعر بالأعشى (لضعف بصره إلى حد عمي في آخر عمره). ويسمى "صناجة العرب" لأنه كان يغنى بشعره. وهو جاهلي أدرك الإسلام إذ توفي في السنة 7هـ، ولم يسلم، ويعد من أصحاب المعلقات بقصيدته:

ما بكاء الكبير بالأطـلال

وسؤالي وما ترد سـؤالي

ثانيا: المصافحة. يقال نازعتُ فلانا بنَانه أي صافحته. يقول الراعي النميري وهو من فحول شعراء العصر الأموي، توفي سنة 90هـ واسمه حُصين بن معاوية بن جندل، وإنما لقب بـ"الراعي" لكثرة وصفه الإبل وكان منحازاً للأمويين:

ينازِعْننا رخْـص البنـان كأنما

ينازعْننا هُدّاب رَيْطٍ مُعَضّد

فرخص البنان هي الأصابع الرقيقة، والرّيْطُ هو الثوب اللين الرقيق، والهُدّاب مفرده هُدْب وهو ما يتدلى من الثوب، والمعضّد الثوب المخطط أو الذي له عَلم في موضع العضد من لابسه.

ثالثا: تجاذب الخصومة. قال تميم بن مُقْبِل وهو شاعر مخضرم توفي سنة 37هـ وقد أسلم:

نازعتْ ألبـابـها لُبّي بمُقْتصِر

من الأحاديث حتى زدنني لِينـا

والمقصود نازع لُبي ألبابهن أي عقله وفكره عقلهن وأفكارهن.

ومن هذا المعنى يستعمل التنازع في سياق الاختلاف أو هو شدته، من النزع أي الأخذ والجذب، أو هو تجاذب القرآن والحجج وما ينتج عن ذلك من اختلاف. يقول تعالى في الآية 47 من سورة الأنفال: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾، فقد استعير التجاذب للتعبير عن الاختلاف.

الإشارة الثالثة: قوله تعالى: ﴿في شيء﴾: شيء اسم جنس، وهو هنا نكرة موغلة في الإبهام تعني أي شيء.

الإشارة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فردوه﴾ استعمال مجازي لأن استعماله الحقيقي يفيد إرجاع شيء ما إلى صاحبه.

والرد إلى الرسول –كطاعته– دالّان على الرد إلى الله وطاعته قبل ذلك.

الإشارة الخامسة: تتعلق بقوله عز وجل: ﴿إن كنتم تومنون﴾، وهنا شرط يفيد التحريض أو التحذير.

وذكر الإيمان في هذا الشرط –مكرراً– بعد قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يعني: إن كنتم تومنون حقا وتقومون بواجبات المومنين بالفعل، ذلكم أن الخلاف قد يحدث وهو أمر طبيعي.

ولكن اهتداء المومنين إلى الطريقة المثلى لإزالته –بالرجوع إلى الكتاب والسنة– دليل على مدى ما يجمع الرعية وولاة أمرها من إيمان حق يكون داعيا إلى تبادل النصح والثقة والرغبة في الوصول إلى الحق.

*** *** ***

أستسمحكم بعد هذا يا مولاي لأنتقل إلى القسم الثاني من هذا الدرس، فأقول: إن الإسلام جاء إلى العرب وإلى البشرية كافة، ديناً يدعو إلى التوحيد وإلى العلم وإلى العقل، بكل ما في هذه المقومات الثلاثة من انعكاسات على السمو بالنفس، وتطوير الفكر، وتهذيب السلوك، والنهوض بالفرد والمجتمع في نطاق أمة واحدة راقية تحتضن الإنسانية عامة ؛ في إيمان متسامح لا غلو فيه ولا تعصب. يقول تعالى في الآيات 63-67 من سورة آل عمران: ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكُم ألا نعبدَ إلا اللّه ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه. فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون. يا أهل الكتاب لِمَ تُحاجّون في إبراهيم. وما أنزلت التوراةُ والإنجيل إلا من بعده. أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاءِ حاججتم فيما لكم به علم فلِم تحاجون فيما ليس لكم به علم. واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتبعوه وهذا النبيءُ والذين آمنوا واللّه وليّ المومنين﴾.

لقد تجلى الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واضحاً وصافياً، سواء فيما يتعلق بقضايا العقيدة، أو فيما يتصل بشؤون التشريع والتنظيم. فلم يكن يتعرض في هذه الشؤون المتعلقة بنظام المجتمع الإسلامي لما يعرضه للفرقة والانقسام، وتم الانضباط بالأحكام الشرعية وما تلزم به من واجبات وما يتيح من حقوق. ولم يكن يتحدث في تلك القضايا عما قد يثير الاضطراب في الفهوم والأذهان من مسائل الصفات وما إليها مما يتصل بالذات الإلهية التي أثبتت في إطار التنزيه وفق ما جاء في القرآن الكريم وسنة الرسول الأكرم.

لكن ما الذي حدث؟

لقد حدث أن تعرض المسلمون في سياستهم وفكرهم لما حاد بهم قليلا أو كثيرا عن الخط الذي عرفوه في عهد الرسول (ص). ويمكن أن نجمل ذلك في ظاهرتين:

الأولى ترتبط بالسياسة، انطلاقا من المشكل الذي طرأ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وهو مشكل خلافته، لا سيما وأنه (ص) لم يستخلف أحداً من أصحابه، وترك للمسلمين أن يجتهدوا ويختاروا النظام الملائم لهم في ضوء المبادئ الأساسية للحكم الإسلامي وهي:

1- التوحيد
2- العدل
3- الشورى

ومعروف أن المسلمين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وبايعوا أبا بكر (11–13هـ)، وأن أبا بكر –باجتهاده– استخلف قبل وفاته عمر بن الخطاب بعهد مكتوب. أما عمر (13–23هـ) فأدى به اجتهاده في أمر

الخلافة إلى تكوين مجلس شورى مكون من ستة أشخاص هم: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. وزاد عليهم ابنه عبد الله، على أن لا يكون له من الأمر شيء، وعلى أن يرجح الجانب الذي يميل إليه، إذا ما تساوت الأصوات، إن رضوا بذلك؛ وإلا يرجح جانب ابن عوف.

إلا أن حدثاً خطيراً وقع لأسباب عدائية خفية، شعوبية ويهودية ومجوسية، وقاد المسيرة السياسية إلى ما لم تحمد عقباه بعد، ذلكم هو مقتل ابن الخطاب بطعنة من أبي لؤلؤة، واقتصاص ابنه عبيد الله الذي ضرب الهرمزان وهو أمير فارسي مسلم، وجفينة وهو نصراني، وقد رآهما يقبلان الخنجر الذي طعن به أبوه. وزاد ابن عمر فدخل بيت الجاني وقتل ابنته.

وبعد مشاورات على مستوى المجلس المعين، تمت بيعة عثمان بن عفان (23-35هـ) الذي واجه في أول توليته قتل ابن الخطاب وما ترتب عليه من اقتصاص. وحل المشكل بأن حكم بالعفو عن عبيد الله، واعتبر نفسه وليّ من قتل، والتزم بدفع ديتهم من ماله الخاص.

ولكن هذا الحل لم يعجب الذين كانوا غير راضين عن ابن عفان وسياسته، ومن انضم إليهم من بعض القراء الذين لم يكن لهم دور في جمع المصحف، فتألّبوا ضده، وقامت ثورة تطالبه بالتنازل. ولكنه رفض متمسكا بالخلافة، معتبراً إياها أمانة مقدسة، فكان أن اقتحم الثوار داره وقتلوه.

وتمت البيعة لابن أبي طالب (35-40هـ) الذي واجهته منذ البداية مشكلتا إعادة الأمن والنظر في مقتل عثمان. وانتهى ابن أبي طالب إلى عدم إدانة أحد، فكان أن واجه معارضتين:

الأولى تزعمتها السيدة عائشة وطلحة والزبير الذي لم يلبث أن انسحب، فاضطر الخليفة إلى محاربتهم في وقعة الجمل (36هـ).

والثانية قادها معاوية، فاضطر ابن أبي طالب إلى مواجهته في معركة صفين (37هـ)، وهي المعركة التي رفعت فيها المصاحف في المعسكرين، والتي انتهت بالتحكيم، أي تعيين حكمين للحكم في الخلاف القائم بما في كتاب الله.

فاختار ابن أبي طالب أبا موسى الأشعري، واختار معاوية عمرو بن العاص. وكتب الحكمان صحيفة غامضة لا تفيد أي شيء بشأن الخلاف، رغم دقة كتابتها السياسية، واتفقا على عزل علي ومعاوية، ورد أمر الخلافة إلى المسلمين. وكان الأشعري أول ناطق فعزل صاحبه، وحين جاء دور ابن العاص عزله كذلك وثبت صاحبه.

وكانت نتيجة هذا التحكيم أن انقسمت الخلافة شطرين:

أحدهما: تابع لابن أبي طالب في العراق والحجاز.

والثاني: تابع لمعاوية في الشام ومصر.

وكانت النتيجة كذلك أن ضيع علي بعض أتباعه الذين لم يرضوا بصيغة التحكيم وما انتهى إليه، وهؤلاء هم الخوارج.

وكانت النتيجة بعد هذا أن زاد الأمر اضطراباً، مما حدا ببعض المسلمين -لعلهم من الخوارج- إلى التفكير في وضع حد له بقتل علي ومعاوية وابن العاص في وقت واحد (17 رمضان 40هـ) إلا أنهم لم يصيبوا إلا ابن أبي طالب. فخلا الجو لمعاوية، مما دعا شيعة علي إلى القيام، فدفعوا أولا بالحسن بحجة أن والده أوصى له. إلا أنه سالَم معاوية، بعد أن وعده بولاية العهد. ثم دفعوا بعد موت الحسن -أو قتله مسموماً- سنة

50هـ بأخيه الحسين الذي كان ذا شخصية قوية كأبيه، فحاول المواجهة، ولا سيما بعد أن توفي معاوية واستتب الأمر لابنه يزيد (60-64هـ). ولكنه ما كاد يدخل أرض العراق حتى لقيه جيش الأمويين بقيادة ابن زياد فقتله وأصحابه في وقعة كربلاء (61هـ).

وكان بعد هذا أن اتخذت الخلافة أبعاداً جديدة تمثلت في الدولة الأموية التي استتب لها الأمر، ثم العباسية بعدها ؛ وتمثلت كذلك في ظهور أحزاب معارضة لهاتين الدولتين أهمها الخوارج والشيعة.

الثانية تتصل بتطور الفكر الإسلامي متأثراً ببعض القضايا التي كان يعرضها أصحاب الملل والديانات الأخرى، كتجسيم اليهود وبعض من أسلم منهم —إن صدقاً أو كذباً كعبد الله بن سبأ— للذات الإلهية، وما ارتبط بها من إسرائيليات، ولا سيما –بالنسبة لموضوعنا— فيما يتعلق بتقديس الإمام إلى حد تأليهه. ومن ذلك ما كان يثيره المسيحيون —كيوحنا الدمشقي تـ 127هـ– متعلقاً بحرية الإنسان ومشكل الجبر والاختيار.

ولعل أبرز رد فعل فكري لمثل هذه القضايا هو ظهور علم الكلام الذي كان يسعى إلى الدفاع عن العقيدة بالحجج العقلية، مركزاً على مسألتين أساسيتين هما:

1- مسألة الصفات.

2- مسألة القضاء والقدر.

واتخذ المسلمون من هذا العلم موقفين مختلفين:

1) منهم من أيده، على اعتبار أن القرآن يدعو إلى الجدل وإلى استعمال العقل، لقوله تعالى في الآية 111 من سورة البقرة: ﴿قل هاتوا

برهانكم﴾، وكقوله في الآية 125 من سورة النحل: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

2) ومنهم من رفضه، معتبراً أنه لا حاجة لإثبات العقيدة إلى الاحتجاج العقلي، إذ يكفي الإيمان بالله والتفويض والتسليم في المسائل العقدية الشائكة. وهؤلاء كانوا بدورهم يعتمدون على مثل قوله تعالى في الآية 7 من سورة آل عمران: ﴿هو الذي أنزل عليكَ الكتاب منه آيات محكمات هنَّ أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تاويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

وهؤلاء الرافضون لعلم الكلام يعتمدون كذلك على مثل هذا الحديث الشريف الذي يقول فيه رسول الله (ص): "**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**".

وانقسم المسلمون —تحت تأثير هذين الموقفين— إلى:

1. قدريين يومنون بحرية الإنسان المطلقة، وبأن ما حدث هو من فعل المسلمين لا تدخل فيه للإرادة الإلهية، أي ليس قضاء ولا قدراً، لأن الله تعالى لا يقدر إلا الأصلح ولا يقضي إلا بالأحسن. وفي هذا النهج سار معبد بن خالد الجهني (ق 80 هـ)، وتلميذه غيلان بن مسلم الدمشقي (ق 105هـ).

2. جبريين يومنون بأن الإنسان غير حر، وكان منهم جهم بن صفوان (ق 127هـ) الذي كان يرى أن الإيمان هو المعرفة بالله، وأن الكفر هو الجهل به تعالى. وكان يرى كذلك أن الفعل لله وحده، وأن الإنسان إنما ينسب إليه الفعل على المجاز. وكان يرى بعد هذا نفي الصفات، وأن علم

الله محدث، مما دفعه إلى القول بخلق القرآن، أي أنه غير قديم طالما أن صفة الكلام في نظرهم محدثة.

تحت تأثير هذين العاملين:

1- السياسي من جهة.
2- والفكري من جهة ثانية.

كان توجه المسيرة الإسلامية في خط الخلاف الذي ستُطرح من خلاله مسألة الحق والباطل، وانقسام المسلمين فرقاً، كل منها ترى أنها على حق وأنها هي الناجية، انطلاقا من الحديث الذي رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون فرقة وخلصت فرقة واحدة وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة فتهلك إحدى وسبعين وتخلص فرقة**"، قالوا يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: **الجماعة الجماعة**".

إذن بدأ الخلاف سياسياً، ولكنه لم يلبث أن تحول عقديا يعتمد أساليب الجدل التي أفضت إلى التأويل المبالغ فيه، حتى يطابق حالة معينة أو واقعاً مفروضا، فتشعبت طرائق التفكير وتفرقت سبل الاحتجاج. ومن خلال ذلك، كان ينظر إلى قضية الإيمان والكفر، على أساس من تصور مفهومهما: هل الإيمان مجرد تصديق بالقلب وإقرار باللسان أم أنه لا بد فيه من العمل؟

وعبْر هاته الزاوية، كان ينظر كل طرف سياسي لإيمان الطرف الآخر:

فالخوارج ربطوا الإيمان بالعمل، لكن بطريقة حرفية وسطحية، واعتبروا من لم يجمع بينهما مرتكب كبيرة ؛ ومرتكبها كافر مخلد في النار. ومن ثم أقروا خلافة أبي بكر وعمر، وخلافة عثمان في أول عهده، وكذا

خلافة علي قبل التحكيم. وقد أخطأ في نظرهم حين قبل التحكيم، وكفروه من أجل ذلك، كما كفروا أصحاب الجمل والحكمين ومعاوية والأمويين وكذا العباسيين. وعندهم أن الإمامة حق لكل مسلم عادل.

أما **الشيعة** فاتخذوا —عدا الزيدية— موقف التخطئ، ثم التكفير من جميع الذين اغتصبوا في نظرهم الخلافة، إذ قال الإمامية —وهم الذين يشكلون إلى جانب الزيدية أهم فرق الشيعة— بإمامة علي بعد النبي (ص) نصاً صريحا، اعتمادا على أحاديث يسوقونها، كالحديث الذي يروونه عن ابن عباس أن النبي (ص) قال لأم سلمة: **"اسمعي واشهدي هذا علي أمير المومنين وسيد الوصيين"**، وكالحديث الذي أخرجه ابن حنبل وابن ماجة من طرق متعددة، والذي ورد فيه —مع اختلاف في اللفظ— أن النبي (ص) قال يوم غدير خُم بعد العودة من حجة الوداع: **"من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه"**. وهو حديث لا يرى فيه أهل السنة إلا الإشادة بعلي ومكانته التي لا ينكرها أحد.

والشيعة في هذا يرون أن الإمامة ركن من الدين، ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ليهمله أو يغفله أو يفوضه للعامة، وأن خروج الخلافة عن ابن أبي طالب كان ظلماً من غيره أو تقية من عنده.

ويطلق على الشيعة "الروافض" إذ هي تسمية في حقيقتها تطلق على الذين رفضوا بيعة الأمويين والعباسيين، وليس على الذين رفضوا الرسالة النبوية كما زعم غلاة خصومهم.

وإلى جانب الشيعة والخوارج، ظهر **المرجئة** الذين دفعتهم مسالمتهم إلى التزام الحياد، فقالوا بأن مرتكب الكبيرة مومن، وأن أمره متروك لله، بل إنهم أرجأوا العمل في قضية الإيمان، إذ اعتبروه تصديقا فحسب لا

حاجة فيه إلى العمل. وكان خصومهم –لا سيما من المعتزلة– يسمون بالمرجئة كل من لا يرى رأيهم في مرتكب الكبيرة، وكانوا يلقون بهذه السِّمة على عدد من الفقهاء والمفسرين والمحدثين من أمثال التابعي سعيد بن جُبير الأسدي (45–95هـ)، ومقاتل بن سليمان الأزدي (تـ 150هـ).

وظهر **المعتزلة** الذين اختاروا الحياد كذلك، وقالوا بأن مرتكب الكبيرة ليس بمومن ولا كافر، ولكنه فاسق ؛ ومن ثم فهو في منزلة بين المنزلتين. واعتبروا كذلك أن أحد الطرفين مخطئ، لكن من غير أن يعينوه. وكانوا في المسائل الكلامية يؤيدون القدريين الأوائل في القول بحرية الإنسان، ويؤيدون الجبرية في قضية الصفات، واشتهروا في هذا بالميل إلى التعقل واعتماد هذا التعقل في النظر إلى الكون وإلى الخالق، لأن هذا النظر لا يمكن أن يكون حسيا ولكن عن طريق العقل. واشتهر منهم علماء ارتبطت بأسمائهم فرق فرعية، كواصل بن عطاء (80–130هـ) الذي تنسب إليه الواصلية، وأبي هُذيل العلاف (135–226هـ)، وإليه تنسب الهذيلية، وإبراهيم بن سيّار النّظّام (تـ 231هـ)، وتنسب إليه النظامية.

وفي وسط هذه الخلافات، ظهر تيار معتدل ينسب إليه **أهل السنة والجماعة**. وهي تسمية في مدلولها العام تطلق مقابل الشيعة، وينضوي تحتها جميع الذين اعترفوا بالخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس.

وتنسحب تسمية أهل السنة والجماعة في مفهومها الخاص على الذين اهتدوا بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسلكوا طريق الصحابة والتابعين في التسليم والتفويض والبعد عن التأويل، ملتزمين كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة.

وسوف يتبلور هذا الاتجاه على يد أبي الحسن الأشعري (260–330/324هـ)، وكان معتزلياً أول الأمر، ثم لم يلبث أن ترك الاعتزال معلنا التمسك بالكتاب والسنة وما روي عن الصحابة والتابعين وأيمة الحديث، مع ميل إلى الإمام أحمد بن حنبل. وقد صاغ العقيدة صياغة عقلية وافقت من كان من أهل السنة ميالا إلى الجدل العقلي، مع التزام موقف وسط يكشف عن رأيه المعتدل الذي يتجلى في إثبات الصفات واعتبارها أزلية وزائدة على الذات الإلهية وقائمة بها. كما يتجلى في ربط أفعال الله بالمشيئة، وجعلها غير قابلة للتعليل. ويتجلى كذلك بالنسبة لحرية الإنسان في القول بأن الإنسان يكسب أفعاله بقدرة حادثة يخلقها الله له في لحظة إرادة كسب تلك الأفعال. ويتجلى بعد هذا في القول بأن الإيمان أصل يمثله التصديق، وفرع يمثله العمل، وبأن الكافر هو من أنكرهما. أما من تهاون في شيء من الفرع فهو مومن عاصٍ أو فاسق سيبقى في مشيئة الله، وإن عَذَّبه لا يخلده في النار. وهذا ماً جعلهم يقولون بالشفاعة التي يتفضل الله بها على المومنين العصاة. وقد برز في هذا الاتجاه أبو بكر الباقلاني (338-403هـ)، وعبد الملك الجُوَيْني (419–478هـ).

في جو هذه الخلافات السياسية والفكرية وتأثراً بها، وباتساع الأمصار الإسلامية وتشعب القضايا والنوازل، ظهرت اتجاهات فقهية تعتمد على اجتهادات الصحابة والتابعين، وتنظر في الأحكام وتقعيدها، وتدرس ما يطرأ من وقائع لإعطائها الأحكام المناسبة لها، مما يمكن أن يعتبر مرحلة في الاجتهاد، عنها تفرعت المذاهب الفقهية المعروفة.

وأبرزها:

1 – مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت (80–150هـ)، وقد انتشر في كل البلاد التي كانت تحت نفوذ العباسيين، وخاصة في العراق وما وراء

النهر، ينافسه في تركستان وما وراء النهر المذهب الشافعي. ثم استقر في مصر إلى جانب الشافعي والمالكي والشيعي الإمامي (هذا أيام الفاطميين).

وعلى الرغم من أن المماليك جعلوا القضاء بالمذاهب الأربعة، إلا أن محمدا عليا أعطاه صبغته الرسمية. ولم يتعد المذهب مصر إلى بلاد المغرب إلا مدة قصيرة في عهد أسد بن الفرات.

2 – **مذهب مالك** بن أنس الأصبحي (93–179هـ) وكان انتشاره في الحجاز وإن أفل نجمه في بعض الفترات، إلى أن أحياه ابن فرحون حين تولى قضاء المدينة سنة 793هـ. ومعروف أنه انتشر كذلك في بعض بلاد الخليج ومصر، إلى أن نازعه في هذه الأخيرة الشافعي ومذاهب أخرى، ولكنه في العصور المتأخرة يعتبر هو والشافعي المذهبين السائدين لا سيما في مجال العبادات.

ولا يخفى أنه انتشر في الأندلس، بعد أن كانت على مذهب الأوزاعي، ثم في كل الشمال الإفريقي باستثناء بعض الحالات، كالإباضية في الجزائر والحنفية في تونس.

3 – **مذهب الشافعي** محمد بن إدريس (150–204هـ)، وقد انتشر في العراق ومصر وفي خراسان وما وراء النهر. وكان له وجود في مصر إلى جانب المذاهب الأخرى. وحتى حين أعطى العثمانيون الأولوية للحنفي، فقد ظل الناس موزعين بين المالكية والشافعية. وعرف في الشام أثناء بعض الفترات، وكذا في العراق حيث لم يستطع منافسة الحنفي، وكذلك في اليمن إلى جانب المذهب الزيدي، وفي إيران إلى جانب المذهب الشيعي الإمامي.

4 – **مذهب أحمد بن حنبل** (164–241هـ) لم يكتب له انتشار كبير بسبب تأخره الزمني، وبسبب بعده عن السلطة مما جعل القضاة لا

يكونون منه، وكذا بسبب تشدده في معاملة الناس خاصة فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد تحقق له شيء من التجدد على يد أحمد بن تيمية (661-728هـ)، ثم على يد محمد بن عبد الوهاب (1115-1206هـ)، مما أتاح له الانتشار في شبه الجزيرة العربية.

5 - **مذهب جعفر بن محمد الباقر** بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الملقب بـ "الصادق" (80-184هـ)، سادس الأيمة الإثني عشر عند الشيعة، ومركزه في إيران. ويطلق عليه الإمامي والإثناعشري والجعفري.

6 - **مذهب زيد** بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (79-122هـ)، وينتشر في اليمن. وهو أقرب الشيعة إلى أهل السنة والجماعة.

7 - **مذهب عبد الله بن إباض** الخارجي (تـ 86هـ على الأرجح) ويوجد في عُمان وصحراء الجزائر وتونس.

وقد أتيح لهذه المذاهب الفقهية -بشيء من التفاوت- أن تجد صداها في الرأي العام الإسلامي، مما لم يتح لعلم الكلام، وإن حاول الأشعري بموقفه أن يكون قريباً من الناس ؛ فاستتب لها الأمر.

إلا أن الاجتهاد الفقهي لم يلبث أن دخل في نطاق ضيق مرتبط بمذهب معين، وانتهى الأمر إلى التقيد بالآراء المحددة في المذهب ؛ إلى أن آل الأمر إلى الجمود الذي استمر طوال القرون المتأخرة وما زال.

*** *** ***

من هنا -وأنا أرجو السماح لي يا مولاي بالانتقال إلى القسم الأخير في الدرس- يتبين أنه على أساس المواقف السياسية، وكذا على أساس الفكر الذي اعتمدته أو أنتجته، تشكلت الفرق الإسلامية من شيعة وخوارج

وسنة، ثم على أساس من الاجتهاد داخل كل مجموعة تكونت مذاهب فرعية، بعضها ذو صبغة عقدية سياسية، وبعضها ذو طابع فقهي صرف. وهي مجموعات كانت تنظر إلى الشرعية من رؤياها الخاصة، في مزج بين ما هو ديني وما هو سياسي، بتوفيق تلقائي تارة، وبتأويل متمحن للوصول إلى هذا المزج تارات كثيرة.

ولعل أحداً لا يحتاج إلى دليل لإثبات أن تلك المواقف وما نتج عنها من خلافات، كانت بنت وقتها، وكانت متولدة عن أوضاع معينة اتسمت بالتناقض والصراع، مما لم يعد له مجال في عالم المسلمين المعاصر، إلا من خلال رواسبه وبقاياه التي لم يعد لها بدورها مبرر وجود إلى حد التحكم في العلاقات بين المسلمين، وإن بقيت مدونة في صحائف التاريخ.

وما أحوجنا إلى أن نفرق بين ما هو مجرد تاريخ كان خاضعاً لشروطه وظروفه، وبين ما هو من حقائق الدين.

هذه واحدة.

وأخرى وهي أن علينا اليوم أن نفرق كما فرق أيمة الأمة بين ما يتصل بالعقيدة وما يتصل بالأحكام الفقهية.

أما العقيدة، فلا مجال للاختلاف فيها، إذ هي لا تخضع للاجتهاد، ولا تقبل أن نختلف فيه مصداقاً لقوله تعالى عن أهل الحنيفية المرحومين لابتعادهم عن الاختلاف في هذا الأمر: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) أي خلق أهل الرحمة غير مختلفين، وخلق غيرهم مختلفين اختلافاً يلازمهم، كما تثبت صيغة الآية الكريمة.

ولا أريد أن أطيل في هذه المسألة وإن كنت أستسمح في إيراد بعض الأحاديث التي تحث على الجماعة، كالحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن عباس والذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة ويد الله مع الجماعة ومن شذ شُذ في النار**". ومثله الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي ذر، والذي قال فيه النبي الكريم (ص): "**من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه**". والجماعة لها معنى عام يشمل المسلمين كافة، خاصة من جمعوا كلمتهم على أمير، ولها معنى خاص يندرج فيه الصحابة رضوان الله عليهم والعلماء المجتهدون السائرون على نهجهم.

وأما الأحكام الفقهية، ففيها ما يعتبر من الثوابت التي تعد كالعقيدة لا يجتهد فيها ولا يختلف حولها، وفيها ما يكون معرضاً للأحوال والنوازل الداعية إلى الاجتهاد، وما قد يعرض بسببه من خلاف أساسه الظن والتقدير اللذان لا يحسمان إلا بالاحتكام لكتاب الله وسنة رسوله (ص) وتأملهما والاجتهاد في فهمهما وتأويلهما بسعة أفق ودقة نظر، لا سيما ما كان فيهما من قبيل ظني الدلالة، وليس من قبيل القطعي والتوقيفي. وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر﴾. وهي آية ينبغي أن تفهم في إطار السياق الذي نقرأ فيه قوله عز وجل: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، وقوله سبحانه: ﴿وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهمُ الخيرة من أمرهم﴾.

وعن الخلاف الممكن نتيجة الاجتهاد، نستحضر قول عمر بن عبد العزيز: "ما أحب أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يختلفون،

لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق وأنهم أيمة يقتدى بهم فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة".

كما نستحضر قول القاسم بن محمد: "لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة".

ومثل هذا القول ما نقل عن القاضي إسماعيل الذي قال: "إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توسعة في اجتهاد الرأي. فأما أن يكون توسعة أن يقول الإنسان بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده فيه فلا، ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا".

وهي أقوال واردة عند الشاطبي في الموافقات (م 2 –ج 4 ص: 90 و180) حيث ذهب إلى أن الظاهر في مراعاة الخلاف أنها (اعتبار للخلاف. فلذلك نجد المسائل المتفق عليها لا يراعى فيها غير دليلها، فإن كانت مختلفا فيها روعيَ فيها قول المخالف وإن كان على خلاف الدليل الراجح عند المالكي فلم يعامل المسائل المختلف فيها معاملة المتفق عليها).

وحتى بالنسبة لهذا الجانب، فإن إمكان تجاوز الخلاف فيه وارد.

وعلى سبيل المثال فإن عندنا في المذهب المالكي قاعدة ذات أهمية قصوى في التقريب بين المذاهب، وهي التي تدعو إلى مراعاة الخلاف وتجاوزه عن طريق تبادل الأحكام، ولا سيما ما كان قوي الدليل في المذهب المخالف.

ولعلنا إن نحن أمعنا النظر في هذه القاعدة، وراعينا المقاصد واعتبرناها في توجيه الأحكام، بدا لنا إمكان التقريب بين المذاهب، وربما حدوث الإجماع بعد حصول الخلاف كما يرى معظم الأصوليين.

إن علينا من هذا المنظور، أن نتأمل الإسلام في أصوله وحقائقه، وأن ننظر إلى مستقبل المسلمين والمصير الذي ينتظرهم وما هم في حاجة إليه.

إنه لا حل، إن كان المسلمون مومنين حقا، إلا برد الأمـر إلى الله والرسول -على حد ما في الآية الكريمة التي انطلقنا منها في هذا الدرس- أي بالرجوع إلى مصادر الوحي، إلى القرآن الكريم وإلى السنة النبوية المطهرة بما فيها من أقوال وأفعال وتقريرات.

والرجوع إلى هذه المصادر يعني فهمها على النحو البين الواضح الذي جاءت به، في غير اجترار لما هو غير نافع من العلم الكثير المتداول، وبدون أي تمحن في التأويل قد يقود إلى التحريف، ثم إلى التعصب، سواء أكان هذا التعصب لمذهب أم فرقة أم غيرهما، والغلو في ذلك. وهذا لا يتأتى إلا إذا تم تجاوز مرحلة التفقه الخامل المرتبط بالإتباع والتقليد إلى مرحلة الاجتهاد والتجديد، على النحو الذي فعل الفقهاء الأيمة الذين وصل بهم علمهم المتين وفهمهم الصحيح للشريعة وللواقع الذي عاشوا فيه إلى استخلاص مذاهب نحن ملتزمون بها. وهو التزام نحن به معتزون، ما لم نجمد عنده، ولم نسع إلى الانغلاق به وفيه ؛ أي إذا نحن فتحنا الأبواب مشرعة لنقرب بين مواطن الخلاف، ونتأمل قضايا العصر وحل مشكلاته بالنظر في أحكام هذه المذاهب إن كانت مسعفة، وبالعودة إلى مصادر التشريع مباشرة إن لم نجد في تلك المذاهب ما يسعف.

وإنه في هذا السياق لا ينبغي لعلماء الأمة وفقهائها أن ينكمشوا، ظنا بأن قضايا الفقه والعقيدة معزولة عن الواقع العام الذي يعيشه المسلمون وعن طموحهم لتغيير هذا الواقع.

ذلكم أن المسلمين يبحثون عن مكانهم المتميز الذي فقدوه، وكان لهم حين كانوا ملتزمين بالدين الذي ارتضاه الله لهم، لتنظيم حياتهم وإسعادهم في هذه الحياة، وجعلهم قادرين على القيادة والتأثير برسالته ؛ ويبحثون عن الحياة الحرة وعن كرامتهم التي يرونها تداس في كثير من أقطارهم، ويبحثون في النهاية عن العزة التي أخطأوا إليها الطريق، ناسين أن الله تعالى هو صاحبها ومصدرها. يقول سبحانه في الآية 26 من سورة آل عمران: ﴿قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾، ويقول عز وجل في الآية 8 من سورة المنافقون: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمومنين﴾.

ولا عزة للمسلمين إلا بهذا الإسلام الصافي. وصدق عمر: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمتى أردنا العزة بغير الله أذلنا الله".

إن المسلمين اليوم وفي نطاق بحثهم عن العزة يعانون مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية ونفسية.

وإن في الإسلام قيما خالدة لا تبلى، توصل إلى حل هذه المشاكل وإلى تلك العزة ؛ بها تكون الحياة الحق للأفراد والجماعات على مدى العصور والأزمان، ليس فقط بالنسبة للمسلمين، ولكن بالنسبة للبشرية جمعاء، وهي تقاسي وتتخبط.

ويكفي أن نذكر:

* الإيمان بالله
* التقوى
* العدل
* الإحسان

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
* التعارف
* الأخوة والتواد والتراحم
* التسامح

وما إلى هذه وتلك من قيم الخير التي بها يكون المسلمون أمة، بل يكونون خير أمة.

ونقرأ قول الله تعالى في الآية 90 من سورة النحل: ﴿إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تَذّكرون﴾، وقوله عز وجل في الآية 10 من سورة الحجرات: ﴿إنما المومنون إخوة﴾، وقوله سبحانه وتعالى في الآية 13 من السورة نفسها: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، وقوله جلت قدرته في الآية 110 من سورة آل عمران: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله﴾، ونقرأ قوله تعالى في الآيات 103–105 من السورة نفسها: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم ءاياته لعلكم تهتدون. ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. والآيات في هذا كثيرة ومعروفة، ولكن من يعمل بها؟ بل من يقوى على العمل بها؟ أو يقدر على التصدي انطلاقا

منها لتنبيه المسلمين من غفلتهم وانتزاعهم من خلافاتهم وتوجيه مسيرتهم نحو الخط الصحيح الكفيل بتغيير واقعهم والوصول بهم إلى حال أفضل؟

إنه إذا كان المسلمون –على مر العصور– قد عاشوا منظومة الخلاف أو عايشوها بالأسلوب الذي حافظوا به على الحد الأساسي من العقيدة، فإنهم في ظل الأوضاع المتأزمة التي تواجههم بتحديات كثيرة داخلية وخارجية، مطالبون بأن يطووا صحائف هذه المنظومة، وينظروا إلى أنفسهم وغيرهم من زاوية أكثر قدرة على جمع الشمل وتوحيد الكلمة. ولعل ذلك – إن تمَّ– أن يكون منطلقاً فعليا لتجديد الفكر الإسلامي وتحديثه في أفق المستقبل.

وإنه لأمر صعب ومتشعب يحتاج أن تراعى فيه ثلاث جهات أو ثلاثة محاور:

1- المجتمع

2- المعرفة

3- الدولـة

أما **المجتمع الإسلامي**، فهو اليوم مستعد بعد أن طالت معاناته التي أدرك بوعيه أن في طليعة أسبابها الفرقة.

وأما **المعرفة**، فلا شك أنها أصبحت متاحة بحكم التواصل الفكري وتعدد وسائل هذا التواصل وأساليبه.

وتبقى **الدولـة**، وهي مثار إشكال كبير ليس من السهل حله في ظل الأوضاع الراهنة، ومع ذلك فلعل الأمر بجميع جهاته ومحاوره أن يتحقق على مراحل، وربما اقتضى في مرحلة أولى أن تقام مؤسسة فكرية تكون

قادرة على لمِّ الشتات المتفرق، سواء على مستوى العقيدة أو الفقه، ذلكم الشتات الذي زاد تمزقاً حين ارتبطت به أنظمة سياسية أو هو ارتبط بها.

ويكون من مهمة هذه المؤسسة أن تصل إلى مفاهيم واستنباطات مشتركة بين جميع المسلمين، تؤلف بينهم وتوحد موقفهم، في محاولة للتوفيق بين حقائق الدين النابعة من القرآن والسنة وبين مختلف النظم الاجتماعية السائدة في بلاد الإسلام وما يترتب عليها من سلوك ؛ مما يفرض وجود آليات للانطلاق، على أساس من مرتكزات إسلامية متينة. ويفرض كذلك إبداع نماذج لذلك تكون مقنعة. ثم هو يفرض قبل هذا وبعد وجود الرائد القدوة.

وإنها لمستلزمات تبدو بعيدة المنال، ويبدو تحقيقها مهمة شاقة وشائكة، وربما رأى البعض استحالتها، ولكن بعيداً عن كل مجاملة، أنتم بعلو مقامكم فوقها مهما تكن بليغة صادقة، وبعيداً عن أي تزلف أنتم بسمو فكركم تمجونه ولم تُعَودوا عليه، فإنكم يا مولاي من أهلكم الله لهذه المهمة، إذ أنتم صدر بين ولاة أمر المسلمين: حكامهم وعلمائهم. وأنتم واسطة عقد الأشراف العلويين وسبط رسول الله الأمين، وعلى سنته في طليعة المدافعين، تقودون شعباً كشف عن حبه لآل البيت المطهرين منذ احتضن المولى إدريس وما زال، في توفيق مثالي وعملي بين سنيته وتشيعه، ولسان حاله يردد قول الشافعي:

إن كان رفضاً حب آل محمد

فليشهد الثقلان أني رافضي

والروافض —كما سبق يا مولاي— مصطلح يطلق على الشيعة كافة، وإن كانوا يشكلون جماعة من الزيدية خرجت على زيد مغالية في موقفها من أبي بكر وعمر.

لذا، فإنه ليس غريباً أن يؤول إليكم هذا الأمر.

وقد صدرت منكم مبادرات عديدة في هذا المجال تكفي الإشارة منها إلى دعوتكم للتقريب بين السنة والشيعة، وكنتم قد أعلنتم عنها في الكلمة السامية التي ألقيتموها بمناسبة استقبال السادة العلماء المشاركين في الدورة الأولى للجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية زوال يوم الثلاثاء 13 صفر 1411هـ الموافق 4 شتنبر 1990م. وهو تقريب تتابعونه وترعونه وتوجهونه.

وقد زدتم يا مولاي فدعوتم في القمة الإسلامية التي انعقدت بالدار البيضاء أيام 10-11-12 رجب 1415هـ الموافق 13-14-15 ديسمبر 1994م إلى إنشاء "هيئة عليا تصبح مرجعية للتعريف بأحكام الإسلام، بعيداً عن كل خلط أو التباس أو تأويل مشبوه" على أن لا "تمس هذه الهيئة بتنوع الهويات والخصوصيات لأن وحدة الإسلام تغنى بهذا النوع المرغوب فيه من التنوعات".

نرجو الله أن يحقق على يدكم الكريمة هذا الأمل الذي يتطلع إليه جميع المومنين الصادقين الساعين إلى أن يستعيد المسلمون وحدتهم القوية ومكانتهم المجيدة.

أمد الله في عمركم، ومتعكم بالصحة والعافية، وأدام عليكم حفظه وعنايته ورعايته، وأبقاكم قائدا رائدا مشدودا أزركم بإجماع الأمة حولكم، وأقر عينكم بولي عهدكم الأمجد سمو الأمير سيدي محمد وصنوه السعيد سمو الأمير مولاي رشيد وجميع آل بيتكم الأطهار.

ورحم الله والدكم المنعم مولانا محمدا الخامس وأجزل له الأجر والثواب لقاء ما قدم للوطن والدين. آمين.

والختم من مولانا أمير المومنين.

المسؤولية في الإسلام

انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن عبد اللّه بن عمر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال:

"ألا كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ عليهم وهو مسؤول عنهم، والرّجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأةُ راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيّده وهو مسؤول عنه، فكلّكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". رواه البخاري ومسلم.

ألقي في قصر الرياض بالرباط
وذلك يوم الجمعة 12 رمضان 1416هـ
الموافق 2 فبراير 1996م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لسم الله الرحمن الرحيم.
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد،
وعلى آله وصحبه أجمعين

اللهم أعنّي بمدد قدرتك، وأكرمني بنور علمك، وافتح لي آفاق هديك، وارزقني من فضلك، فإنك أنت القدير العليم، والهادي الكريم، ذو الفضل العظيم.

مولاي أمير المومنين،

لقد تفضلتم مرات كثيرة فأتحتم لي شرف المثول بين يدي جلالتكم، وأسعدتموني بالمشاركة في دروس مجلسكم العلمي الحافل، ومع ذلك فإني لا أشعر المرة تلو الأخرى إلا والهيبة في نفسي تكبر والخشية تزيد. أما الهيبة فنابعة من مقامكم الكريم وشخصكم العظيم، فأنتم في العترة النبوية الطاهرة، غرة الجبين ودرّة العقد الثمين، وأنتم في الملوك والرؤساء بدر طالع ونجم ساطع، وأنتم للأمة رمزها الأمين وملاذها المكين. وأما الخشية فصادرة عن شعوري بالقصور العلمي في حضرتكم الشريفة، إذ أكرمكم الله في العلم بمكانة هي نعمة أنعم الله بها عليكم إلى جانب نعم أخرى تشكرونها ففقتم وتفوقتم، وأدركتم ما لم ينله عالم مستفيد أو مجتهد مستزيد.

وإني يا مولاي إذ أرجو من جلالتكم اغتفار ما قد يصدر عني من هفوات في الفهم أو في التعبير، ألتمس الإذن لي بالحديث في موضوع: "المسؤولية في الإسلام"، انطلاقاً من هذا الحديث الشريف الذي هو منطلق الدّرس.

هذا الحديث يا مولاي وارد في مختلف كتب الحديث ودواوينه بصيغ تكاد تكون متقاربة إلا ما كان من بعض الاختلاف الطفيف في اللفظ، وقد اخترت هذه الصيغة التي رواها البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه، وأحمد بن حنبل في مسنده، وكذلك أبو داود في سننه، كلهم عن عبد الله ابن دينار، عن عبد الله بن عمر.

وأستسمحكم في كلمة قصيرة عن هذين الرجلين:

أما عبد الله بن عمر فهو ابن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أسلم مع والده وهو دون البلوغ، وهاجر معه، وربما هاجر قبله، وحضر بيعة الشجرة، وعرض نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم أحد. فرده لصغر سنه، ولكنه قبله في غزوة الخندق، وكان كذلك قد شارك في فتح مكة. عبد الله بن عمر كأبيه تحريا وورعاً ونزاهة وصرامة، وكان يتحرى في الحديث ويتحرى في الفتيا، وإن كان كأبيه يكثر من الفتوى. تعرفون يا مولاي أنه كان مع النفر الستة الذين اختارهم أبوه عمر بن الخطاب قبل موته للشورى ليختار منهم الخليفة على ألا يكون له من الأمر شيء. ولشدة نزاهته عرض عليه عثمان بن عفان القضاء والإمامة فامتنع، وحين قال له عثمان: إن أباه عمر كان يقضي وكان يؤم، أجابه: لأن عمر إذا أشكل عليه شيء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا أشكل شيء على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل فينزل الوحي، أما هو أي عبد الله فإنه إذا أشكل عليه شيء فإنه لم يجد من يسأله. وعرضت عليه يا مولاي الخلافة بعد مقتل عثمان فامتنع، ولم يرد أن يطوق ذمته كما قال: بقتل رجل من المسلمين.

عبد اللّه بن عمر روى عن سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وعن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعن السيدة عائشة، وعن أخته حفصة رضي اللّه عنهم أجمعين، وروى عنه جمّ غفير، وورد له في مسند بقي ثلاثون وستمائة وألف حديث، واتفق له البخاري ومسلم على ستة وثمانين ومائة حديث، وانفرد له البخاري بواحد وثمانين، ومسلم بواحد وثلاثين. كان شديد التحرّي، وكان ثقة، وكان مستقيم الحديث، كما شهد له بذلك الجميع. توفي سنة ثلاث وسبعين أو أربع وسبعين وقد كفّ بصره. وقال ابن المسيب يوم مات: إنه آخر من بقي. وقال عنه ابن سلمة كان أشبه الناس بأبيه عمر ابن الخطاب، إلا أن عمر كان في زمن كان له فيه نظراء، أما هو فكان في زمن لم يكن له فيه نظير. هذا يا مولاي هو عبد اللّه بن عمر.

أما عبد اللّه بن دينار فهو مولى ابن عمر سمع منه، وسمع من أنس بن مالك وحدّث عنه جماعة، منهم سفيان الثّوري وسفيان بن عيينة. شهد له بالاستقامة في الحديث، وبأنه ثقة وإن ضعفه العقيلي في كتاب الضعفاء للاضطراب في حديث، وإن كان دافع عنه ابن عبد البر، ودافع عنه الذهبي، وقال عنه ابن حنبل: إنه كان ثقة مستقيم الحديث. ويروى له في كتب الحديث نحو مائتي حديث كلها في الصحيح، وقد انفرد بحديث منع بيع الولاية وهبتها، وهو عند البخاري في العتق.

في هذا الحديث يا مولاي بعض الإشارات اللغوية والنحوية أستسمحكم في ذكر بعضها: **"ألا كلكم راعٍ"**، ألا، حرف يأتي بمعان كثيرة، منها: أنه يكون حرف استفتاح يفيد التنبيه ويفيد التحقيق. ذلكم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على لا النافية فإنها تفيد تحقيق ما بعدها.

و(ألا) تدخل على الجملة الإسمية، كقوله تعالى: ﴿ألا إنهم همُ السفهاء﴾، وتدخل كذلك على الجملة الفعلية: ﴿ألا يوم ياتيهم﴾ أي العذاب. "كل"، اسم يفيد الاستغراق، هذا الاستغراق قد يكون استغراق جنس إذا ألحقت بنكرة: ﴿كل نفسٍ ذائقة الموت﴾، وقد يفيد هذا الاستغراق استغراق أفراد الجنس، إذا دخلت أو إذا ألحقت أو إذا أضيفت إلى معرفة، كقوله تعالى: ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾. ومنه ما جاء في الحديث "**ألا كلكم راعٍ**"، الراعي هو الذي يقوم على الماشية وهي تسرح، ويطلق كذلك على من يتولى أمور الناس، يجمع على رُعاة وعلى رُعيان وكذلك على رُعاء و رِعاء، كما هو في الحديث: "**الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**". وغالباً ما تستعمل الرعاة، أي يستعمل جمع الرعاة للدليل على الذين ينهضون بشؤون الناس، أما الرّعيان والرعاء فيأتي جمعاً للذي يقوم على الماشية. والرعية هي التي يقوم الراعي بتدبير شؤونها وتجمع على رعايا، والكل من فعل يرعى رعياً، ولا يقال هنا رعيا، لأن الرّعي هو الكلأ، "**ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول**"، مسؤول من سأل يسأل سؤالاً وسولاً وسؤْلاً، ومسألة وسألة وسآلة.

في هذا الحديث يا مولاي، وفي آخر فقرة منه، نلاحظ قوله عليه السلام: "**فكلكم**" هذه الفاء هي فاء جوابية جاءت جوابا لشرط مقدر، أي إذا كان الأمر كذلك على هذا النحو الذي جاء في الحديث، إذا كان الأمر كذلك، "**فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**".

تلاحظون يا مولاي في سياق هذا الحديث وفي تركيبه أنه بدأ بالتعميم ثم انتقل إلى التخصيص، مع وضع أقسام لهذا التخصيص، الرّجل، المرأة، الخادم، ثم عاد مرة أخرى في نهاية الحديث إلى التعميم وكأنه يقرر ويثبت

ويؤكد. يمكن أن يطلق على هذا رد العجز على الصدر أو ما يمكن أن يسمى فذلكة، المقصود منها التوثيق، والتأكيد والتأخير.

شرح هذا الحديث يا مولاي لا يحتاج إلى كلام طويل فهو يشرح نفسه، ولكن الذي نود الوقوف عنده يا مولاي إن أذنتم، هو منظور الإسلام للمسؤولية من خلال هذا الحديث النبوي الشريف، فقد تحدث عن المسؤولية في مستويين اثنين: في مستوى عام، ثم في مستوى خاص.

أما **المستوى العام** فهو الذي أشار إليه بالإمام ويدخل فيه الإمام وكل ولاة الأمر، ويدخل فيه كذلك العلماء. رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**صنفان من الناس إذا صلُحا صلح الناس**": الأمراء والفقهاء. وفي رواية "الأمراء والعلماء". وعمر بن الخطاب (ض) قال: "اعلموا أنه لا يزال الناس مستقيمين ما استقامت أئمتهم وهداتهم". وعن ولاة الأمر، يقول الله تعالى مخاطباً إياهم وحاثّاً لهم على العدل: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾. أما العلماء ومن إليهم من الذين يتولون مسؤولية عامة، والعلماء هم علماء الشريعة باعتبارهم حفظتها، وباعتبارهم معلميها في مقابل ولاة الأمر، الذين هم منفذون لهذه الشريعة. والعلماء بالدرجة الأولى هم علماء الشريعة، ولكن كل العلماء من مختلف التخصصات، ويدخل معهم المربّون والمعلمون والأساتذة والوعاظ والخطباء والقائمون على الإعلام ومن إليهم ممن يتصلون بالجمهور وبالرأي العام، هؤلاء خاطبهم الحق سبحانه فقال: ﴿ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾.

هذه المسؤولية يا مولاي نلاحظ أنها لم ترد بهذا اللفظ في القرآن الكريم، على الرغم من أن الاشتقاقات التي جاءت من مادة "سأل" كثيرة في

القرآن، ولكن المسؤولية هكذا على صيغة المصدر الصناعي لم ترد في القرآن؛ وإنما ورد لفظ آخر هو رديف لها، وهذا في الأصل صفة من أهم الصفات التي ينبغي أن تتوافر في المسؤول، تلكم يا مولاي هي الأمانة. هذه الأمانة التي وصف الله بها تبارك وتعالى الملائكة، وصف بها جبريل الروح الأمين، ووصف بها الرّسل والأنبياء: ﴿*إني لكم رسول أمين*﴾.

وتحدث القرآن الكريم عن هذه الأمانة في نطاق المسؤولية فقال: ﴿*إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها واشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً*﴾.

لن أطيل يا مولاي في شرح هذه الآية الكريمة، فقد سبق لجلالتكم أن تحدثتم عنها في الدرس الذي ألقيتموه في رمضان من سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة وألف، الموافق لثمان وستين وتسعمائة وألف، ومن ثم فإنه تكفيني بعض الإشارات.

لقد امتنعت المخلوقات الكبيرة عن حمل هذه الأمانة، ولكن امتناعها يا مولاي ليس امتناع استكبار، كما امتنع إبليس عن السجود لآدم عليه الصلاة والسلام، إنما هو امتناع ناتج عن التواضع وعن الخوف وعن الخشية من عدم القدرة على تحمل المسؤولية. ﴿*وحملها الإنسان*﴾ هنا تقرير للواقع وبما سيكون، ﴿*وحملها الإنسان*﴾ هذا تكريم للإنسان في حقيقة الأمر، ولكن ﴿*إنه كان ظلوماً جهولاً*﴾، كان ظلوماً لهذه المسؤولية، وكان ظلوماً لنفسه، وكان جهولاً بمقتضيات هذه المسؤولية لخطرها ولأهميتها، ولكن الله تبارك وتعالى أخبرنا بأن الإنسان الذي حمل هذه الأمانة سوف يخرج من هذا الجهل، وسوف يخرج من هذا الظلم، بماذا؟ بالإيمان وبالعمل الصالح، فالله تعالى يقول: ﴿*وعد الله الذين آمنوا منكم*

وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يربط الأمانة بالإيمان فيقول: "**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**".

هذه الأمانة يا مولاي ترتبط بالمسؤولية وترتبط بالحكم، ينظر إليها الإسلام برؤية مخالفة للرؤية التي تنظر بها بعض المفاهيم، أو بعض النظريات السياسية، وبعض فلسفات الحكم الحديثة. فهناك من يرى أن الدولة والمسؤولية في الدولة تقوم على القوة، ولا تقوم على القيم ولا تقوم على الأخلاق. الأمانة كما ساقها القرآن الكريم، والمسؤولية كما يراها الإسلام تقوم على القيم، ومن ثمَّ فإنه إذا كانت تلكم النظريات تتحدث عن التناقضات التي تكون في المجتمع، وعن الصراع الذي ينشأ عن هذه التناقضات، وأن هذا الصراع لا يمكن أن يفض إلا بالديمقراطية أو ما إليها، فإن الإسلام لا يلغي الصراع، ولكنه يخفف من حدة الصراع بمجموعة من القيم:

أولا: الإسلام يرى المجتمع قائماً على الإخاء وعلى المحبة ﴿إنما المومنون إخوة﴾ هذه واحدة.

ثانيا: الإسلام يأتي بدلا من الصراع بالتنافس، ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾، والفرق شاسع بين التنافس وبين الصراع. فالتنافس يقود دائما إلى الخير، أما الصراع فيكون الهدف منه هدم الآخر وإلغاء الآخر لأخذ مكانه. ثم إن هناك قيمة أخرى يقوم عليها منظور الإسلام للأمانة وللمسؤولية وهي التبادل والتكامل، والتعاقد. التعاقد هنا تعاقد بين الطرفين، بين الراعي وبين الرعية، بين الحاكم وبين المحكوم، على الراعي أن يعدل، وعلى الرعية أن تسمع وتطيع. وهنا يا مولاي في الآية

التي قرأنا قبل قليل والتي تأمر ولاة الأمر بالعدل فإنها تأتي مباشرة بعد ذلك فتقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. اللطيفة هنا هي أن هذا التعاقد يقوم على العدل وعلى السمع والطاعة، ولكنه في القرآن الكريم بدأ بالعدل، ثم جاء بالسمع والطاعة. ثم إن هذا التعاقد يا مولاي لكي يكون على النهج الإيجابي وبالطريقة الصحيحة، فإن له مجموعة من الضوابط:

الضابط الأول هو الشورى. هذه الشورى التي يمكن القول بأنها صيغة إسلامية للديمقراطية، أو أنها إن لم تطابقها كلا فهي تطابقها بعضا. هذه الشورى يا مولاي تحدث عنها القرآن الكريم مرتين، تحدث عنها في سياق الثناء على الأنصار: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وتحدث عنها في سياق أمر الرسول بالاستشارة: ﴿وشاورهم في الأمر﴾. والرسول (ص) كان يستشير في غير أمور الدين، لأن أمور الدين كان ينزل فيها الوحي، ولم يكن في حاجة إلى أن يستشير، ولكنه كان يستشير في أمور الدنيا ويستشار، وهو القائل عليه الصلاة والسلام: **"ما كان من أمر دينكم فإليّ، وما كان في أمر دنياكم فأنتم أعلم به"**، وكان ذلك إثر حادثة تأبير النخل: أي معالجة النخل، وكان الصحابة رضوان اللّه عليهم قد استشاروه، فأشار عليهم بعدم تأبير النخل فكان أن النخل لم يثمر، فقال: **"ما كان من أمر دينكم فإليّ، وما كان في أمر دنياكم فأنتم أعلم به"**. وكذلك استشار الخلفاء الراشدون. والاستشارة تكون يا مولاي فيما ليس فيه نص بالنسبة لنا نحن المسلمين اليوم، الاستشارة تكون فيما ليس فيه نصّ، فيما لا تعرف كيفية تطبيق النصّ إذا وجد، تكون كذلك في الطوارئ والنوازل وما يحدث للأمة من قضايا الوقت، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وما إليها. شرط

واحد يشترط في المستشار أن يكون أميناً. رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**المستشار مؤتمن، فإذا استشير فليشر بما كان يصنع لنفسه**". والاستشارة يا مولاي قد تكون لعموم الناس كما هو الشأن في الاستفتاء مثلا، وقد تكون لاختيار جماعة أو مجلس أو نواب، وما إلى ذلك. هذا يا مولاي هو الضابط الأول.

الضابط الثاني هو النصيحة. رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة**" قالها ثلاث مرات ليبين أن الدين الكامل، وأن أكمل ما في الدين هو النصيحة، وأن الدين لا يتم العمل به حقاً إلا بالنصيحة. قال الصحابة رضوان الله عليهم: "النصيحة لمن يا رسول الله ؟ قال صلوات الله وسلامه عليه: "**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**". لله، أن نومن به وأن نطبق أوامره ونطيعه ونؤدي فرائضه وواجباته. لكتابه، أي أن نصدق بما فيه، وأن نعمل بما فيه. والنصيحة لرسوله، أن نومن به ونتبعه. ولأئمة المسلمين، النصيحة لأئمة المسلمين أن نسمعهم ونطيعهم، ونساعدهم ونكون إلى جانبهم، وأن نوجههم ونذكرهم ؛ وإن اقتضى الحال أن ننتقدهم ثم أن ندعو لهم، الدعاء من النصيحة لأولي الأمر. ثم لعامتهم، أن نعلمهم ونربيهم ونوعيهم ونوجههم، وأن ندافع كذلك عن مصالحهم، وأن نحفظ لهم حقوقهم. هذا يا مولاي هو الضابط الثاني النصيحة.

ونصل إلى ***الضابط الثالث***، ذلكم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. المعروف ما تعارف الناس عليه أنه خير، وأنه صلاح، وهو ما يرضي الله، وما يوافق الشرع، وما يتفق والطبيعة البشرية السوية، والفطرة السليمة وكذلك الذوق النقي، ذلكم هو المعروف، وعكسه المنكر.

الله تبارك وتعالى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة للمومنين: ﴿والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. ثم إن الله تبارك وتعالى أخبرنا —أكد ذلك— أنه سينصر المومنين، ولكن الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر: ﴿ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾.

ثم إن القرآن الكريم يتحدث مرة أخرى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيربطه بالأمة وبخيرية هذه الأمة، يقول: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴿. كنتم، وينبغي أن تظلوا، وينبغي أن تستمروا، لأن الخيرية مستمرة، ولهذا القرآن الكريم يدعونا إلى أن نقيم أمة ﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. قد يكون يا مولاي من السهل على الإنسان أن يأمر بالمعروف، ولكن قد لا يكون من السهل أن ينهى عن المنكر، لا سيما حين يكون المنكر متفشياً وشائعاً في المجتمع. ولهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم خص المنكر ببعض الأحاديث، من بينها قوله صلوات الله وسلامه عليه: "من رآى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". أيضا هنا يا مولاي لن أطيل الوقوف عند هذا الحديث فقد شرحتموه بما يشفي ويغني في الدرس الجامع الذي كنتم ألقيتموه في رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة وألف، الموافق لسنة ست وستين وتسعمائة وألف ميلادية. فقط هناك بعض الإشارات، التغيير باليد، وكما ذكرتم يا مولاي في درسكم يكون لأولي الأمر، لأصحاب النفوذ وأصحاب السلطة الذين لهم حق إنزال العقوبات وحق تنفيذها. أما

باللسان فيكون للعلماء والوعاظ والمربين والمدرسين والمرشدين، ولأجهزة الإعلام المختلفة، ولكل أولئك الذين يدخلون في إطار العلماء الموجهين أصحاب الكلمة. أما تغيير المنكر بالقلب فالنسبة للذي لا يستطيع. هنا يا مولاي قد يأتي من يعترض بأمرين:

أما **الأمر الأول**، فهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾.

قد يقول قائل، وقد قال الصحابة ذلك: "إننا إذا اهتدينا في أنفسنا فإننا لا يهمنا الآخرون، وسألوا رسول الله (ص) فأجابهم: **"بل ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر"**، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني هو الحديث أو بقية الحديث: "إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوًى متبعاً ودنيا مؤثرة". هذا الحديث يا مولاي لا يعني الانعزال والانزواء والانكماش في شبه أنانية، والتفرج على الأمة وعلى المجتمع وعلى المنكر وهو يتفشى، على الأقل الذي لا يستطيع أن يفعل، **"عليه بخاصة نفسه"** أي بنفسه هو يبدأ بها أي بأهله وبأسرته، أي بالذين هم في دائرة عمله، سواء كان المعلم في المدرسة، أو الموظف في الإدارة، أو الطبيب في العيادة، أو من إلى هؤلاء، كل في دائرته الخاصة، هذا هو عليك بخاصة نفسك، ليس أن يكون الإنسان أنانياً منعزلاً، لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم، وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾. نحن مسؤولون عن أسرنا وعن أبنائنا، لأننا نحن الآن فرطنا في ذلك، نحن مسؤولون وعلينا أن نعلمهم وأن نوجههم حتى نقيهم نار جهنم والعياذ بالله. ثم إن الله تعالى لعن أولئك الذين توقفوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني

إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، لبيس ما كانوا يفعلون﴾. ثم قضية خاصة النفس هي التي تحدث عنها الحديث في المستوى الثاني، ولعلنا غفلنا عنها، المستوى الثاني هو الذي تكون فيه المسؤولية خاصة، الرجل في بيته، والمرأة في بيتها مع أولادها ومع زوجها، والمسؤول عن مال البيت الخادم، والمسؤول عن العمل وما إلى ذلك. هذا هو المستوى الثاني وقد غفلت عنه في مقدمة هذا الدرس، هذه هي المسؤولية يا مولاي كما يراها الإسلام، ويخبرنا القرآن الكريم بأنها تراعى فيها جوانب ثلاثة.

هناك جانب ديني يتمثل في العلاقة مع الله عز وجل، وهناك جانب دنيوي يتمثل في العلاقة بالمجتمع ومع الناس، ثم هناك جانب ثالث ذاتي يتعلق بالنفس وبالضمير. هذه الجوانب الثلاثة جمعها القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا اللّه والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾. الجوانب الثلاثة: الجانب الديني، الجانب الدنيوي، والجانب الضميري. على هذه الجوانب الثلاثة يا مولاي يخبرنا القرآن الكريم بأنه ستكون المحاسبة، المحاسبة على هذه الجوانب الثلاثة، فاللّه تبارك وتعالى يقول: ﴿وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم﴾:

المحاسبة الأولى: ﴿ورسوله والمومنون﴾.

المحاسبة الثانية: ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون﴾ حتى تعرفوا ويتحرك ضميركم ونفسكم.

هذه المسؤولية يا مولاي، وهي عامة بدءاً من الإمام إلى أي مواطن في الأمة. المسؤولية عامة وجماعية، هذه المسؤولية للأسف الشديد أنها تخرق ببعض الممارسات التي تدل على أن حسّ الحقّ والعدل والمسؤولية لم يستقر

بعد في كثير من النفوس. من هذه الممارسات: الظلم الذي هو ضد العدل ﴿والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً﴾، "**الظلم ظلمات يوم القيامة**"، وفي الحديث القدسي: "**إني حرمت الظلم على نفسي وحرمته عليكم فلا تظالموا**". ثم من هذه الممارسات التي تخرق المسؤولية: الباطل، الباطل الذي هو ضد الحق، وقرأنا من قبل: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾. بالنسبة للجانب العام، والجانب العلمي، وجانب اطلاع الناس بصدق على الحقائق، وكذلك في جانب المعاملات، ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾. والظلم والباطل يتجليان في ظاهرة قبيحة متفشية في كثير من المجتمعات، هي ظاهرة الارتشاء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**لعن الله الراشي والمرتشي**" وفي رواية "**والرائش الذي يمشي بينهما**".

هذه يا مولاي كلها ممارسات تخرق المسؤولية، والمجال لا يتسع لتناولها، ولكن الإنسان المسؤول يستطيع أن يجنب نفسه الوقوع في هذه الممارسات بعدد من القيم يتحلى بها، بالاستقامة ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ -لهم الجزاء في الدنيا وفي الآخرة- ﴿تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ الجزاء في الدنيا، والجزاء في الآخرة.

سفيان الثقفي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: "**قل آمنت بالله ثم استقم**".

والله تبارك وتعالى أمر رسوله بالاستقامة وبعده أمر المسلمين: ﴿فاستقم كما أمرت﴾. هذه الآية يا مولاي هي الآية التي قال عنها رسول الله (ص) إنها شيبته، قال: "**شيبتني هود وأخواتها**"، قيل له وما شيبك في هود؟ قال: ﴿فاستقم كما أمرت﴾. إذن الاستقامة: ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾،

ليس معنى الاستقامة أن يكون الإنسان كاملاً وتاماً، ولكنه إذا وقع منه شيء فإنه يستغفر ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾، هذا خاص بعباد الله. ثم التقوى، التقوى كثيرة في القرآن: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تُقاته)، هذه الآية يا مولاي حين نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الصحابة إلى رسول الله (ص) قالوا له: من يقوى لهذا ؟ ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾، فنزل قول الله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، ولهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**اتق الله حيثما كنت، وأتْبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**".

هذه الرؤية الإسلامية يا مولاي التي كانت عليها المسؤولية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عهد الخلفاء، وفي عهد السلف الصالح، تحتاج إلى القدوة. نعم نحن الآن في مختلف البلاد الإسلامية، في مختلف العالم الثالث الذي ننتمي إليه، نحن ننظر إلى النموذج من خلال الغرب ومن خلال تقدم الغرب. والأسف أننا ننظر إلى الغرب ليس من خلال استقامته السلوكية، وليس من خلال علمه وإنتاجه وتكنولوجيته، وما يصنع وما ينتج، ولكننا ننظر إليه من خلال الانحلال، ومن خلال التفسخ، ومن خلال هذه القيم المادية التي ستؤول به إلى الخراب. ولهذا نحن نبحث عن النموذج، وننسى أن أمامنا نموذج رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ونموذج الصحابة رضوان الله عليهم، فالله تبارك وتعالى ينبهنا إلى أن القدوة في الرسول ومن الرسول: ﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾. والصحابة أيضا قدوة، رسول الله (ص) يقول: "**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم**

اهتديتم"، ويقول كذلك: "**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجد**".

نعم يا مولاي هذا النموذج النبوي، وهذا النموذج الذي قدمه السلف الصالح يحتاج إلى أن يقدم اليوم، ومن الذي يقدمه ؟ الذين يقدمونه يا مولاي والمسؤولون عن تقديمه هم ولاة الأمر، جميع ولاة الأمر، وهم العلماء، وهم الذين ينقلون السيرة النبوية ويعلمونها، وهم الذين يدرسون التربية الإسلامية، والفكر الإسلامي، وهم الذين يطلعون على جميع تخصصات الفكر في الكليات وفي الجامعات، عليهم أن يكون النموذج راسخاً في دينهم حتى ينقلوه. هذه المسؤولية يا مولاي وفي هذا الوضع الذي نعيشه وهو وضع مضطرب إلا من رحم الله، تحتاج إلى تنبيه وتحتاج إلى تصحيح، وتحتاج من أجل ذلك إلى تعبئة عامة، ولن يتحقق ذلك يا مولاي إلا بالتوسل بخطاب متماسك لا تناقض فيه ولا اضطراب، بخطاب يعيد الثقة، ويثبت المصداقية، ويضع المسؤولية في نصابها الحق، خطاب يقوم على وضوح الهدف، وعلى الاتزان في الرأي، وعلى الاعتدال في القول، وعلى الانضباط في الفعل، ويقوم على احترام عقيدة الأمة، ومراعاة معاناتها والنظر في معاناتها والعناية بتطلعاتها، ويقوم كذلك على أسلوب بعيد عن التهريج وعن المزايدة، وبعيد عن كل غلو وكل تشدد، وأن يكون يا مولاي في نظره تقدير المصلحة في تقدير عقلاني للمصلحة أو للصالح، وكذلك في تقدير للمرحلة ولمختلف الظروف والشروط التي تعمل فيها. وإنكم يا مولاي صاحب هذا الخطاب الفصل بما حباكم الله، وإن المغاربة أجمعين، بل المسلمين كافة ليعلقون آمالهم على جلالتكم، وهم يدعون العلي القدير أن يطيل الله عمركم، وأن يقويكم ويعينكم، وأن يمدكم بعونه، وأن يمد في

عهدكم، وأن يسبغ عليكم نعمة الصحة الكاملة والعافية الشاملة، وأن يسعدكم بما تحققونه من وحدة ترابية، ومن تقدم وازدهار مستمريْن، وبما تسعون إلى تحقيقه من عودة عز الإسلام ومجده الغابر، وبما تسعون إليه كذلك من جمع كلمة المسلمين، ووحدة صفهم وهدفهم، ويدعون الله عز وجل أن يشد أزركم بالإجماع حولكم، وبالصادقين المخلصين إلى جانبكم، وأن يحفظكم قرير العين بولي عهدكم صاحب السمو الملكي قلادة الأجيال سيدي محمد، وصنوه السعيد نابغة الشباب سمو الأمير مولاي رشيد، وبجميع آل بيتكم المكرمين.

إن الله وملائكته يصلون على النبيء، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾.

﴿سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾.

والختم من مولانا أمير المومنين.

ثقافة الحوار
كما أسسها القرآن الكريم

انطلاقاً من قوله عزَّ وجل:

(وإذ قال إبراهيمُ ربِّ أرني كيف تُحيي الموْتى، قال أوَ لم تومنْ، قال بلى، ولكنْ ليطمئِّن قلبي، قال فخُذْ أربعةً من الطّير فصُرهُنَّ إليكَ ثمَّ اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً ثم ادعُهُنَّ ياتينك سعْياً، واعلَم أن الله عزيزٌ حكيم).

سورة البقرة، الآية 260

ألقي في قصر الرياض بالرباط

يوم الأربعاء 11 رمضان 1419هـ

الموافق 30 دجنبر 1998م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لسم الله الرحمن الرحيم.
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد،
وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿*ربِّ اشرح لي صدري ويسِّر لي أمري واحلل عقدة من لساني*﴾ **وثبت قوة الحق والصدق في جناني، وافتح لي بفضلك مغالق الفهم، ونوِّرني بقبس مما لديك من علم، فإنك تعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب.**

مولاي أمير المومنين،

ماذا عسى التلميذ أن يقول أمام معلمه، والمريد بين يدي شيخه ؟ وماذا يا ترى يمكن أن يكون موقع الباحث في المعارف الإسلامية وموقف دارسي الحضارة والثقافة إزاء مبدع هذه الحضارة والثقافة ومقيمها على أسس تلكم المعارف ؟ تلكم يا سيدي، حالي في كل مرة أتشرف بالمثول بين يدي جلالتكم، وأعتلي هذا الكرسي الذي وضعتموه في هذا المجلس العلمي الموقر، ليكون مركز علم ومنبر فكر ومنار إشعاع، ومكاناً لتأمل قضايا الإسلام والمسلمين. وإني اليوم، بل وإني الساعة لأكثر شعورا بهذه الحالة، وقد أتحتم لي يا مولاي أن أتحدث عن الحوار وعن ثقافة الحوار كما أسسها القرآن الكريم، وأنتم رائد هذا الحوار والداعي إليه والحاث عليه، وأنتم القدوة فيه والأسوة. وإن أذنتم لي يا مولاي تحدثت عن هذا الموضوع، انطلاقاً من آية الدرس، واعتماداً على معهود تسامحكم وتشجيعكم، وعلى

مألوف تجاوزكم عن الأخطاء وعن الهفوات. وقد جعلت هذا الدرس ثلاثة أقسام:

- في **القسم الأول:** سأتحدث عن الآية في إطار السورة وما تتضمنه من إشارات لغوية ونحوية.

- وفي **القسم الثاني:** سأتناول القضايا التي تنبعث من هذه الآية.

- وأما في **القسم الثالث:** فسأتعرض للحوار.

*** *** ***

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: **﴿وإذ قال إبراهيمُ ربِّ أرني كيف تُحيي الموْتى، قال أوَ لم تومنْ، قال بلى، ولكنْ ليطمئِّن قلبي، قال فخُذْ أربعةً من الطّير فصُرهُنَّ إليكَ ثمَّ اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً ثم ادعُهُنَّ ياتينك سعْياً، واعلَم أن الله عزيزٌ حكيم﴾.**

هذه الآية يا مولاي هي الآية الستون بعد المائتين من سورة البقرة، وسورة البقرة كما لا يخفى على مولاي، هي أطول سورة في القرآن الكريم، إذ تتضمن خمساً وثمانين ومائتي آية حسب العد المدني، وستاً وثمانين ومائتين حسب عد أهل الكوفة، وسبعاً وثمانين ومائتين حسب عد البصريين. وهي في المصحف تضم خمسة أحزاب إلا نحو ثمن حزب، جاء في أول سورة آل عمران. وهي سورة مدنية، إذ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المدينة لا تستثنى منها إلا آية، وهي قوله تعالى: **﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾**، وإن كانت هذه الآية نزلت في منى أثناء حجة الوداع، فإنه يمكن اعتبارها آية مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة.

ثم إن هذه السورة يا مولاي تسمى سورة البقرة، والسبب في ذلك أن الله تبارك وتعالى —وهو يوحي إلى رسوله الكريم— جعله يستحضر هذه

المعجزة التي حدثت لسيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، إذ قتل أحدهم ولم يعرف قاتله، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن تذبح بقرة وأن يضرب بجزء منها القتيل، فيبعث ويخبر بقاتله.

هذه السورة كذلك يمكن أن نضيف عنها أنها تتضمن كثيرا من الأحكام وكثيرا من الأخبار، وتتحدث عن الكائنات وعن بدء الخليقة وعن آدم، وتتحدث عن المومنين والمشركين والمنافقين. ولهذا قال ابن العربي: "إن هذه السورة تتضمن ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر".

ولأهمية هذه السورة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحث على قراءتها وعلى تدبرها. وهو القائل عليه الصلاة والسلام: "**إن لكل شيء سناماً —أي قمة— وسنام القرآن سورة البقرة**"، وهو القائل عليه السلام: "**إن أخذها بركة وتركها حسرة**". من هنا كان الصحابة رضوان الله عليهم يسارعون إلى قراءتها وإلى حفظها وإلى شرحها ويعتزون بذلك. بل إنا نجد أن بعض المبدعين من شعراء المرحلة من الذين كانوا متميزين في الساحة الشعرية، بعد أن حفظوا هذه السورة، وبعد أن تعلموها أحجموا عن قول الشعر ؛ يشار في ذلك إلى لبيد أحد شعراء المعلقات وصاحب المعلقة المشهورة: عفت الديار محلها فمقامها ألخ ... استنشده مرة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، شيئاً من شعره فقال: "والله ما كنت لأقول شيئاً من الشعر بعد أن علمني الله سورة البقرة".

هذا بعض ما يمكن أن نقوله عن هذه السورة، إلا إذا أردنا أن نضيف أنها هي السورة الثانية في المصحف الشريف بعد الفاتحة، وإن كانت في النزول هي السابعة والثمانون في الترتيب، أي في ترتيب النزول قبل آل عمران وبعد سورة المطففين.

إذن هذه هي السورة التي وردت فيها هذه الآية، فماذا عن الآية ؟

﴿وإذ قال إبراهيمُ﴾ الواو في عادتها تكون استئنافية أو تكون للعطف. هي هنا للعطف، معطوفة على آية قبلها ﴿أو كالذي مرَّ على قرية﴾. وقد استمعنا إليها في القراءة منذ قليل. و(إذ)، تكون للفجاءة، وتكون للتعليل، وتكون ظرفية. وهي هنا ظرفية، وتُعرب مفعولاً به لفعل محذوف تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم. وبهذا الاعتبار يمكن أن تفهم الآية أو كل الآيات التي تبدأ بـ ﴿وإذ قال﴾.

إذن ﴿وإذ قال إبراهيمُ﴾، إبراهيم لا يخفى على أحد أنه أبو الأنبياء، وأنه خليل الله. يذكر المؤرخون أنه إبراهيم بن تارح (بالحاء وبالخاء كذلك). وورد في القرآن الكريم أنه ابن آزر ﴿قال إبراهيم لأبيه آزر﴾. وفي الحديث الشريف كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**يبعث الله يوم القيامة آزر، ويلقى ابنه إبراهيم وعلى وجه آزر غبرة وقترة**"، ولكن المفسرين يذهبون إلى أن آزر إنما هو صفة أو لقب لتارح، وأن أزر في لغة القوم هو المخطئ.

إبراهيم عليه السلام أصله من بابل في أرض العراق، ثم انتقل إلى أور على شاطئ الفرات ومن ثم إلى فلسطين، ثم إلى مصر حيث تزوج بسارة ومعها جاريتها هاجر، ثم بعد ذلك انتقل إلى الحجاز حيث أقام البيت.

إبراهيم عليه السلام امتحن مرتين، امتحن أولاً حين كان أول من كسر الأصنام وألقى به قومه المشركون في النار ؛ ولكن الله تبارك وتعالى نجاه، ومن ثم سمي بخليل الله. ثم امتحن بعد ذلك حين أمر بذبح ابنه، وكان ما كان مما هو معروف.

ومعروف أن إبراهيم عليه السلام في المنظور الإسلامي وفي القرآن الكريم كان حنيفاً مسلماً وأن دينه الإسلام. إذن إبراهيم يحاور ربه في هذه الآية، فتقول الآية: ﴿وإذ قال إبراهيمُ﴾ ماذا قال؟ ﴿ربِّ أرني﴾ ﴿رب﴾ أصلها يا ربي، ولكن حذف حرف النداء وحذف ياء المتكلم لوضوح الأمر، إذ لا حاجة إلى حرف النداء ولا إلى ياء المتكلم لوضوحه، و(رب) منادى منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

إذن ﴿ربِّ أرني﴾ إبراهيم عليه السلام يطلب من الله أن يريه رؤية بصرية، ومن هنا تبدأ المسألة ؛ الرؤية رؤية بصرية، هو يريد أن يرى بعينيه ﴿أرني) أرني ماذا؟ ﴿كيف تُحيي الموْتى﴾ هو لم يطلب أن يرى إحياء الموتى. لا، هو يريد أن يرى كيفية إحياء الموتى. وكيف تكون للنفي وللإنكار وللتعجب وللاستفسار، ولكنها هنا لا تعني إلا الكيفية. أرني كيفية إحياء الموتى، وكيف وما بعدها مفعول به ثان لـ ﴿أرني﴾. ﴿كيف تُحيي الموْتى، قال أوَ لم تومنْ﴾، الهمزة هنا همزة استفهام تقريرية أي تقرير حالة معينة، هي التي نصادفها في كثير من الآيات والنصوص، كقوله تعالى: ﴿ألم نشرحْ لك صدرك﴾، همزة استفهام تقريرية، ومثلها قول الشاعر جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا *–* وأندى العالمين بطون راح

هذه الحالة التي تقررها الهمزة ينم عنها حرف الواو الذي هو واو الحال، وهو يخفي فعلاً مقدراً، تقديره: أأُريك وأنت لم تومن ؟ قال المفسرون: أأُريك وأنت لم تومن"، وقال آخرون: "أأُريك وأنت آمنت". وقال غيرهم: "ألا يكفيك إيمانك". ورسول الله صلى الله عليه وسلم نفى عن سيدنا إبراهيم، نفى عنه الشك فقال: **"نحن أولى بالشك من إبراهيم"**،

معناه أنه لو شك إبراهيم لكنا نحن أقرب وأولى إلى الشك. وبما أننا نحن لم نشك فإن إبراهيم لم يشك. إذن النبي صلى الله عليه وسلم نفى الشك عن إبراهيم، وبالفعل لأن إبراهيم لم يشك ولم يفقد إيمانه، ولكنه كان يريد شيئاً آخر ﴿قال: بلى﴾ بلى يا مولاي حرف جواب، يأتي بعد النفي فيحوله إلى إثبات. ﴿ألستُ بربكم ! قالوا: بلى﴾ وهي على عكس نعم، لأن نعم تصدق النفي وتصدق الإثبات. ولهذا قال: ﴿بلى، ولكنْ﴾ سيعلل ﴿ليطمئِّن قلبي﴾ الاطمئنان هدوء النفس باليقين وبالتصديق. هذا ما كان يريده إبراهيم عليه السلام، أما الإيمان فموجود، ولكن يريد شيئاً آخر زائداً، وسنرى بعد قليل هذه الزيادة كيف تكون ﴿ولكنْ ليطمئِّن قلبي﴾.

وتلاحظون يا مولاي أن في هذه الآية الكريمة فعل (قال) يتكرر أربع مرات من غير ذكر الفاعل ومن غير عطف ومن غير أي شيء لماذا ؟ لأن السياق واضح. قال إبراهيم، قال الله، قال إبراهيم، قال الله، لا نحتاج إلى ذكر الفاعل لوضوح السياق. قال: ﴿قال فخُذْ﴾، الله تعالى أمره أن يأخذ. فعل أخذ معناه: الأخذ باليد، وأن الأمر سيصبح باللمس وبالمحسوس. وهذا الفعل ﴿خذ) يلحق بفعل ﴿أرني﴾ أي الرؤية البصرية. إذن المسألة ستصبح منظورة وستصبح ملموسة ﴿أرني كيف تُحيي المْوتى ... ... قال فخُذْ أربعةً من الطّير﴾ أربعة من الطير. ﴿الطير﴾ هذه يا مولاي صيغة مصدرية تكون على الإفراد والجمع، أو تقال للإفراد والجمع وللمذكر والمؤنث، ولكنها هنا استعملت على التذكير لماذا؟ لأن أربعة جاءت مؤنثة، والقاعدة أن العدد يكون على عكس المعدود (أربعة) لو قال أربعاً من الطير لأوّلنا بأن الطير مؤنثة. ﴿قال فخُذْ أربعةً من الطّير

فصرهنَّ إليكَ﴾، قرئ ﴿صُرْهُنَّ﴾ وهي قراءة الجمهور، وقرئ ﴿صُرَّهُنَّ﴾ و﴿صِرَّهُنَّ﴾ و﴿صَرَّهُنَّ﴾. معنى ﴿صُرَّهُنَّ﴾؟ المفسرون وقفوا أمام هذا الفعل موقفين: ﴿صُرَّهُنَّ﴾ تعني: مال وعطف، وتعني كذلك قطع، وكل من المعنيين ينعكس على بقية الآية كما سنرى.

إذن قال: ﴿فخُذْ أربعةً من الطّير فصُرهُنَّ إليكَ ثمَّ اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً﴾ الجبال أو الجهات كانت أربعة، لماذا أربعة؟ حتى لا يظن بأن لجهة فضلا على الجهة الأخرى، شرق وغرب وشمال وجنوب، الجهات كلها متساوية. ولماذا قال الله تعالى: ﴿مِن﴾؟ مِن للتبعيض دليل على التنوع والتعدد كأنه قال له: خذ ما شئت من الطير وليس طيراً بعينه. خذ ما شئت من الطير ﴿فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ قرأ الجمهور (جُزْءاً)، وقرئ (جُزُءاً) و (جُزّاً)، ﴿اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً ثم ادعُهُنَّ ياتينك سعْياً﴾ ثم ادعهن: أي اطلبهن ﴿ياتينك سعْياً﴾ سعياً حال، ولكن حال ممَّ؟ إما أنه حال من الأجزاء التي ستأتي ساعية، وقال بعض المفسرين إنها حال لإبراهيم، هو الذي سيسعى إليها. ولكن في الحقيقة حتى يكتمل الأمر، وحتى تؤدي الآية غايتها، إن الأجزاء مقسمة من طير معين، وهي أجزاء أي قطع، وصرهن هنا بمعنى قطعهن، وحين سيدعوهن ستأتي مجتمعة ملتئمة، لأن الحكمة والغاية من هذه الآية هي إحياء الموتى. إذن ﴿ثم ادعُهُنَّ ياتينك سعْياً، واعلَم أن الله عزيزٌ حكيم﴾، الله تعالى قوي وقادر على أن يفعل ما يشاء، أن يحيي الموتى وأن يميت وما إلى ذلك.

*** *** ***

من هنا يا مولاي أنتقل إلى **القسم الثاني من الدرس**، وهو الذي سأتناول فيه بعض القضايا المنبعثة من هذه الآية، وسأقف عند قضايا ثلاثة:

القضية الأولى: وتتعلق بإحياء الموتى أي بالبعث. هذه قضية شغلت الإنسان منذ كان وما زال. القرآن الكريم في آيات كثيرة حسم الأمر: ﴿يخرج الحيّ من الميّت، ويخرج الميت من الحي﴾، ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾. بل إن القرآن الكريم سيبرهن على إحياء الله وقدرة الله على إحياء الموتى، سيبرهن بأسلوب فيه شيء من البداهة ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾. يسأل مسألة سهلة ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم﴾. ومع ذلك ظلت هذه المسألة تشغل العلماء وتشغل المفكرين والفلاسفة، المجال لا يتسع للطول، ولكن لا بأس من ذكر بعض الأمثلة: الفارابي مثلا وهو فيلسوف مسلم نعرف أنه تأثر بأرسطو، وتأثر بأفلوطين Platon، وتأثر بالأفلوطنية الجديدة Néo-Platonism. وأرسطو وهؤلاء كانوا يؤمنون بجوهر النفس وبخلود الروح، وتأثر بهم الفارابي فقال: "إن البعث لا يكون بالأجسام ولكن يكون بالنفوس"، بل زاد وضيق الخناق فقال: "إن الله تعالى لن يبعث إلا النفوس الخيرة أما النفوس الشريرة فإنه لن يبعثها". ما كان لهذا الكلام أن يمر، فقد رد عليه علماء المسلمين وفلاسفتهم. رد عليه ابن طفيل، ورد عليه الغزالي. والمنظور الإسلامي واضح عند هذين الفيلسوفين، بل إن ابن رشد فيلسوف الغرب الإسلامي عقب عليه وقال: "إن المهم هو

أن نقر بالبعث، أما كيف يكون البعث، فهذه مسألة تترك للاجتهاد وللتأويل".

ننظر في قضية إبراهيم، فإنه في هذه الآية وبهذا السؤال وبهذا الجواب الإلهي وبهذا البرهان المادي حوَّل المسألة، مسألة البعث ومسألة الإحياء، من مسألة استنباطية، موضوعها ومنهجها العقل إلى مسألة استقرائية موضوعها المحسوس والملموس، ومنهجها التجريب. إذن هذه هي القضية الأولى.

القضية الثانية يا مولاي: هي التي يمكن أن ننطلق فيها من قضية إبراهيم، وأنه كان يسعى إلى اليقين. هو مؤمن ولكنه يسعى إلى اليقين، أي إلى التصديق الذي يرسخ في أعماقه، ويزيل منه كل شك وكل قلق. اليقين عند علماء الكلام هو الذي لا يتغير ولا يستحيل، ويحتاج إلى الدليل والبرهان، والبرهان عادة في المعقولات وفي الإلاهيات وفي المجرد (L'Abstrait) لا يكون إلا بالحدس (L'Intuition)، ولكنه هنا أصبح منظوراً وملموسا ومحسوساً، فتحقق لإبراهيم ما يسميه المناطقة الإدراك بالوقوع والثبوت.

ماذا ينتج عن الإدراك بالوقوع والثبوت؟

ينتج عنه التصديق، والتصديق بالمشاهدة كما حدث لإبراهيم عليه السلام يفوق بقية أنواع التصديق، تصديق المقلد، تصديق العارف بالدليل، لا يفوقه إلا تصديق المستغرق، وتصديق المستغرق هو الذي لا يشاهد إلا الله عز وجل. بهذا الإدراك وبهذا اليقين حدث لإبراهيم أو تحقق له الوضوح العقلي. والوضوح العقلي يمثل إحدى قواعد المنهج الذي نجده عند

ديكارت في الاستدلال الرياضي بأنه هو السبيل للمعرفة الدقيقة. إذن هذه هي القضية الثانية.

أما **القضية الثالثة:** فهي طالما أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً وكان مؤمناً، ولكنه كان يريد اليقين، معناه أنه كان يريد الزيادة. السؤال هنا: هل الإيمان يزيد وينقص؟ هذه مسألة تكلم عنها العلماء وعلماء التوحيد بصفة خاصة، هل الإيمان يزيد وينقص؟ نجد في القرآن الكريم ما يفيد أنه يزيد ﴿زادتهم إيماناً﴾، ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾. إذن هو في القرآن الكريم يزيد. وفي الحديث النبوي الشريف، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيزيد الإيمان أو ينقص؟ قال: **"نعم، يزيد وينقص"**.

ومن هنا فإن العلماء نظروا إلى قضية الزيادة والنقصان في الإيمان من خلال أربع فئات:

- الذين لا يزيد إيمانهم ولا ينقص وهم الملائكة.
- الذين يزيد إيمانهم ولا ينقص وهم الأنبياء.
- الذين يزيد إيمانهم وينقص وهم سائر المومنين.
- والذين ينقص إيمانهم ولا يزيد وهم الفاسقون.

هنا يا مولاي، إشارة أود ذكرها، وتتعلق بموقف الأشاعرة، أهل السنة الأشاعرة، من قضية الإيمان ؛ ونحن من أهل السنة الأشاعرة. الأشاعرة ماذا يقولون في الإيمان؟ يقولون إن الإيمان أصل وفرع، أما الأصل فهو الذي يتصل بالمعتقدات، وأما الفرع فهو ما يتصل بالتطبيق، بالعبادات التطبيقية وأداء الطاعات والفروض. يقولون: من أنكر شيئاً من الأصول أو من الأصل أو الفرع فهو كافر، ومن تهاون في شيء من الفرع فهو عاصٍ

فاسق، إن تاب عفا اللّه عنه وإن لم يتب فإن اللّه تعالى يعذبه ويدخله النار ولكن لا يخلده في النار. ثم يزيد الأشاعرة فيقولون: إن هؤلاء العصاة الفاسقين قد يشفع لهم النبي صلى اللّه عليه وسلم. ومن هنا يقول الأشاعرة بالشفاعة، نرجو اللّه تبارك وتعالى أن تعمنا. هذه الشفاعة ستمحو كل هذه الزلات وهذا النقص في إيمان الفرد. والأشاعرة هنا يختلفون عن غيرهم، يختلفون عن المرجئة والخوارج. المرجئة يقولون: إن مرتكب الكبيرة مومن، والخوارج يقولون: إن مرتكب الكبيرة كافر. جاء المعتزلة فقالوا: إن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، هو فاسق ولكنه ليس كافراً. وإيماناً منهم وحرصاً منهم على العدل الإلهي، وأن اللّه تبارك وتعالى لا بد أن ينفذ عدله، فإن هذا الفاسق إذا لم يتب فإنه يدخل النار ويخلد في النار، وإن قالوا بأن عذابه يكون أخف من عذاب الكافر.

*** *** ***

إذن يا مولاي، هذه قضايا ثلاثة تنبعث من هذه الآية، ثم نصل إلى القسم الثالث لننظر في القضية الكبرى التي هي محور هذه الآية وهي الحوار. لاحظنا أن هناك حواراً منظماً مسلسلا بأسلوب معين بين اللّه عز وجل وبين سيدنا إبراهيم عليه السلام.

حين نطرح السؤال حول الحوار وحول موقف الإسلام من الحوار، وحول أسس هذا الحوار في الإسلام، فإننا نجد جملة أشياء، سأستعرضها يا مولاي بسرعة. المسألة الأولى أن هذه الكلمة كلمة الحوار أصلها من حار، يحور، حوراً، بمعنى رجع. ونجد في القرآن الكريم ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾، بالنسبة للذي يؤتى كتابه من وراء ظهره. ثم نجد مجموعة من

المصطلحات ومن الكلمات، نجد التحاور، نجد يحاور ﴿قال لصاحبه وهو يحاوره﴾، ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره﴾، ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما﴾.

إذن مادة الحوار موجودة، كذلك نجد مادة الجدال ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾. و﴿جدلاً﴾ المادة موجودة في القرآن الكريم، وموجود كذلك ما هو أفظع من الجدال السيء وهو المراء ﴿فلا تمترن﴾، المراء منهي عنه. إذن هناك مجموعة من المصطلحات، هناك رصيد لغوي إذا شئنا في القرآن الكريم يدل على الحوار. ثم هناك منطلق للحوار في القرآن الكريم، ما هو هذا المنطلق؟ وهو أن المتحاورين أو المتحاورين يقفان موقفاً متساوياً، قد يكون أحدهما على صواب وقد يكون الثاني على خطأ، الله تبارك وتعالى يعلم نبيه الكريم يقول له قل: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾. الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف أنه على حق، وأنه على هدى ولكنه يحاور الخصم ﴿وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾، يعني أن أحدنا مخطئ والآخر مصيب.

وهناك علم عند العرب علم قديم يسمى علم المناظرة، ويطلقون على هذا النوع من الأسلوب في المناظرة، يطلقون عليه إرخاء العنان للمناظر، يعني أنت ترخي له العنان تتركه على طبيعته وأنه قد ينتصر عليك. ثم إن أسلوب هذه الآية يا مولاي ﴿وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾، هذا الترتيب ترتيب الحالات وترتيب المحاورين، هذا يسمى في علم البديع أسلوب اللف والنشر. إذن هناك المنطلق ثم هناك الأسلوب.

كيف يكون الحوار؟ أو كيف علمنا القرآن الكريم أن يكون الحوار ؟ الحوار واضح في الآية التي تعلمنا كذلك كيف ندعو للدين ﴿ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾. هنا مراحل ثلاثة، أو إذا شئنا أساليب ثلاثة: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة)، الحكمة كلمة يا مولاي جامعة لكل خير، ولكل صلاح، ولكنها تفيد هنا المعرفة الصحيحة والعلم الدقيق الذي لا زيغ فيه ولا انحراف ولا تشويه ولا تزييف. الذي يحاور ينبغي أن ينطلق من هذه المعرفة الصحيحة، ولهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (قل هذه سبيلي)، كان الله تعالى يعلمه ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة﴾ لا عن جهل، بل يعرف، ومعرفته صحيحة وثابتة وقوية.

إذن بالحكمة والموعظة، الموعظة نحن نعرف ونستعمل كثيراً كلمة الوعظ والإرشاد، الوعظ يا مولاي كما لا يخفى على سيدي هو الكلام اللين الرفيق، الذي فيه لين وفيه رفق، وهو الكلام الذي يذهب مباشرة إلى القلب فيؤثر عليه. هذا هو الوعظ.

وفي آيات كثيرة يتحدث القرآن الكريم عن اللين، حين أمر الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ ومع ذلك ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ بدون عنف وبدون تهريج وبدون قوة وبدون انفعال ﴿إنّه طغى، فقولا له قولا ليّنا﴾، ما هو أثر القول الليّن؟ ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾، أي لا بد من الموعظة حين تكون لينة أن يكون لها مفعولها وأن يكون لها مدلولها. وبعض الصحابة، ولعله العرباض ابن سارية قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة

وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون". هذه هي الموعظة. إذن بالحكمة والموعظة، وزاد فوصفها بالحسنة، هذا تأكيد لهذا الوعظ وكيف ينبغي أن يكون ولأسلوب الحوار كيف ينبغي أن يكون. ثم بعد ذلك تأتي المرحلة الثالثة ﴿وجادلهُم﴾، جادلهم أي قارعهم حجة بأخرى. أنت تقول وأنا أقول، أنت تدافع وأنا أرد، أنت تأتي بحجة وأنا آتي بأخرى. والقرآن مليء بالدعوة إلى الإتيان بحجة ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. إذن بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن. قال المفسرون يا مولاي، الجدال بالتي هي أحسن هو الجدال الذي ينطلق من حق، لأن الإنسان قد يجادل بالباطل –وهو كثير– ولكن الجدال حين يكون بحق فإنه يكون بالتي هي أحسن، هنا يا مولاي القرآن الكريم يعلمنا أساليب ثلاثة في الحوار:

الأسلوب الأول هو الأسلوب اليقيني الذي لا نقيض فيه، وهذه هي الحكمة. **الأسلوب الثاني** الذي هو الموعظة هو أسلوب الخطابة، والخطابة هي التي تؤثر في النفس وتزيل ما فيها من ظلم. ثم يأتي **الأسلوب الثالث** وهو أسلوب المقارعة والبرهنة والمجادلة.

بقيت نقطة أخرى في هذا الحوار الذي علمنا إياه القرآن الكريم، وهو أن الله تبارك وتعالى تحاور كثيراً في القرآن الكريم. ويكفي أن نمثل بنماذج ثلاثة من هذا الحوار:

حاور الملائكة، وحواره مع الملائكة معروف، حين أراد أن يستخلف آدم في الأرض ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفَة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمْدك ونقدّسُ لك،

قال إني أعلمُ ما لا تعلمون﴾. حقيقة ينبغي أن نتأمل ويتأمل الناس هذا الحوار يصدر من الله عز وجل، وهو القادر العارف القاهر. ومع ذلك يخاطب محاوره بأسلوب كما قلنا فيه الإذعان أو إرخاء العنان للمُناظر ﴿قال إني أعلمُ ما لا تعلمون﴾، ﴿وعلّم آدَم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾. قدم لهم البرهان المادي، ولهذا ﴿قالوا سبحانك لا علْم لنا إلاّ ما علمتنا إنّك أنتَ العليم الحكيم﴾. إذن الله تبارك وتعالى حاور الملائكة، وحاور كذلك الأنبياء. الآية، آية الدرس هي حوار مع سيدنا إبراهيم عليه السلام. كذلك معروف حواره مع موسى ﴿قال ربّ أرِني أنظر إليك﴾ يعني طلب شيئاً عظيماً، لم ينهره ولم يبعده، ولكن قال له: ﴿قال لن تراني، ولكن انظُر إلى الجبل فإنِ استقرّ مكانه فسوف تراني﴾. بهذا الأسلوب نعرف كيف يحاور الله تبارك وتعالى وكيف يعلمنا أن نحاور. إذن حاور الملائكة، وحاور الأنبياء، وحاور إبليس كذلك. ومحاورة الله تبارك وتعالى مع إبليس معروفة، حين رفض أن يسجد لآدم ﴿قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتُك، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، قال فاهبط منها﴾. آيات كثيرة في هذا السياق ﴿قال رب فأنظِرني إلى يوم يبعثون، قال فإنكَ من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾.

هكذا يا مولاي، حين نتأمل هذه المسائل التي أستسمح إن كنت عرضتها بشيء من السرعة وبشيء من الاختصار، ولم أتوسع فيها نظراً لضيق الوقت ؛ حين نتأملها فإننا نجد أن القرآن الكريم وضع أسس الحوار

وبين لنا أساليب هذا الحوار، وكيف ينبغي أن يكون، مع أي طرف ومع أية جهة كيفما كانت.

وأنتم يا مولاي، أنتم رائد هذا الحوار تدعون إليه في مختلف المجالات، وفي سائر الميادين، سياسية واجتماعية وفكرية ودينية، وكثير من رعاياكم من علماء شعبكم الوفي يشاركون في الحوار، سواء الحوار الإسلامي الإسلامي بين المذاهب، أو الحوار بين المسلمين والمسيحيين، بل لقد عقد يوم دراسي في السنة الماضية للحوار شارك فيه رهبان يهود كذلك[1].

إذن أنتم تدعون إلى الحوار على اعتبار أن الحوار هو الوسيلة للتعارف، ولإزالة الخلافات، وللتقريب بين الشعوب، والتقريب بين الأفكار، والتقريب بين الديانات. وحين يتعلق الأمر بالديانات، فإن الشيء الذي ينبغي أن يجمعنا هو الإيمان بالله، حوارنا مع أهل الديانات ومع أهل الكتاب ينبني على الإيمان بالله ويرتكز على القيم الدينية التي هي قيم إنسانية، ويقوم على الاحترام المتبادل لمقدسات كل دين ومتطلبات العبادة فيه.

بهذا أنتم يا مولاي تشجعون الحوار إيماناً منكم بجدواه، وبأنه هو الوسيلة لإزالة الصراع، ولمحو الفوارق والخلافات. وإني وقد عرضت هذه التأملات لأخجل وأخشى أن أكون تجاوزت ما كان متوقعاً مني، وأخشى كذلك أن أكون وقعت في بعض التقصير وفي بعض النقص وفي بعض الهنات وفي بعض الهفوات، ولكن أملي يا مولاي أنكم دائماً تغضون الطرف عن

[1] – شارك الجراري في جميع هذه الحوارات.

هذا النقص وعن ذاك التقصير ؛ وأنكم تزجون إلى علماء رعيتكم التقدير والتنويه والثناء، فأرجو ألاَّ يكون في هذا الدرس ما يحيد عن الصواب، وأكتفي بهذا القدر.

وأختم بالدعاء داعياً الله تبارك وتعالى أن يديمكم للمغرب وللأمة العربية والإسلامية، وأن يديمكم حرزها المنيع، والحافظ لقيمها ومقوماتها، والمدافع عن هويتها وكيانها وشخصيتها ووحدتها، وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يلقي عليكم وعلى الدوام رداء الصحة الكاملة والعافية الشاملة، وأن يسعدكم بإجماع الأمة حولكم، وأن يشد أزركم بالصادقين المخلصين من أبناء الوطن والأمة، وأن يحفظكم قرير العين بولي عهدكم المحبوب سمو الأمير الأمجد سيدي محمد، وصنوه السعيد سمو الأمير مولاي رشيد، وجميع آل بيتكم المطهرين آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والختم من مولانا أمير المومنين[1].

---

[1] **ختم جلالة الملك المنعم الدرس بهذه الكلمة:**

"بالأمس فارقنا رجل نحبه ويحبنا، هو العلامة الأستاذ سي عبد الله شاكر الكرسيفي. إنني كنت أعرفه منذ قديم، وكلما التقيت به وعرفته وجدت فيه الأستاذ الصالح والمواطن المثالي. وكان رحمه الله لا تأخذه في الله لومة لائم وكان دائماً بشوشاً، من الذين لا يلقنون بل يلقحون العلم، فليهنأ رحمه الله لأنه عَلِمَ وعَلَّمَ، فسوف يكون من الذين إن شاء الله يكونون بجوار النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والشهداء والصالحين. ألهم الله ذويه الصبر والإيمان. ولنقرأ على روحه سورة الفاتحة ﴿لسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ آمين. اللهم صلِّ أفضل صلواتك على أشرف مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عدد مخلوقاتك ومداد كلماتك كلما ذكركَ وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكركَ وذكره الغافلون ﴿سبحان ربّك ربِّ العزة عمَّا يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾".

الفهرس

للاتصال بالمؤلف :

- البريد العادي : ص ب 399 البريد المركزي 10001
الرباط – المغرب
- البريد الإلكتروني : Email : abbesjirari@hotmail.com